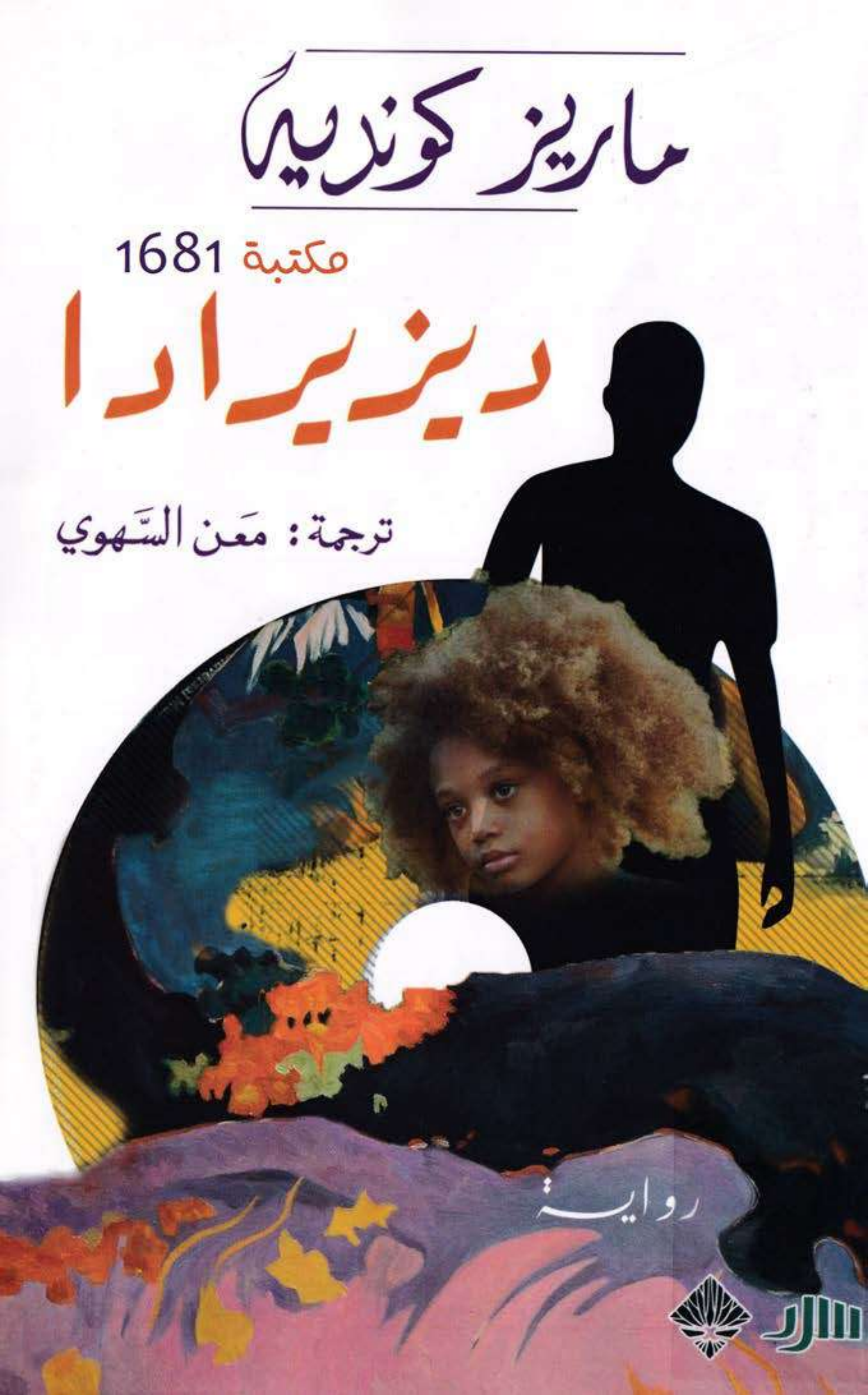

ماريز كونديه
مكتبة 1681
ديزيرادا
ترجمة: معَن السَّهوي
رواية



ديزيرادا

مكتبة | 1681

Desirada

Maryse Condé

ديزيرادا – رواية

تأليف: ماريز كونديه

ترجمها عن الفرنسية: د. معن السهوي



تصميم الغلاف: نجاح طاه

ISBN: 33 - 641 - 75 - 7

الطبعة الأولى: 2022



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا – دمشق – ص ب: 9838

هاتف–فاكس: 6133856 11 963+

جوال: 557195187 971+

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH

سرد

دار سرد للنشر

جوال: 81756938 961+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

ماريز كونديه



ديزيرادا

رواية



ترجمها عن الفرنسية:

د. معن السهوي

توضيح بخصوص اسم الرواية:

تتحدّر بطلات الرواية من جزيرة «ديزيراد» desirade، وتختار ماريز كونديه لروايتها اسم desirada، الذي يعني «مرغوبة». وقد ارتأينا الإشارة إلى معناه هنا، لأننا نظن أن لهذا المعنى علاقة ضمنية باختياره من قبل الكاتبة ليكون اسماً لهذه الرواية، علاقة تتجاوز كونه اسم الجزيرة فحسب.

الناشر




MOHAMED KHATAB



إلى سيلڤي، عائشة، ليلى!


MOHAMED KHATAB

«لا شيء يضاهي السعادة في أهمّيتها»

أغنية مارتينيكية




MOHAMED KHATAB

القسم الأول



.1

روت لها رانليز حدث ولادتها مرّاتٍ عدّة جعلتها تظنّ أنها لعبت دوراً فيها، ليس دور الرضيعة المذعورة المغلوب على أمرها التي كانت القابلة، السيّدة فلوريت، تخرجها بصعوبة من بين فخذي أمها المضرّجتين؛ بل دور شاهد مُدرك أو مُشارك أساسي في الأمر، أو حتى دور والدتها نفسها، رينالدا، التي كانت تتخيّلها جالسة متصلّبة، تعضّ على شفتيها، ذراعاها متصالبان، ومحيّاها يدلّ على عذابٍ لا يُحتمل. بعد مرور عدّة أعوام، عندما وقفت أمام لوحة لفريدا كالو تصوّر مجيء الأخيرة إلى العالم، تهيّأ لها أن هذه المرأة التي تجهلها قد رسمت هذه اللوحة لها.

الساعة الثالثة بعد الظهر والجوّ ينبض بالحياة حتى الثمالة. إنه ثلاثاء المَرفع، يوم الابتهاج العارم الذي تستعرض فيه الفرق التنكّرية في شوارع «لابوانت». كانوا قد بدؤوا تدريباتهم بسرّية تامّة منذ يوم الأحد تحضيراً للانطلاق من ضواحيهم نحو مركز تجمّعهم في ساحة «لافيكتوار»، وصار بالإمكان مذّاك الاستماع إلى أكثر ضربات «الغوكا»(*) شعبيةً. بعض الفرق اختارت التنكّر بأوراق شجر الموز المجفّفة، بينما دهن أعضاء فرقٍ أخرى

(*) طبل كبير الحجم. [المترجم].

أجسادهم بالقطران، وراحوا يركضون وهم يَصْفِقون بأسواطهم الملتوية كالأفاعي. البعض الآخر وضعوا رؤوس ثيران وجواميس اصطناعية، وثبّتوا على ما يرتدون من شبه ملابس مرايا مصنوعة من قطع زجاج ومعدن الميكا بأحجام كبيرة عكست نور الشمس دائرياً. هؤلاء كانوا المفزّعين، أصحاب الأقنعة ذوات القرون الذين يقال إنهم أتوا من إقليم الكازامانس. كان البرجوازيون وأطفالهم ينتظرون واقفين على شرفاتهم بين أزهار الجهنمية ونخلات المراوح المزروعة في أُصُص فخارية، متسلّحين بمؤونة من قطع نقدية بيضاء مثقوبة معدّة للرمي. إلى الأسفل منهم، تمشي الجماهير بتثاقل وتصيح.

تجمهر الجميع في مركز المدينة وفرغت قناة «فاتال» من الناس، إلا من بعض «موكو زومبي»(*) ضلّوا طريقهم، وسرعان ما أدركوا خطأهم وانصرفوا عبر شارع «فريبو»، ولكن ليس قبل ركل الأبواب الخشبية المغلقة بأرجلهم الطويلة كنوعٍ من الإعلان عن مرورهم. خلف درف شبابيك شقّة رانليز ذات الغرف الأربع، لم تكن تصل ضوضاء «الغوكا»، ولا الصفير الحادّ، ولا زعيق موسيقا «الرارا» التي ترافق المقنّعين. كما أنه لم يكن بالإمكان سماع صرخات بهجة الحشود. لم يكن يعكّر الصمت إلا أنين رينالدا المكتوم التي أبى حوضها الضيّق ذو الخمسة عشر عاماً أن يساعد في عملية الولادة، والتعنيف الأمومي الضجر الذي تطلقه السيّدة فلوريت بالكريولية: «ادفعي، أقول لك ادفعي! بحقّ الله ادفعي!»، وأخيراً، بكاء المولود الجديد، الضعيف والمستمرّ.

السيّدة فلوريت خلاسيّة جميلة لم تكن ترغب سوى بعمل الخير،

(*) بهلوانيون يمشون باستخدام عصي طويلة يثبّتونها على أرجلهم. [م].

ومع أنها لا تحمل شهادةً بالقبالة إلا أنها كانت قابلة خبيرة. تطوف الأحياء البائسة على درّاجتها من نوع «بيجون فولان»، في الشتاء كما في الربيع، كي تولّد النساء الفقيرات اللواتي لم يقبلهنّ المستشفى العمومي، ولم تكن راهبات مأوى «سان جول» يملكن الوسائل اللازمة لاستقبالهن. عندما داهم المخاض رينالدا، تعرّفت كلٌّ من رانليز، التي كانت قد آوتها قبل عدة أشهر، بعد محاولتها الفاشلة الانتحار غرقاً، وأختها الصغيرة كلير ألتا، على الدرّاجة المركونة أمام منزل متواضع في يوم العيد هذا، وطلبتا من السيّدة فلوريت الحضور. بعد انتهاء عملية التوليد الشاقة، وأثناء ما كانت رانليز وكلير ألتا تصحبان مدام فلوريت إلى حوض المياه الصافية في الباحة وهما تغدقان عليها بعبارات الامتنان، أطلقت رينالدا حشرجة رهيبة جعلتهن يستدرن نحوها فزعات. كان وجهها يوحي بأنها قد فارقت الحياة. اتشح فجأة الشرشف الرقيق الذي يغطيها باللون الأحمر، وسقطت قطرات دم على الأرض. لحسن الحظ لم يكن المأوى بعيداً. وُضعت رينالدا على سرير ما زال ساخناً من حمّى ولادة امرأة بائسة قد فارقت الحياة لتوّها، وبدأت الراهبات القيام بما يلزم.

حين خرجت رانليز من مأوى «سان جول» قرابة منتصف الليل، كانت ألعاب نارية ملوّنة أُطلقت من جهة «لادارس» تعبر السماء متعرّجة في طريقها نحو «لادومينيك»، حيث تلاشت. كانت الشوارع تعجّ بالأطفال والنساء، وبرجال يصيحون، وبسكارى يقومون بقفزات طويلة. في هذا الصخب الجهنّمي، رقص المقنّعون رقصاتهم الأخيرة.

لدى عودتها، وجدت رضيعتها مستغرقة في النوم في المكان الذي نسيَتها فيه، وجهها الصغير ملطّخ بالبراز وبدمٍ جاف، رائحتها كالسمك الفاسد. على الرغم من ذلك، بثّت أشعة الحب الخارجة من قلب رانليز

الضياء في الجسد الصغير. لطالما رغبت رانليز في أن يكون لديها أطفال، إلا أن الله كتب عليها أن تُسقِطَ الحملَ تلو الآخر، أو أن تلد أطفالاً ميّتين أو مرشومين(*) الواحد تلو الآخر. ضمّت الطفلة إلى صدرها بقوّة، مقتنعة بأن الله قد ندم أخيراً وأراد أن يكفّر عن معاملته السيئة لها. أغرقتها بالقبلات واختارت لها اسماً على ذوقها: ماري نويل، مع أنها ولدت في فترة الكرنفال. ماري لأنه اسم العذراء مريم، أمّ الفضائل كلّها؛ ونويل تيمّناً بتلك الليلة العجائبية التي تجسّد فيها يسوع كطفل فداءً لخطايانا. جهّزت لها حمّاماً مريحاً جدّاً. نقعت في الماء الفاتر، الممزوج بخلاصة الورد، أوراق كوريوسول وحفنةً من البنفسج الإسباني، وجراباً من الزيوت العطرية. نشّفتها بعد ذلك بقماش قطني ناعم، وأضجعتها على بطنها لتجنّبها فزع الليل والريح والأحلام السيّئة.

رانليز زنجية طويلة تعمل طبّاخة في «تريبور بابور»، وهو مطعم يقع في محلّة «بادوسورس»، لا يوحي بالأبّهة لكنّه يتمتّع بسمعة طيّبة، ويقدّم أطباقاً شهيّة. يختصّ المطعم بمحار العنكبوت، وما من أحد يضاهي رانليز بالمهارة في إخراجها من قوقعتها، وغسلها بخلطة من تحضيرها مكوّنة من نبيذ «سومور» وأوراق القرنفل، وضربها بهراوة صنعتها من خشب الغويقم، وتقديمها للزبائن طريّة ذائبة كلحم الحمل مع صلصة القطيفة. زبائنها كانوا يأتون من بعيد، أحياناً من « لومول» أو من «لا بوكان»، كما أن جيراردو بوليوس، عمدة مدينة «لابوانت» الشيوعي، كان يتناول أربع وجبات أسبوعياً في «تريبور بابور» بصحبة أعضاء المجلس البلدي كلّهم. قبل عدة أشهر، لمّا كانت في طريقها إلى «كاريناج» للتحدّث مع الصيّاد

(*) الرشم هو معمودية مبسّطة تُجرى في حالة وجود خطر موت وشيك للطفل. [م].

الذي تتعامل معه، لحظت صرّة قماشية تطفو على سطح الماء كالعوّامة. أحسّت بأن شيئاً ما ليس على ما يرام. اقتربت فميّزت ذراعاً ورِجلاً وجانباً من مؤخّرة. جذب صراخها المتسكّعين في المكان، الذين، بمساعدة عصا طويلة، انتشلوا الغريقة التي ما يزال قلبها ينبض بخفقات متردّدة.

كانت فتاةً يافعة، طفلة تقريباً، ربما في الرابعة عشرة من عمرها، ومن الأكيد أنها لا تتجاوز الخمسة عشر ربيعاً. ثدياها قد بدأا بالنمو كبراعم الغوافة. أخذتها رانليز المشهود لها بجودها وكرمها إلى منزلها. فركت لها جسدها بزيت الكافور، وقدّمت لها شاي الأعشاب الغنية بالحديد مع قليل من الروم كي تدفئها. ختاماً، دثّرتها بأحد قمصان المولوتون التي ترتديها في الفصل الماطر الرديء. في اليوم الأول، لم يكن ممكناً الحصول منها إلا على جمل عنيدة. قالت إنّ اسمها رينالدا تيتان. أمّها أنتونين، المعروفة بنينا، كانت تعيش حياة هانئة في كنف عائلة جيان كارلو كوبيني، وهو جواهري إيطالي يملك في شارع «نوزييه» متجراً اسمه «إيل لاغو دي كومو»، لا يفرغ من الناس المهتمّين بالشراء أو بالفرجة فقط. وجه جيان كارلو كوبيني يشبه وجه المسيح، بشعره الحريري الأجعد ولحيته. كان يسود على مملكة من النساء، مؤلّفة في المقام الأول من زوجته، التي كانت دوماً إما حاملاً أو على وشك الإنجاب، أختاه اللتان ترتديان دوماً اللون الأسود وتعتمران مانتيلا(*) من الدانتيل، وبناته. يعود الفضل إليه في أن نينا استطاعت إرسال رينالدا إلى مدرسة «دوبوشاج» الحكومية. عشقت رينالدا المدرسة وتميّزت في التاريخ والفرنسيّة والعلوم الطبيعية. عملت بجدّ ونالت شهادة التعليم الابتدائي.

(*) طرحة من الدانتيل أو الحرير تُلبس فوق الرأس والكتفين. [م].

تلقّت رانليز نصائح كثيرة تدعوها لإرسال الفتاة إلى المكان الذي أتت منه، فقد تكون سارقة أو مجرمة تبحث عنها الشرطة. ما إن طرحت رانليز فكرة العودة إلى «إيل لا غو دي كومو» حتى جثت رينالدا على ركبتيها وبلّلت، كما لو أنها مريم المجدلية، أقدام رانليز بالدموع. صرّحت في تلك اللحظة أن حملها كان السبب وراء محاولتها الانتحار غرقاً. تعجّبت رانليز بشدّة لما سمعت. الانتحار بسبب حمل؟ ألم تكن تعرف أن الأطفال هم بركة من عند الربّ الطيّب؟ أنهم الدليل على أن نَداهُ الخيّر قد خصّب لها القلب والجسد؟ على المرأة التي يكبر بطنها ويتكوّر أن تركع بكلتا ركبتيها على الأرض، أن تلطم صدرها، وأن تشكر بأعلى الصوت: «الحمد لك يا ربّ!».

لم تكن رينالدا تثق بأحد. إلا أنها، في بعض الأحيان، تبوح بمكنوناتها إلى كلير ألتا التي لها العمر نفسه تقريباً. قرّرت رانليز أخيراً أن تبقيها عندها، ووجدت لها عملاً في مطعم «تريبور بابور»، في المطبخ وليس في تقديم الطعام، وذلك لأن الزبائن اشتكوا من أنها تُفقدهم الشهية في شرب الروم خاصتهم.

الذكرى المتخيّلة الثانية لماري نويل كانت تلك المرتبطة بعمادها الذي جرى إبّان شهر الصوم الكبير، يوم سبت، اليوم المخصّص لعمادة الأولاد غير الشرعيين الذين لا يعرفون أسماء آبائهم. كنيسة القديس جول المجاورة للملجأ الذي يحمل الاسم نفسه، هي عبارة عن بناء خشبي صحنه على شكل غاطس سفينة. صمدت الكنيسة في وجه الحرائق والهزّات الأرضية التي ضربت «لابوانت» منذ تأسيسها. اختفى الآن قسمٌ كبير من درف الشبابيك وتحطّم الزجاج المعشّق في كثيرٍ من المطارح،

ومالت قبّة الجرس الصغيرة مثل غطاء رأس امرأة عجوز سئمت تكاليف الحياة وهمومها. حملتها عرّابتها رانليز في ذراعيها كخبز المناولة. لقد كانت رانليز مثيرة للإعجاب ذلك اليوم، تشعّ جمالاً. ترتدي ثوباً من قطعتين من الساتان الأزرق المرقّش مع طيّات بيضاء، وتعتمر قبّعة بسيطة عريضة الحواف. أخذ واحدٌ من أصدقائها العديدين، يرتدي بدلة مزدوجة الصدر سوداء، ويضع ربطة عنق، دورَ العرّاب وشاركها بابتهالاتها.

«نسبّح بحمدك يا ربّ. المجد لاسمك الآن وقد حلّ بيننا!».

يتموضع جرن العمادة أمام زجاج معشّق سليم يمثّل بشارة السيّدة العذراء مريم. إبهامها في حلقها ورأسها على صدر رانليز المكتنز، لم تكن ماري نويل تعير أيّ اهتمام لعظة الكاهن، ولا للوعود الطيّبة التي أخذ عرّابها وعرّابتها على عاتقهما تحقيقها لها. لم يكن بإمكانها إشاحة نظرها عن صورة الملاك جبرائيل، بعباءته الزرقاء وجناحيه المفتوحين عريضاً، حاملاً باقةً من الزنبق في يده. أخذ الأطفال الآخرون من حولها يزقزقون ويمصّون الملح، أما هي، الغارقة كليّاً في رؤياها، فقد كانت تعتبر نفسها في مرتبة أرقى. أفلم تعلن رانليز إنها الطفلة الأكثر عجائبية على وجه الأرض؟ استمعوا بعد العمادة للموسيقا، ليس فقط المعزوفات المعروفة مثل «مازوركا» و«بيغوين باباب» وألحان أخرى، فقد وضع السيّد والسيّدة ليوميداس، اللذان يعملان في السنغال في إطار اتفاقية تعاونية، قرصاً في قارئ المسجّلة، وظلّ المدعوون معقودي اللسان لدى سماعهم للشرح الذي قدّماه عن رواة إفريقيا.

رغم أن رانليز قد روت لها القصة مراراً، إلا أن ماري نويل لم تكن تذكر شيئاً عن رحيل أمها. كل ما تعلمه هو أن ذلك حصل في أيلول، شهر

غضب السماء، الشهر الذي يحمل مخاطر الأعاصير والعواصف. بعد أسبوع أو أسبوعين من المعمودية، أعلنت رينالدا أنها ستذهب للعمل في فرنسا المتروبولية. في المتروبول؟ بحقّ السماء! كما هي الحال بالنسبة لكثير من أترابها في تلك الفترة، أمّن مكتب تحفيز الهجرات من الجزر الفرنسية (BUMIDOM) عملاً لها لدى جان رينيه دوبارك، الذي يقطن في بولڤار «مالزيرب» في الدائرة السابعة عشرة في باريس. تتألف عائلة جان رينيه من ثلاثة أطفال أعمارهم صغيرة ويحتاجون إلى خادمة. لم يتحفّظ جيراردو بوليوس عن إبداء رأيه في الأمر، ولا حتى الجيران. أما رانليز، فقد كان فرحها عارماً، ولكي تُظهره، أهدت رينالدا ثلاث أوراق نقدية من فئة المئة فرنك. قبل أن تسافر، صارحت رينالدا كلير ألتا بأنها لا تنوي أن ينتهي بها الأمر خادمة.

لقد كان لديها الحافز للدراسة وأن تصبح شخصاً ذا مكانة اجتماعية.

السنوات الأولى من حياة ماري نويل كانت ساحرة. تتنزّه يداً بيد مع رانليز في تفرات(*) مليئة بسراخس وارفة وبداتورا شديدة البياض وهيليكونيا ذات بتلات ثقيلة أطرافها صفراء اللون. بعض المطارح تعجّ بأزهار زنبق القنا الأرجوانية. كان الهواء المنعش، دائريّ الهبوب، يمزج على مستوى منخريها روائح الأزهار والريح والأرض والمطر. طفولتها كانت عبارة عن حديقة عبيرها فوّاح. في الواقع. لم تكن ماري نويل، بالنسبة للبعض، تملك الشيء الكثير. سوار محفور عليه اسمها. طوق وثلاث أيقونات إحداها تمثّل يسوع الطفل، شفيعها الحارس. بضعة

(*) التفرة: ما ابتدأ من النبات، أوما ينبت تحت الشجر. [م].

باضات في سلّة من القصب المجدول على الطريقة الكاريبية. لم يكن لديها درّاجة ثلاثية العجلات أو سيارة بدوّاسات أو دمية «باربي»؛ كل ما كانت تملكه هو درّاجة صغيرة مرتجلة تستعملها للنزول بسرعة بمحاذاة قناة «فاتال»، أو في الشوارع المشقوقة حسب معايير «أودول». لكن سعادة الطفل لا تقاس لا بالذهب ولا بالألعاب المكلفة، بل بدقّات القلب، وقلب رانليز لم يكن يخفق إلا لها. يد رانليز كانت ناعمة، ناعمة، حتى عندما تفكّ شعر ماري نويل الطويل والغزير. لم يكن هنالك من صفعات أو وكزات أو ضربات بالحزام على المؤخّرة. لم يكن هنالك قطّ أيّ عقوبات، واقفة أو جاثية على ركبتيها والذراعان ممدودتان في الباحة تحت أشعة الشمس التي لا ترحم. وما من كلمات نابية حتى. عوضاً عن ذلك هنالك فيض من أسماء الدلع والقبلات على الرقبة.

في اثنين الباعوث(*) كانوا يضعون سفرطاسات أرزّ ومحار العنكبوت المحضّر على طريقة كولومبو في سلّة، وينطلقون في باص صغير إلى «غراند آنس دي هي». كانت ماري نويل تضحك وتغطس بلباسها الداخلي من نوع «غراند باتو» في الماء، في الوقت الذي كان فيه الراستافاريون(**) ذوو الجدائل الطويلة والكثيفة يلعبون بالكرة على الرمال أو يعزفون الغوكا.

غيّر وجود ماري نويل حياة رانليز جذرياً. قبل مجيئها، عاشرت رانليز رجالاً كثراً. كان الفضوليون يراقبون أولئك الذين يأتون إلى منزلها عند الغسق ولا يغادرونه إلا عند انبلاج الفجر وأفول ضوء النجوم. أولهم جيراردو بوليوس، عمدة المدينة الشيوعي، الذي كان يتردّد عليها بانتظام

(*) هو يوم الاثنين الذي يلي أحد الفصح. [م].
(**) أتباع الراستافارية وهو دين نشأ في جامايكا في ثلاثينيات القرن العشرين. [م].

منذ عشرين عاماً، وأليكسي أليكسيوس، مساعد العمدة الأول، الذي ينسلّ خفيةً بعد أن يدير العمدة ظهره. إن لم يكن الناس يتكلّمون بالسوء عنها، فذلك مردّه أن رانليز امرأة طيّبة، جاهزة دائماً لتقديم يد العون للآخرين، تضع ورقة نقدية في يد الأكثر عوزاً، تجد عملاً لمن هو عاطل عنه، ومكاناً في الحضانة لطفل صغير. تغيّر كلّ ما هو طائش في تصرّفاتها بين يوم وليلة. باستثناء جيراردو بوليوس، لم يعد هنالك أحد يأتي لقضاء الليل معها. ورغم أنها لم تكن تراعي أيّاً من شعائر الكنيسة، إلا أنها لطالما احتفظت بعلاقات جيّدة مع كهنة كنيسة سان جول، وكانت تنظّم حفلات «فلنغنِّ للميلاد» في باحتها في الفترة التي تسبق الأعياد. أما الآن، ودون أن تصل إلى حدّ الذهاب للاعتراف أو تناول القربان المقدّس، فإنها لم تعد تفوّت قدّاساً أو قدّاساً مسائياً أو تلاوة مسبحة. لقد شوهدت مرة تسير بخشوع خلف تمثال عذراء العودة الكبرى، الرأس مطأطأ، تلطم على صدرها، لا تفتأ تشكر الربّ على السعادة التي أدخلها في حياتها.

لوحظ بسرعة أن واهب الذكاء، لم ينسَ ماري نويل من عطائه. لقد كانت الأولى في كلّ شيء. لدى توزيع الجوائز، كانت تصعد تكراراً إلى المنصّة. تحصل على الجائزة الأولى تلو الأخرى، كتاب بغلاف جلدي كامل أو كتاب بحواف مذهّبة. كان ذلك مدعاة فخرٍ لرانليز، التي رأت نفسها أمّاً لمعلّمة مستقبلية، أو بالأحرى لقابلة قانونية. لقد نسيت كليّاً أنها ليست والدة ماري نويل. يجب القول إن رينالدا لم تبذل أيّ جهد يُذكر لمعرفة أخبار ابنتها. مرَّ الوقت، شهوراً وسنوات، ولم يكن يصل منها أيّ شيء سوى بطاقة بريدية من دون عنوان ترسلها بمناسبة رأس السنة. أكّد لنا كلودومير لودوفيك، البريدي المتقاعد من عمله في الدائرة الثالثة

عشرة، أنه صادفها يوماً في وسط ساحة إيطاليا. نظرت إليه بطرف عينها، متظاهرة بأنها لم تتعرّف عليه. على الرغم من الزمن الذي مضى إلا أن الناس ما زالوا يذكرون اسم رينالدا ألتامير، فهم لا ينقذون غرقى من مياه «الكاريناج» كل يوم. وما السبب في غرقها؟ لو فعلت كل الفتيات الحَبالى من دون زواج الأمرَ ذاته لفرغت الأرض من الناس. مع الوقت، أصبحت رينالدا ترمز إلى الفتاة النزقة الكئيبة التي لم ترضَ بالواقع المعيش.

في كل مرة تطرّق الحديث لوالدة ماري نويل، انتابها شعورٌ بالخطر، وأحسّت بأن ريحاً متجمّدة تهبّ على كتفيها، وبأن ذات الجنب ستصيبها. فتجهد في تغيير موضوع النقاش، إما بالحديث عن آخر إنشاء كتبته أو بالطلب أن تُسمِّع درساً. أحياناً، كانت ذكرى أمها تجتاحها في عزّ الليل وتوقظها مثل كابوس، فتأخذ في البكاء كشخصٍ لا عزاء له، إلى أن يجفّف ضوء النهار دموعها.

في طريقها إلى مدرستها، لم تكن تستطيع منع نفسها من الالتفاف عبر شارع «نوزييه» كي تنظر إلى «إيل لاغو دي كومو» المتموضع في الطابق الأرضي لمنزل خشبي من طابقين يحتاج لأن يُدهن من جديد. كانت تشعر بأن سرّ ولادتها يكمن في هذا الحانوت الذي لا يوحي بالراحة، الضيّق كأمعاء والمضاء بالكهرباء على مدار الساعة. ما هي الأحداث الرهيبة التي سبقت ولادتها ودفعت أمها، التي لم تبلغ الخامسة عشرة بعد، لأن تفضّل الموت على الحياة وترمي نفسها في الماء؟

في أحد الأيام، لمّا كانت في العاشرة من عمرها، تجرّأت ودفعت الباب، واختلطت بجمع الزبائن المعجب بالمحفورات الفلورنسية، وبالأيقونات المنقوشة المعلّقة على دبابيس زينة أو على سلاسل. كانت الزوجة الذابلة

تتربّع خلف صندوق الدفع، في حين كانت الأختان معتمرتا المانتيلا تتكلّمان مع الزبائن. في إحدى الزوايا، هنالك ثلاث فتيات أو أربع يلعبن بدمى قماشية. جيان كارلو كوبيني يتفحّص حجراً أخضر اللون، واضعاً عدسة مكبّرة على عينه اليمنى. شعره الحريري الجميل، الذي أصبح، كما لحيته، رماديّ اللون، يكاد يلامس كتفيه. كان يعتمر قلنسوة سوداء، الأمر الذي يوحي بأنه يهودي. بعد هنيهة، وضع الحجر على الطاولة وأخذ ينظر من حوله. لحظ ماري نويل في ركن من المحل، ابتسم لها ابتسامة عذبة ونبيلة كشفت مع ذلك عن أسنان جارحة. كان يشبه سيّدنا يسوع المسيح محاطاً برسله. في تلك اللحظة، خرجت خادمة من غرفة خلفية، مع صينية مغطّاة بشرشف صغير أبيض مطرّز، تحمل فنجاناً مذهّب الحواف وسكّرية وركوة قهوة. سكبت الخادمة القهوة وأضافت، بحذر ينمّ عن خشية من التأنيب، ملعقتين من السكّر. عبق المكان بريّا القهوة النافذة.

شكرها جيان كارلو كوبيني بحركة من يده تعني أيضاً أنه بإمكانها الانصراف. ثم، بجلال كاهن يشرب نبيذ القدّاس وبمسرحة ممثّل، نظر إلى الأسفل ورفع فنجان القهوة إلى شفتيه اللتين تشبهان حبّتَين ورديّتين تتربّعان وسط شعر لحيته الكثيف. حين خرجت ماري نويل إلى ضوء الشارع مجدّداً، اتكأت على الحائط وكانت على وشك الانهيار من شدّة تأثرها.

نعم، ما من شكّ في أن هذا الرجل الغريب قد لعب دوراً رئيسياً في حياتها.

.2

الخامس من تموز 1970. تتحضّر ماري نويل، التي احتفلت مؤخّراً بعيد ميلادها العاشر، للالتحاق بالصف السابع في ثانوية «ميشليه». وضع ساعي البريد داخل خصاص النافذة إشعار بريدٍ مضمون مرسل إلى السيّدة رانليز تارتوليان.

خلق الأمر إثارةً كبيرة.

أولاً، لأن ما من رسائل تصل إلى رانليز سوى بطاقة المعايدة التي ترسلها رينالدا، وكاتالوغ «تروا سويس» الإعلاني، والتكاليف الضريبية. ثانياً، لأنها لا تعلم كيف تستلم رسالة مسجّلة. أين أخفت بطاقة هويتها الوطنية التي كانت لا تستعملها مطلقاً؟ في منضدة السرير؟ في الدولاب؟ في سلة القصب الكاريبية المخصّصة للفضّيات؟ بعد أن بحثت لساعات، وارتأت أن تصلي للقدّيس إكسبيده، شفيع الأمور الميئوس منها، وجدت البطاقة تحت كومة من الشراشف الفاخرة الموضّبة في خزانتها. تمكّنت أخيراً من الذهاب إلى مكتب البريد الذي افتُتح مؤخراً في حيّ «بيرجوفان» بالقرب من مركز انطلاق الباصات الجديد.

لأنها لم تكن متمكّنة جيّداً من القراءة، جلبت الظرف إلى ماري نويل

التي، حتى قبل أن تفتحه وتعلم فحواه، علمت بأن أكثر ما كانت تخشاه بات على وشك الوقوع.

ضمَّ المغلّف السميك المصنوع من ورق الكرافت حوالةً بريدية، وبطاقة طائرة، وبضع استمارات تحمل رأسية شركة الطيران الفرنسي، ورسالة قصيرة.

كُتبت الرسالة على ورق بلون القشدة، بخطٍّ ثابت وأنيق:

سافيني سور أورج. 27 حزيران

الصديقة العزيزة رانليز،

على العكس ممّا تظنّين، لم أنسَ ابنتي. لقد حان الوقت الذي أستطيع القيام فيه بواجباتي تجاهها. لقد أصبحتُ قادرة على تأمين الحياة الكريمة التي يستحقّها كلّ طفل. أرجو منك، مع كلّ الامتنان، أن ترسلي لي جلاءاتها المدرسية ودفترها الصحي. تجدين مرفقاً ما يلزم لكسوتها، وبطاقة طائرة موعدها منتصف شهر تشرين الأول. لن يكون عليك سوى توقيع الوثائق، وستمكّن من السفر كقاصر من دون مرافق.

لك شكري العميق على طيبة قلبك.

رينالدا تيتان

ملاحظة: أعمل حالياً مساعدة اجتماعية في بلدية سافيني سور أورج.

غابت رانليز عن الوعي. هرعت الجارات إليها، ومسحنَ جبهتها وراحة يدها بكحول الكافور. لمّا عادت إلى وعيها، أخذت تبكي دمعاً سخيناً وتشتكي بصوتٍ عالٍ موبّخةً القدر. هل ربّت الطفلة ورعتها

لعشر سنوات لترسلها في النهاية إلى امرأة مختلّة تركتها بلا حماية؟ من هي الأم الحقيقية؟ تلك التي اعتنت بها لمّا أصابتها الحصبة والجدري والتهابات الأذن؛ أم تلك التي كانت منكبّة على استحواذ اهتمام الناس في فرنسا؟ أليس من قوانين لحماية الناس، لتصويب تجاوزات العالم؟ لن تسمح أبداً بأن تنفصل ماري نويل عنها. هزَّ جمع الجيران رؤوسهم بالموافقة. نهضت بعد ذلك وتسلّحت بشمسيّتها للذهاب إلى الخارج. لم يكن من عادتها أن تزعج جيراردو بوليوس أثناء عمله، أو أن تُخرج للعلن العلاقة التي تجمعهما، لكنها شعرت في هذا اليوم أنها بحاجة إلى نصائحه السديدة، فلقد درس الحقوق وهو محامٍ وإن لم يكن يمارس المهنة في الوقت الحالي. كان مشغولاً في اجتماع مع أعضاء المجلس البلدي ومدير الخدمات الطرقية حين وصلت إلى مبنى البلدية، خارجةً عن طورها وعيناها منفوختان من شدة البكاء. اضطرّت لانتظاره ساعتين، استغلّتهما في سرد قصّتها التي أثارت شفقة الموظّفين. قرأ الرسالة بتأنٍّ واستمع إليها بأناة، ثم قال بحزن، لأنه كان يعلم مقدار تعلّقها بماري نويل: «لقد قلت لك مراراً أن تجعلي هذا الوضع قانونياً باللجوء إلى التبنّي. لا تستطيعين فعل شيء في الوضع الحالي، فالقانون إلى جانب الوالدة».

وبعد كلّ اللكمات التي وجّهتها لصدره واتهامه بأنه عديم القلب، لم يعدّل جيراردو كلامه. انتهى الأمر بها أنها انهارت لاعنةً الله. حين عادت إلى هدوئها قليلاً، أوصلها إلى منزلها بسيارته من نوع د. س 19.

ارتفعت حرارة ماري نويل مساءً. وتجاوزت الأربعين درجة عند التاسعة. بدت عيناها الحمراوان كالجمر وكأنهما ستخرجان من محجريهما. عند الساعة العاشرة، أخذت تنتحب وتصرّ كطفل صغير، أو تقوم بمحاكاة

صوتية. كانت تنتابها لحظات تبدو فيها وكأنها قد عادت إلى وعيها، فتصرخ بصوت مفجع: «أريد أن أبقى لدى أمي!».

دهمتها من ثم نوبات تشنّج كانت من القوة بمكان أنها كادت تسقط من على سريرها، الأمر الذي استوجب تثبيتها إلى السرير بالشراشف.

شخّصت مدام فلوريت، الشخص الوحيد الذي قَبِلَ أن يأتي ليعاينها في منتصف الليل، أنها مصابة بالملاريا، ونصحت بأن تُسعف في الحال إلى المستشفى العام حيث وجد الطبيب المناوب الشاب أن هذه الأعراض تدلّ على الإصابة بحمّى الضنك، وعالجها باستخدام عقاقير السلفا. أصابها إسهال عند الرابعة فجراً جعلها تُخرج دفعة واحدة كل ما في أحشائها، كما لو كانت مصابة بالتيفوئيد. وخرج في الوقت نفسه من فمها إقياء شبيه بحساء الشودو، سميك وذو رائحة مقرفة. تصلّب جسدها كما لو أنها قد توفّيت، ودخلت في غيبوبة. أعلن الأطباء أن لا أمل يرجى من حالتها، وراح الناس يستعدّون لمراسم دفن مزدوجة، فالكلّ كانوا على يقين من أن رانليز ستتبعها من شدّة حزنها عليها. على الرغم من ذلك شُفيت ماري نويل. بعد أسبوع أمضته في غيبوبة عميقة في سرير معزول بستار، حتى لا تثير خوف باقي المرضى، فتحت ماري نويل عينيها وطلبت أمها. ركعت رانليز، التي لم تبرح مكانها إلى جوار السرير للحظة واحدة، على الأرض وهي تبكي، وصرخت قائلة: «هوشعنا في الأعالي!». يجدر القول إن ماري نويل التي خرجت من المستشفى العام في أحد صباحات تموز متكئة على رانليز لم تعد تشبه تلك التي دخلته قبل قرابة الشهر من الآن. الصبية ذات الوجه القمري، الجنّية، المزاجية، اللطيفة التي سحرت قلب رانليز، لم يعد لها وجود. عصاة طويلة حلّت مكانها. باتت نحيلة،

عيناها غائرتان، تحدّق في الناس من حولها بطريقة لا تبعث على الراحة، فقد كانت تبدو كمن يُشبع هوساً داخلياً من خلالهم. الصبيّة ذات الخيال الواسع جدّاً في الماضي، والتي لم تكن تتوقّف عن الكلام وملء رأس رانليز بحكايات مدهشة، لم تعد تنبس ببنت شفة فعلياً. صارت تقضي ساعات من دون حراك وهي تنظر أمامها، ثم تسند خدّها على كتف رانليز وتطلق العنان لدموعها.

استدانت رانليز، التي في حياتها كلّها لم تكترث للعطلات، وعملت كحيوان في كل يوم خلقه الله، نقوداً من جيراردو كي تستطيع استئجار منزل في «بور لويس» بالقرب من شاطئ «لوسوفلور» بغية اصطحاب الطفلة إلى هناك لتغيير الأجواء. كانت «بور لويس»، قبل أن تجتاحها الأعاصير وتنتهي فيها صناعة قصب السكر، أجمل مدينة في «غراند تير» دون نقاش، سماؤها زرقاء لا تعرف المطر وهواؤها لا يشوبه تلوّث. لقد كانت عبارة عن خطٍّ محاذٍ للشاطئ من منازل خشبية عالية وأنيقة ذات شرفات مزهرة ونوافذ عميقة. أما المنازل فتعود إلى ممثّلي المجموعات المالية الذين حلّوا مكان السكّان المتحدّرين من أصول أوروبية، والذين كانوا في زمن مضى أسياد السكّر. أيام الآحاد، يملؤون الكنيسة بعجرفتهم وبعطورهم وبثيابهم المنشّاة، ويضعون في سلّة جمع الصدقات ما يعادل رواتب شهر لعمّالهم. بلدة «بور لويس» كانت نشطة، يتمحور فيها كل شيء حول «بوبور». في موسم الحصاد، تتجه مواكب من العربات الحديدية تقطرها جرّارات إلى المصنع، وذلك لأن العربات التي تجرّها الثيران لم تكن تكفي لإنجاز العمل ولم تكن تُستعمل إلا من قبل المزارعين الصغار. إضافةً إلى ذلك، كان يحيط بالبلدة شبكة من السكك الحديدية طولها 40 كم، تسير عليها يومياً خمس قاطرات ومئتا عربة.

المنزل الذي استأجرته رانليز هو الأخير على الواجهة البحرية، إلى الجانب المهمل من الحديقة، ومع ذلك نمت فيه أزهار زنبق طويلة، كان يمكن رؤية مدافن المقبرة التي أضفت عليها الورود الحمراء الفاقعة وعناقيد زهر الألاماند الأصفر شيئاً من البهجة. لدى رانليز فكرة محدّدة عن الطريقة الواجب اتباعها لمعالجة المرضى. هي تعلم أن البحر قادر على شفاء كل شيء. غرّة كلّ صباح، في الوقت الذي لا يلوّث فيه زرقة البحر سوى قوارب الصيّادين الأوّلين، توقظ ماري نويل وتصحبها إلى الشاطئ. تخوض في البحر بحذر ملتحفةً بقميصها باهت اللون، تأخذ ثلاث حفنات من المياه في راحة يدها وتشربها، وتعود من ثم وتجلس على الرمل. لكن ماري نويل التي اتبعت دروس سباحة في المدرسة، كانت تسبح لمسافات طويلة نحو عرض البحر كما لو أنها تريد الوصول إلى الأفق. ولم تكن تتوقّف عن السباحة لتلتقط أنفاسها وتترك نفسها تعوم إلا حين تستحيل منازل المدينة إلى أقزام صغيرة يلفّها قوس مذهّب. حركة الأمواج البطيئة كانت تهدّئها وتؤرجحها إلى الأمام والخلف كطفلٍ في مهاده. ينحلّ شعرها، فتشعر بنفسها وقد أصبحت عشبة بحرية تتقاذفها التيارات، أو كحيوان بحري، عنكبوت بحر أو فرس بحر. دخلت رائحة البحر الفلفليّة في منخريها، في الوقت الذي لفّتها فيه طراوة الأمواج كالبلسم من كلّ الاتجاهات. إلى الجنوب، مياه البحر المفتوحة: الزرقة اللامتناهية. إلى الشمال، يمكن رؤية تقطّع قمم الجبال المائلة للزرقة. إلى داخل المياه، كان العمق الأبيض يجذبها وتخالجها الرغبة في النزول غوصاً نحو السلام الأبدي. تذكّرت رانليز التي تنتظرها، فعادت إلى الشاطئ.

عجّلت هذه السباحات اليومية مع الحمية الغذائية الدقيقة والمشي

في شفاء ماري نويل. كانت تذهب بعيداً أحياناً حتى «ماسوا»، و«غرو كاب»، و«بومبيراي». كان أطفال الهندوس الذين، في زمن الإمبراطورية الثانية، حلّوا محل الزنوج الفارّين من العمل في قصب السكر، يخرجون إلى عتبات منازلهم ليتأملوا هذا الثنائي المتباين: زنجية جميلة قوية البنية تمشي تحت مظلّتها دون أن تنظر يميناً أو شمالاً، تتبعها فتاة ضعيفة، راقصة الجدائل، بشرتها محمرّة من البحر، تنظر إلى كلّ شيء. لم تكن ماري نويل قد غادرت قطّ «لابوانت» ولا قناة «فاتابل». كان كلّ شيء يسحرها. وقفت مشدوهة أمام معابد الماريامين المحاطة بسورٍ خشبيّ زاهٍ ملوّن بالأخضر والأصفر والأحمر. ماذا يحصل خلف هذه الجدران ثلاثية الألوان؟ ما هي الرحلات المكوكيّة التي ربطت غات(*) نهر الغانج بهذه الدروب الكلسية؟ أو كان نفَسُها ينقطع من الركض على طول الأزقّة المزنّرة بأشجار جوز الهند القزمة والنخيل، في خرائب معامل السكر وسكن العمّال، التي كانت تشكّل في ما مضى نقاط علّام في حوض السكر هذا. تشمّ رائحة عصير القصب القادمة من معمل «بوبور»، وتحلم بأنها تتعلّق، كما الزنوج الصغار الأشقياء، خلف قاطرات قصب السكر التي تنفث دخانها عبر حقول «رازييه». باختصار، لقد استعادت بعضاً من قواها رغماً عنها، والفضل يعود في ذلك إلى حيوية بلدها.

لن تعود أبداً الطفلة التي كانت. لقد ولّى ذلك الزمن. بسبب مرضها وتعافيها الطويل لم تستطع السفر إلى فرنسا إلا في 31 تشرين الأول، متأخرة بذلك عن بداية العام الدراسي.

لا بدّ أن ماري نويل ما زالت حتى اليوم تحتفظ، في زاوية من رأسها،

(*) تُستخدم الكلمة للدلالة على السلالم المؤدية إلى الماء على ضفاف النهر، حيث تجري بعض الطقوس الهندوسية، كالوضوء أو حرق الجثث. [م].

بالأحاسيس والصور التي مرّت أمام عينيها حينما كانت في غيبوبة في المستشفى العام.

أحياناً، كانت تشعر بالبرودة تنخر نقيّ عظمها؛ أحياناً أخرى، تظن أنها على مقربة من أتون حريقٍ ما. فتشعر بأن جلدها سيُشوى ويتفحّم ويتركها عارية كإبالة من أحشاء قذرة. اليوم كلّه عبارة عن احليلاكٍ لا بصيصَ نور فيه، ظلام قبعت فيه. تحت ستار جفنيها، تتقاطع الأشكال وتتفكّك، تهرب وترفرف، أطرافها مرفوعة كما لو أنها أوشحة باهتة من الحرير أو البلاستيك. ثم ارتسمت فجأةً بقع ألوان غير محكمة، درجات بين الأزرق والبنفسجي، أو بقع أحادية اللون رافقتها، هنا وهناك، إضاءات خاطفة حمراء وصفراء أمام عينيها، تضخّمت وأبهرتها. طرفت بعينيها دون توقّف فصغُر حجمها. باتت صغيرة ومتوحّشة، كوكبة من نقط صغيرة ولمّاعة كأضواء السيّارات البعيدة، أو كعيون قطيع من حيوانات تجوب الغابة. فجأةً، تلاشى كلّ شيء، اختفى خلف ستار مخملي سميك مطويّ من جهاته الأربع. كانت تقبع في هذا السواد المطلق، لاهثةً ومرعوبة.

في لحظات معيّنة، كان رأسها يمتلئ ضجيجاً. يتهيّأ لها أنها ستنفجر وأن شمع دماغها سيسيل، ليّناً ودافئاً على غطاء مخدّتها الخشن المكتوب عليه «آ. ب» بأحرف كبيرة زرقاء. كان ذلك أشبه بإعصار قادم من الجانب الآخر للأرض، هبوب يحييه حفيف قصب السكر ونباح الريح العاتية. سقطت أشجار فاكهة الخبز والمانغا وجوز الهند، بعد طقطقة تُنبئ بنهاية العالم. صفقت أبواب المنازل، اقتُلعت والتوَتْ مفاصلها كقطع حديدٍ بالية. تشظّت درف الشبابيك، قسّمت السقوفُ الهواءَ بقطع توتيائها الصدئة. اختبأت الطفلة المضطربة وراحت تزقزق دون توقّف وهي

تستمع إلى هذا الصخب، إلى أن هدأ كلّ شيء ولفّها السكون من جديد، السكون الأكثر إفزاعاً من الضوضاء. راحت حينئذٍ تعبر فضاءات واسعة.

في بعض الأيام، كانت الأمور أفضل حالاً رغم كل شيء. كان يمكن لضوء النهار أن ينبلج من جديد. بإمكانها تمييز مربّعات النافذة الزرقاء والبيضاء، وبرج جرس كاتدرائية القديسَين بطرس وبولس، وساعته الدالّة على الواحدة والنصف في كل الأوقات وفي كل الفصول. كذلك تميّز الأطباء المستعجلين دائماً. وتستطيع ملاحظة ارتجاف غطاء الرأس الأبيض للراهبات، والمحاقن التي يحملنها على مستوى العيون، أو تراهنّ مهتاجات حول جهاز الإمداد بالمحاليل. كانت ترى رانليز جالسة بجانبها أو منحنية فوقها، أو تدور وتحوم في الغرفة وهي تبكي من دون كلل. ويحدث أيضاً أنها تسمع لحن صوتها المألوف. كانت رانليز تشتكي وتذكر كلّ التضحيات التي قدّمتها، والتجارب التي خاضتها في سنوات أمومتها العشر. لا! لا يمكن أن يقبل الله أن تُنتزع منها طفلتها! ما هذا الرحيل الذين يتحدّثون عنه؟ أهو رحيل المرض والموت أو اللقاء مع رينالدا؟ على كل حال، بالنسبة لها، الخياران كانا يعنيان الحزن. كان بودّ ماري نويل أن تردّ عليها، أن تهوّن عليها، وأن تؤكّد لها أنها ستبقى تحبها كما لم تحب أحداً آخر، في أي مكان ستكون فيه. لكنها لم تستطع. تتوقّف الكلمات في منتصف حلقها، تلجمها مكابح قوية. تبقى متسمّرة على سريرها دون أيّ انفعالات ظاهرة، حبيسة وحدتها، فتغرورق عيناها بالدموع. كان عذابها يتضخّم، فتحصر نفسها في إحدى الزوايا تحت الشرشف الضيّق المهترئ من ماء الكلور المستخدم في الغسيل.

حملت ماري نويل هذه الصور وهذه الأحاسيس في داخلها دوماً، ومن

دون استئذان تصعد إلى السطح وتتملّكها من جديد. يتوقّف الزمن فجأة، وكمن يغيب عن الوعي في منتصف جملة أو حركة، تتصلّب مذهولة، عيناها فارغتان.

لاحظ الناس هذه الغيابات. في البدء أخذوا يعلّقون، لكن الأمر انتهى بهم أن اعتادوا على الأمر ظانّين أنها خبلاء قليلاً، كما كانت أمها من قبلها، بكلّ تأكيد. خبلاء، بكلّ بساطة.

.3



لكن لا أحد وصف لماري نويل اليوم الذي وصلت فيه إلى باريس. ذاكرتها تكفّلت بهذه الذكرى من تلقاء نفسها.

بعد أن قبلت صفعة القدر التي لم تتمكّن من تجنّبها، سعت رانليز لتقديم أحسن ما عندها. جفّفت ماء عينيها قدر ما استطاعت، وبدأت تملأ حقيبة السفر بملابس صوفية. طلبت بعد ذلك إلى الأب سيمونان أن يرأس أربعة قداديس على نيّة ماري نويل. كما اصطحبتها للاعتراف على مدى أربعة أيام سبت متتالية. وعلى مدى أربعة أيام أحد، سارت بجنبها، ويداها مضمومتان بتقوى أسفل ذقنها، إلى طاولة المذبح المقدّس لتناول القربان الإلهي. أخيراً، في أحد المساءات بعد العمل، فتحت ألبوم الصور الذي تحتفظ فيه محشوراً في أحد دروج خزانتها، وأرتها صورة لأمها كانت قد أُخذت يوم الاحتفال، الذي اقتصر على المقرّبين فقط، بانتخاب جيراردو بوليوس عمدة لمدينة «لابوانت» للمرة الأولى. كانت رينالدا حاملاً، في شهرها التاسع تقريباً. وبطنها الكبير يدفع بشكلٍ غير لائق القماش المخطط بمربّعات، المخيط منه ثوبها عديم الهيئة. حولها، كان الجميع، رانليز وكلير ألتا وجيراردو بوليوس وأليكسي أليكسوس، المساعد الأول

الذي كان وقتذاك يرتاد منزل رانليز وسريرها، يبدون سكارى. يرفعون كؤوسهم إلى مستوى عدسة الكاميرا ويبتسمون ابتسامات عريضة. الكل يبدون سكارى، إلا هي. وجهها المثلّث الشكل ذو التقاسيم التي تشي بالضنى، ينمّ لا عن حزن أو ثورة، بل عن ضجر شديد، كما لو لم يكن هناك من فكرة تخامرها سوى الانتحار. لم تسمح ماري نويل لنفسها بالتأثّر لا بهذه الملامح، ولا بمنظر جبل اللحم هذا الذي خلفه يختبئ عن العالم الجنين الذي كانت.

فيما أطلقت رانليز العنان لسيلٍ من الكلام فحواه أن عليها أن تسامح رينالدا على هجرها لها عشر سنوات، كما سامح يسوع بطرس إنكاره له ثلاث مرات، قاطعتها ماري نويل بحزم وسألتها عمّن يكون والدها، فلا يوجد طفل على الأرض لا والد له. يجب أن يكون هنالك والد ليكون هنالك طفل. لم تكن تلك المرة الأولى التي تشعر فيها بثقل هذا السؤال الملحّ على لسانها. تبتلعه دائماً في آخر لحظة. في الحقيقة كانت تخشى الجواب الذي ستسمعه، فلون بشرتها يختلف عن الأسود المتجانس الذي يلوّن بشرة الناس من حولها، الأمر ينطبق أيضاً على شعرها الذي بلون القشّ الأصفر، وعينيها اللتين تتلوّنان بالأخضر أو الأصفر كالنمور تبعاً للإضاءة المحيطة. لا بدّ أن أباها كان فاتح البشرة. أكان خلاسيّاً؟ أكان من سانتوا؟ أكان «شابان»(*) أحمر شبيهاً بسلطعون السيريك؟ ربما كان رجلاً أبيض حتى؟ أبيض مقيماً في الجزر أو مقيماً في المتروبول، من الشرطة أو من قوات حفظ النظام؟ كيف يمكن التسامح مع أبوّة كهذه؟!

تملّك الاضطراب رانليز. ما أهمية الأمر؟ هل للوالد أهمّيةٌ تُذكر؟

(*) خلاسي ذو ملامح إفريقية، لكن ذو بشرة وشعر وعيون ألوانها فاتحة. [م].

ما من أهمية إلا لشيء واحد: البطن الذي يحمل، الحصن الذي في أحد الأيام ينفتح بابه بألم. في زمن بعيد، قال الحكماء إن الطفل يتبع رحم أمه، فإن كانت زنجية كان هو الآخر زنجي... لكن ماري نويل توقّفت عن الإنصات لهذا الإسهاب، وعاهدت نفسها أنها ستحلّ هذا اللغز يوماً ما ولو استغرقها الأمر سنوات. بسبب الصور، تكوّنت لديها القناعة بأن أمّها كانت بشعة. تبدو طويلة على الرغم من قصر طولها، ومكتنزة مع أن وزنها لا يزيد عن وزن مراهقة. تبدو في أواسط العمر كرانليز وكأمهات رفاقها في مدرسة «دوبوشاج»، مع أنها ما زالت في ريعان الشباب. كان يمكن أن تكون أختاً كبيرة أو عمّة ككلير ألتا. لم تستطع ماري نويل منع نفسها من التهامها بعينيها، ورغم حزنها على فقدان رانليز، خالجتها الرغبة في أن تحتضنها وأن تهمس لها: «أنت الجوهرة التي لم أكن أعلم أني أمتلك».

انتظرت رينالدا ابنتها في الركن المخصص لأهل المسافرين القاصرين من غير مرافقة، ساندةً ظهرها على دعامة كنبتةٍ تتكئ على عصا. لم يكن وجهها ينمّ عن أيّ شيء، كما لو أنها تغطّيه بقناع، كما لو أنها ذئب يخفي مشاعره الحقيقية. كانت ترتدي معطفاً لا يناسب مقاسها، لونه كحلي، قَصّتُه عسكرية، تصل أزراره حتى العنق، لكنها اعتمرت قلنسوة صوفية ملوّنة بالأصفر والأخضر والأحمر، زيّنت رأسها كتاجٍ يشعّ ضياء غير متوقّع. نظرت إلى ماري نويل خلسةً كما لو أنها خائفة، ابتسمت لها ابتسامة مكرهة، ثم أشاحت بنظرها عنها بسرعة دون أن تنحني وتقبّلها. بينما كانت توقّع الاستمارات، سألت المضيفة بصوت يتعارض والنبرات البطيئة والصاخبة لكلٍّ من رانليز وكلير ألتا: «أكانت سفرة جيّدة؟».

ثم حملت حقيبة ماري نويل وسبقتها نحو باب الخروج.

في الخارج، كانت السماء رمادية ثقيلة تلامس أسقف المنازل. إنها تثلج.

أكانت تثلج؟ تثلج نادراً في باريس وليس في الأول من تشرين الثاني. على كل حال، كان يهطل في ذاكرة ماري نويل ندفات كبيرة تحوم كحشرات حول لهب سراج. المباني والطرقات المرصوفة والحافلات والسيّارات المركونة كلّها مغطّاة بمسحوق أبيض. هنا وهناك، مدّت الأشجار قُرماتها المكسوّة بالأبيض هي أيضاً. ارتجفت ماري نويل دون أن تعرف السبب، ووجدت صعوبة في اللحاق بريناالدا، التي مشت بسرعة عبر تعرّجات المطار ومنعطفاته. أخيراً توقّفت هذه الأخيرة أمام سيّارة سوداء أثارت دهشة ماري نويل، ولكن ليس لأنها على وشك الصعود في سيّارة. أليست هذه الـ «د. س 19» الخاصة بجيراردو بوليوس -لم تكن جديدة ولكنها موثوقة- التي أوصلتها إلى مطار رايزيه؟ هذه بكلّ بساطة المرة الأولى التي ترى فيها امرأة خلف المقود. في لابوانت، هذا المقعد مخصّصٌ للرجال دائماً، وكان جوبي، سائق جيراردو، يتباهى باختيال وهو يستعمل عصا علبة السرعات كعصا قيادة طائرة «كارافيل». كما أنها، حسب ما سمعته من رانليز، كانت مقتنعة بأن أمها فقيرة. أكانت تخدع الناس وهي ثريّة في الواقع؟ كنا في صباح يوم عطلة، سارت السيّارة في شوارع فارغة تبعث على الحزن مقارنة بشوارع لابوانت، لا يضفي عليها بهجةً إلا اللونُ الأحمر واللون الأخضر اللذان يومضان عند تقاطعات الطرق. لم تنبس رينالدا ببنت شفة، لا لتسأل عن حالها ولا عن حال رانليز وكلير ألتا، ولا حتى لتستعلم عن التغيّرات التي حصلت في لابوانت. بدا الطريق طويلاً جدّاً، ودبَّ الخدر في ماري نويل التي تملّكها كربٌ شديد.

في تلك السنوات، كان مجمّع الأبنية «جان ميرموز» في «سافيني سور

أورج» يشبه أي مجمّع عمارات موجود في الضواحي، صحيح أن البهجة لا تغمرها إلا أنها كانت دون أيّ حوادث تذكر. من وقت إلى آخر يمكن أن يحدث خلاف بين الجيران، أن يضرب رجل زوجته، أو أن تنتهي إحدى الحفلات بعراك، فتأتي الشرطة. لا شيء خطير حقاً. يتألف المجمّع من عشر عمارات طلاها المهندس المعماري، الذي روحه كانت روح شاعر، بألوان الغيوم: الأبيض والأزرق السماوي والأزرق الغامق والرمادي الفاتح والرمادي الأكثر غمقاً. كانت مجموعات من الأطفال من ذوي البشرة السمراء يلعبون في فسحاتها البيتونية المغطّاة الآن بالثلج. يسكن في المجمّع عدد كبير من الإفريقيين، وممّن تعود أصولهم إلى جزر الكاريبي الفرنسية وجزيرة الريونيون. المتحدّرون من الكاريبي وجزيرة الريونيون متفاهمون في ما بينهم، يتحدّثون باللغة الكريولية، يستعرضون معاً في الشوارع في شهر الكرنفال، ويحتفلون بزفافاتهم وعماداتهم في قاعة الحفلات المزيّنة بلوحات جدارية رسمها شخصٌ من جزيرة المارتينيك يقول إنه فنان. كانوا متفقين على عدم مصاحبة الأفارقة. لا أحد، لا من شمال الصحراء الكبرى ولا من جنوبها. فهم أناس من عِرقٍ آخر ولا يمكن لهما أن يتعايشا في سلام.

بما أنّ المصاعد لم تكن تعمل، صعدت رينالدا وماري نويل، الواحدة تلو الأخرى، درج البناء آ (البناء ذو اللون الرمادي الشاحب). تسكن رينالدا في الطابق الثالث، في شقة تبدو فارغة مقارنة بشقة رانليز، التي تحفل بطاولة قهوة وطاولة مستديرة وبوفة(*) وخزانة ودولاب وعلّاقة ملابس وسرير بقبّة ومرآة. عدا نسخ لوحات معلّقة على الجدران، لم يكن

(*) pouf: مسند أقدام مبطّن أو مقعد منخفض من دون ظهر. [م].

في الشقة سوى بعض المفروشات غير المتجانسة موضوعة بطريقة لا تنمّ عن ذوق، على أرضية مغطّاة في بعض مواضعها بقطع من السجاد. مع ذلك، لم تكن برودة الديكور ما صدم ماري نويل. في حظيرة لعب مليئة بالألعاب، كان هنالك طفلٌ صغير قويّ البنية يبلغ من العمر نحو عام، يقف بثبات على رجليه الحافيتين، يبكي بتصنّع ولكن بشكل متواصل. في لحظات معيّنة، يخدش، برخاوة، خدّيه اللذين يلمع عليهما الدمع. توقّف عن البكاء لمّا رأى رينالدا، وأخذ يراوح فوق سجادة الحظيرة وهو يحرّك ذراعيه. التفتت ماري نويل نحو رينالدا، فأتت الأخيرة بحركة برأسها تكاد لا تُلحَظ: «هذا أخوك الصغير، غارفي!».

لطالما تمنّت ماري نويل أن يكون هناك طفلٌ آخر في المنزل، وكانت تعلم أن عليها ألّا ترجو شيئاً من رانليز التي أنجبت أطفالاً ميّتين مرّتين أو ثلاثاً، ودفنتهم في مقبرة «بريسكاي». الأمر ينسحب أيضاً على كلير ألتا التي عاشت في خوف كبير من أن تحمل من غير زواج. كانت ماري نويل تواسي نفسها بأطفال الآخرين. وكان شغفها بالأطفال معروفاً من كلّ ساكني منطقة قناة «فاتابل». أيام الأربعاء التي تكون فيها المدرسة مغلقة، لم تشعر الجارات بالإحراج في أن يعهدن إلى ماري نويل الاهتمام بأطفالهن الصغار ريثما يذهبن إلى السوق. ولم يكن من النادر أن تعود رانليز من «تريبور بابور» وترى ماري نويل تحفظ دروسها أو تكتب واجباتها وطفلٌ صغير يقبع في حضنها. أخ صغير؟ هذه الهدية كافية لمسح الحزن الذي اعتراها في اليوم الأول. انحنت وقلبها يخفق نحو غارفي الذي استلطف مداعباتها. في تلك اللحظة، ظهر رجلٌ طويل ورشيق، شعره المائل للحمرة مشعث بسبب سوء الاهتمام به. كان يمسك بصحن مليء بالثريد

وبكأس نحاسي. ابتسم لماري نويل كما لو أنه قد التقى بشخص يعرفه منذ زمن طويل، وقال بلطف: «ها أنت!».

جذبها بعد ذلك نحوه وعانقها بحرارة. كانت تلك البهجة الثانية في ذلك اليوم.

يعتري لودوفيك شيءٌ من التردّد حين يُسأل عن أصوله. هجر والده «هاييتي» واستقرّ في «سييغو دو أفيلا» في كوبا حيث يتقاضى عمّال قصب السكر أجوراً أعلى. أنجب هناك ثلاثة أطفال من امرأة منهكة هي الأخرى من العمل في حقول قصب السكر. عاش أيضاً لفترة في «سان دومينيك» حيث أنجب أطفالاً آخرين قبل أن يعود إلى هاييتي، التي كان يحنّ إلى الرائحة اللاذعة التي تنبثق من أرضها المحروقة. حين بلغ الثامنة عشرة، سار لودوفيك على خطا أبيه وبدأ بالترحال. ترك خلفه بؤس هاييتي الذي لا نهاية له، وتنقّل بين الولايات المتحدة وكندا وألمانيا وإفريقيا قبل أن يحطّ متاعه في بلجيكا، ويعبر الحدود حتى باريس. عمل حمّالاً في مرفأ نيويورك، ومعلّماً بكوليكورو في مالي، وصحفياً بمابوتو في الموزمبيق، وموسيقياً في ساحة الساعة ببروكسل. هذه الرحلات وتشعّباتها طبعت تقاسيمها الخاصة على وجهه، خطّت مخالبها عند زوايا العينين، شقّت خندقين حول فمه وتجاعيد على طول جبهته. بصيص أسىً كان يشعّ باستمرار من عمق عينيه كما لو أنه غير قادر على نسيان كلّ البؤس الذي واجهه. بعد تخرّجه في المدرسة الابتدائية، لم يتلقَّ أيّ تعليم غير ذلك الذي قدّمته له الحياة. مع ذلك، ولأنه يتكلّم خمس لغات، عمل في مركز بلدي يُعنى بصغار السن من أصحاب الجنح. منذ نعومة أظفارها وماري نويل تسمع الجارات يبكين على صدر رانليز، ويشكون لها مرارة حياتهنّ

اليومية: شتائم أزواجهن، كلّ أشكال التعامل السيّئ، والهجر أخيراً. هي أيضاً ترعرعت دون وجود والد ودون حنانه، ورأت أن ذلك كان نصيب الكلّ. لذلك، انتهى بها الأمر أن تعتقد بأن الرجال هم نوعٌ فريد مختلف وخبيث، لا يهتم سوى براحة باله.

منذ اللحظة الأولى لوصولها إلى «سافيني سور أورج» بدأ هذا الاعتقاد بالتداعي. كان لودوفيك عماد المنزل. هو من يشتري الحاجات، ويطبخ، وينظّف -بصورة أقل في الحقيقة-، ويغسل في قبو البناء، وينشر الغسيل خلف النافذة، ويصطحب غارفي إلى الحضانة بعد أن يكون قد حمّمه وألبسه، وهو من يعيده منها. الأمر كان ينسحب أيضاً على رينالدا التي يهتمّ بها اهتماماً تاماً. لم يكن يتكلّم معها إلا بالإسبانية، لغة طفولته الأولى، كما لو أنه يريد من خلالها أن يعود بالزمن إلى الفترة التي لم يكن قد جابه فيها عواصف الحياة بعد. يتحمّل تضجّرها الدائم ويؤوّل صمتها، ويحرص، دون انقياد أو خضوع، على أن يبقى مزاجها رائقاً كأخٍ كبير يستوعب كل شيء. في أحد الأيام، عند مرورها أمام باب غرفتها، رأته ماري نويل جالساً بالقرب من رينالدا النائمة، كأمٍّ ساهرة على راحة رضيعها المريض.

ممَّ كانت تشكو رينالدا؟

لم تفتأ ماري نويل تطرح هذا السؤال على نفسها دون أن تصل إلى جواب. لم تكن، كامرأة، تعير اهتماماً لما هو من نصيب المرأة من أعمال منزلية. في بعض الأيام، كانت تنشط بانفعال ولكن بشكلٍ أناني، وتقضي ساعات في غرفة ضيّقة تستخدمها مكتباً وهي تضرب على الآلة الكاتبة. في تلك الأوقات، يشرح لودوفيك بسعادة لغارفي أن أمه تعمل على أطروحتها، وأن عليه ألّا يثير أي فوضى. في أيام أُخرى، لدى عودتها من

البلدية، تغلق على نفسها باب غرفتها كما لو أنه بلاطة قبر. وحين تردّ على نداءات لودوفيك الملحّة، فذلك كي تجلس إلى طاولة العشاء دون أن تلمس أي صحن، وتحدّق صامتة، كالحردانة، بشاشة التلفاز ذات الألوان الألف، غارقة بهوس لم تخبر أحداً عنه. لم تكن تشارك في أيّ نقاش. تنصت للودوفيك دون أن تنبس ببنت شفة وهو يسأل ويجيب عن أسئلته. باختصار، يبدو أنها لم تكن تهتمّ بأي شيء على الإطلاق، لا بالثقافة ولا بالسياسة ولا بنجاحات القارة السمراء التي كان لودوفيك شغوفاً بها، ولا بإخفاقاتها. أحياناً، كان يمكن لها أن تقرأ كتاباً، وفي كلّ مرّة يبدو لماري نويل أن عيونها تتابع الكلمات المطبوعة على الورق، في حين أن ذهنها يبقى حبيس صور لم تكن قادرة على نسيانها. حتى غارفي ونزواته الصغيرة لم يكن قادراً على شدّ انتباهها. تأخذه في حضنها للحظة، ثم تضعه بسرعة على الأرض ضجرةً تعتريها اللامبالاة من جديد. فهمت ماري نويل بسرعة أن وجودها هو أكثر ما يزعجها، فكانت لا تكلّ من طرح هذا السؤال ذاته على نفسها: لماذا فطرت قلب رانليز وبعثت تطلب مجيئها من غوادلوب حيث تعيش حياة هانئة؟ من المؤكّد أن رينالدا لم تكن وحشاً مثل أولئك الذين يُقرأ عن جرائمهم المقزّزة في صفحة الحوادث. لقد كان الأمر أفظع بالنسبة لماري نويل. صحيح أنها لم تكن قاسية أو سريعة الغضب، ولا بخيلة في المصروف اليومي أو مصروف يخصّ الملابس والقرطاسية، إلا أن قلبها لا يكنّ مشاعرَ لأحد، بكلّ بساطة.

على العكس منها، كان لودوفيك يعيش الحياة بجوارحه كلّها. هو من علّم ماري نويل كيف تسبل شعرها باستخدام ظهر فرشاة شعر مبلّلة، وكيف تكوي جينزها، وكيف تنظّف وتلمّع جزمتها. كان يحفّظها دروسها

ويساعدها في تعلّم الإنكليزية، المادة الوحيدة التي تكرهها في المدرسة. بمناسبة أول عيد ميلاد أمضته في «سافيني سور أورج»، أهداها درّاجة تسمح لها بالدوران في الفسحة مثلها في ذلك مثل أطفال مجمّع الأبنية الآخرين. كان يتركها تختار الأقراص الموسيقية التي تضعها بنفسها بلطف على القارئ، فلقد كان يعرف الموسيقا وتعمّ المنزلَ الفوضى والضوضاء حين يكون هو موجوداً.

ڤالس، رومبا، أوبرا، غوسبل، موسيقا جنائزية، ريجي، كونشيرتو وسيمفونيات كلاسيكية تتتابع الواحدة تلو الأخرى. وكانت الأقراص من قياس 33 و45 موضّبة في علب بألوان مختلفة مرقّمة وموسومة بلصاقات. في لابوانت، لم تكن ماري نويل تعرف سوى ألحان «بيغوين» الراقصة التي تُعزف في أعياد الميلاد والزفافات، أو إيقاعات الاستعراضات الكرنڤالية التي تشاهدها مع كلير آلتا في حيّ «أسينيسمان». لهذا السبب، كانت تثير حنقه حين تخلط بين سارة فوغان وبيسي سميث، عرس الحلّاق وحلّاق إشبيلية. خدعتها في البداية طيبته إلى درجة أنها ظنّت أنه والدها المفقود. لكنها اقتنعت بعد ذلك بأن لا مكان لها في مثلّث الحب الذي يشكّله هو مع رينالدا وغارفي. كان يشفق عليها، هذا كل ما في الأمر. وكانت حانقة عليه بسبب ذلك. رينالدا ولودوفيك لا يخالطان أحداً ولا يخرجان في المساء. تبقى سياراتهم في الموقف يأكلها الغبار فيما يقضيان عطلتهما في سجن الأبراج هذا. لم يأتِ أيّ صديق أو زميل عمل يطرق بابهم قطّ. لا يرنّ الهاتف إلا حين يتصل أولاد عم لودوفيك من بلجيكا، ولا يوصل ساعي البريد إليهم سوى الفواتير والمنشورات الترويجية للشراء عن بعد. على الرغم من ذلك، لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن تعرف ماري نويل من ثرثرة

رفاقها في المدرسة أنهما كانا فاعلين بشكلٍ ما. لودوفيك هو المؤسس لجمعية سياسية دينية تسمى «مونتو». إن كان قادراً على اجتراح المعجزات مع الجانحين، وخصوصاً العرب والسود، فذلك مردّه الجمعية. مبادئها جعلت اللصوص يكفّون عن السرقة، وبعضهم انخرط في الأعمال الخيرية. أكثرهم جموحاً أصبح وديعاً كالحمل. لم تصدّق ماري نويل أذنيها لمّا علمت بأن رينالدا أيضاً تنتمي لهذه الجمعية. كان الناس يعزون لهذا الانخراط نجاحاتها في البلدية حيث تتكفّل، برفقة مساعدة اجتماعية أخرى، بالحالات الأكثر صعوبة. كانت مختصّة بحالات الاغتصاب، ولكنها تهتم بفعالية مهيبة بكلّ البائسات اللائي كنّ يصارعن ذنوب الحياة العشواء بحقّهن: إفريقيات من شمال الصحراء أو جنوبها، نساء من الغوادلوب والمارتينيك والريونيون ممن هجرهنّ هواة اللحم الطري، معنّفات، مكدومات، مهانات، مكسورات. لم يكن يجاريها أحد في قدرتها على حمل اللواتي لا سند لهن على الدفاع عن أنفسهن، والضعيفات على الثورة، وفي قدرتها على تحويل النساء السلبيات إلى شرسات في المطالبة بحقوقهن وحقوق أولادهن. لهذا السبب فإن الكثير من الرجال ممن أجبرتهم تحقيقاتها العائلية وشهاداتها أمام المحاكم على دفع نفقات الطعام أو أشياء أخرى من هذا النوع، أقسموا على أن يلقّنوها درساً لن تنساه بسهولة. ظنّت ماري نويل أنها وجدت من خلال هذه الاكتشافات مفتاح الألغاز التي حيّرتها. لماذا جدران الغرف كلّها مزيّنة برسومات تثير الدهشة. لماذا لا يتناولون اللحم ولا ثمار البحر. لماذا يتضرّع لودوفيك بصمت وعيناه مخفضتان قبل تناول كل وجبة طعام. لماذا لا يذهبون إلى الحلّاق، ويخفون لبدات شعورهم عن الفضوليين بمواراتها داخل

قلنسوات ثلاثية الألوان متطابقة. لماذا يختفون أيام السبت بعد الظهر. لم تستغرب أنهم أبقوها بعيدة عن «مونتو». لقد كانت تعلم بأنها ليست جزءاً من هذه العائلة. إلا أن أكثر ما شوّشها هو تخيّل رينالدا فاعلة خير وعضواً عاملاً في جمعية. لم تكن تستوعب. رينالدا تعتني بضحايا بعيدين كل البعد عنها، ولا تكترث لتلك التي أصابها الإحباط بالقرب منها. لماذا تضمد جراحاً غريبة؟

بسبب هذه الهموم، عاشت ماري نويل نهاية طفولة صامتة وكئيبة. في الصيف، تذهب إلى مخيّمات صيفية على شاطئ البحر. لم يكن لديها رفاق في المدرسة يغازلونها أو يرسلون لها رسائل غرامية. لم تكن تثير أحداً ولا حتى الرجال الكبار المتقدّمين في العمر الذين يداعبون أعضاءهم ويتردّدون بكثرة إلى بيوت أدراج الأبنية. وحدها رسائل رانليز الطويلة التي تروي فيها بالتفصيل المملّ ثرثرات أهل حيّ قناة «فاتابل» كانت قادرة على بثّ السعادة في قلبها، فضلاً عن الطرود التي ترسلها محمّلة بالفلفل الحارّ المحلّي ومربّى الليمون الهندي، والنوغا بالفستق، وحلوى جوز الهند ذات الرأس الوردي، فهي تحمل بين طيّات الورق الموضّبة فيه كل روائح بلادها المفقودة. أما رينالدا فلم تسأل قطّ عن أخبار رانليز، ولم تهتم بإرسال السلامات ضمن الرسائل التي تكتبها ماري نويل لها. ما من بطاقة بريدية بمناسبة عيد الميلاد ولا بمناسبة رأس السنة، ولا حتى بمناسبة عيد ميلادها في 24 نيسان.

كما لو أن مُحسنتها السابقة لم تكن موجودة قطّ.

.4

مع كلّ ذلك، كان لديها صديقة.

مدام إسمونداس، وسيطة روحانية. هذا ما كُتب على بطاقات عملها الموضوعة لدى الخبّاز. تسكن السيّدة إسمونداس في الطابق الأخير من البناء «آ» (لونه رمادي شاحب). وبما أن المصعد لا يعمل، فإنّ المرء يصل إلى عتبة بيتها مقطوع الأنفاس. إلا أن ذلك لم يمنع الناس من الصعود إلى هذا العلوّ، كي يُخرجوا ما يعتمل في صدورهم من خيبات أمل. رجال. نساء. شباب. مراهقون. عاطلون يبحثون عن عمل، طموحون يأملون ترقية. ذكور يبحثون عن الرجولة. زوجات وخليلات ينشدن الحب. ومرضى يرغبون بالصحة. كما كان من ضمن زبائنها شباب ممّن سيتقدّمون إلى المسابقات الإدارية، تسقيهم السيّدة إسموندا شاي أعشاب نقعت فيه صفحاتٍ كاملة من قاموس «لاروس» أو ملخّصات «دالوز». السيّدة إسموندا زنجية قصيرة، طولها لا يزيد عن طول طفلة في العاشرة من عمرها. وتُنادى بالسيّدة احتراماً فقط، فلا أحد قد رآها يوماً مع رجل. ومن المعروف أنها قد ورثت موهبتها عن أمها وجدّتها اللتين كانتا قادرتين على التواصل مع عالم الغيب ورؤية المستقبل بوضوح كضوء النهار. لكن هاتين

السيّدتين مارستا مواهبهما في ناحية «فيوزابيتان» في غوادلوب، المكان الذي رأت فيه السيّدة إسمونداس النور. ولمّا كانت تُسأل لماذا هجرت غوادلوب في أجمل سنوات مكتب تحفيز الهجرات (BUMIDOM)، فإنها تردّ قائلة مع ابتسامة خفيفة: «لم يكن دمي ليهدأ في جسدي».

في فرنسا، لم تعمل في غسل أرضيات الآخرين وكشطها. لقد ذاع صيتها فوراً بعد استقرارها في «سافيني سور أورج»، إلى درجة أنها اضطرّت إلى تحويل قسم من غرفة معيشتها المكتظّة والخانقة والمعتمة إلى ما يشبه العيادة الطبية. بما أنه ليس لها شريك حياة، الأمر الذي يمكن أن يبعث على الاعتقاد بأنها لم تكن قادرة على جلب الحب لنفسها، فليس للسيّدة إسمونداس أطفال. كانت تعيش وحيدة، وهذا هو الأسف الكبير في حياتها. لمن ستترك شقّتها المؤلّفة من ثلاث غرف؟ وقلادتها ذات الحلقات الغليظة؟ وقلادتها ذات الكرات الذهبية؟ وكلّ النقود التي وفّرتها وأودعتها في المصرف؟ كان الناس، الذين لا يوفّرون فرصة للمبالغة، يتهامسون إن لديها ملايين النقود مودعة في المصرف. تعلّقت بماري نويل التي تصادفها في درج البناء حاملة حقيبتها المدرسية الثقيلة، فهي تختلف كلياً عن باقي الأطفال، وحيدة طوال الوقت، وتلقي دائماً تحية الصباح والمساء. عند الساعة الخامسة، تدعوها، في الوقت الفاصل بين ذهاب زبون ومجيء آخر، إلى مطبخها حيث تقدّم لها فنجاناً ساخناً من الشوكولاتة بالفانيلا وبسكويتاً مقرمشاً مالحاً من نوع «لو». في المساء، حين يكون بإمكانها الانسلال من المنزل، في الوقت الذي تنشغل فيه رينالدا بأطروحتها ولودوفيك بموسيقاه، تصعد ماري نويل إلى الطابق السادس. في ذلك الوقت، تعود السيّدة إسمونداس إلى حقيقتها. ما من عمامة تعتمرها وما من أثواب فضفاضة، بل امرأة في منتصف العمر،

مصفّفةً شعرها كالملفوف، وتلبس ثياباً بألوان لم تعد دارجة. لم تكن السيّدة إسموندداس تطرح عليها أي سؤال كما لو أن ما يحدث في الطابق الثالث لا يهمّها إطلاقاً. لم تطلب إليها قطّ أن تغسل الصحون أو أن تكنس أو أن ترمي القمامة، كانت تُجلسها كالأميرة في كرسي، وتحكي لها دون تبجّح الحالات الخارجة عن المألوف التي أثبتت فيها مواهبها. كالحالة التي أعادت فيها الذكورة لرجل لعنته شريكته ثلاث مرات، سبع مرات كان قضيبه المترهّل ينتصب بين فخذيه كعنق الديك الرومي. شفت تقرّحاً، سبّبته تعويذة رمتها غريمة، كان يأكل ثديي إحدى النساء ويصعد بعناد نحو العنق. أنقذت طفلاً من الموت كانت علامة أبو ملعقة الأزرق قد ظهرت في منتصف جبهته. نعم، على المرء أن يواجه الحقيقة. الأرواح تهاجر هي أيضاً، تتبع خطا الغوادلوبيّ وتنقضّ عليه مهما يكن المكان الموجود فيه. تستمع ماري نويل لهذه القصص دون أن تستمتع بها. تفضّل المرات التي تتكلّم فيها السيّدة إسموندداس عن حياتها، عن والدتها، وعن الزمن الذي كانت فيه صغيرة. تطلّ ناحية «فيوزابيتان» على البحر. لا قصب سكر ولا معامل في تلك المنطقة. الكنيسة، المدرسة ذات الصف الوحيد، المنازل التي تصطفّ أمام شاطئ البحر. وأيضاً، حين تكون السماء صافية ومزاج البحر رائقاً، يمكن رؤية جزيرة غامضة، تتمازج زرقة السماء مع جبالها البعيدة. «تانيتا»، أم السيّدة إسموندداس كانت «حالمة». واحدة من هؤلاء الأشخاص الذين لا يحتاجون سوى إلى غلق عيونهم حتى تبدأ حياة الآخرين بالترائي أمام أعينهم. الأمر الذي يعني أنها لم تكن تنام كما يفعل باقي البشر، بل تمضي الساعات وهي تتنهّد وتشتكي أمام كل التراجيديات التي على وشك الحدوث. حتى بلوغها السابعة عشرة، لم تنل السيّدة إسموندداس، التي تتشارك السرير مع والدتها، من النوم قسطاً كافياً. تخلد

للنوم محاطة بالدموع والنحيب، وتنهض محاطة بالدموع والنحيب. لهذا السبب -الحاجة إلى النوم- قرّرت أن تذهب للعيش مع غيرتوليان غيرتول، الذي يعمل في الزراعة، وهو بارعٌ في رقص «ليوز». للأسف، حتى مع غيرتوليان غيرتول لم تجد للنوم سبيلاً، فلقد كان يضاجعها كالثور، خمس مرّات أو ستّاً في الليلة. الأمر الذي سبّب لها آلاماً شديدة في البطن، وثلاثة إجهاضات، وأرغمها على العودة في أحد الأيام لعند والدتها. أرق على أرق! الفضل يعود إلى تيريزا، إحدى رفيقات المدرسة القديمات، في اقتراح فكرة السفر إلى المتروبول. هي أيضاً ذهبت إلى هناك مع صديقها النجّار، الذي سرعان ما تركها من أجل فاجرة بيضاء. على الرغم من ذلك كتبت الرسالة تلو الأخرى لتتباهى بسعادتها وتصف مسكنها الذي تصله المياه الجارية. ما كانت تغفل عن ذكره، هو أن كل هذه العجائب موجودة في بسطة الدرج، وأن غرفة الخادمة خاصتها غير مدفّأة. لم تندم السيّدة إسمونداس على إنصاتها لنصائح تيريزا، فلولاها لكانت الآن في غوادلوب تحمل الأطفال المولودين ميّتين لأحد الرجال، في حين أنها، في المكان الموجودة فيه الآن، تتمتّع بالأملاك والاحترام. هنالك الشعور بالوحدة، بالطبع، الذي تزداد شدّته خلال فصل الشتاء. على أي حال، يمكن ملء هذا الفراغ بتعبُّد الله. فالسيّدة إسمونداس مؤمنة حقيقية ولا تفوّت قدّاساً. كل مساء، قبل أن تدعها تنزل الدرج غير المضاء إلى شقتها، تشرح السيّدة إسمونداس لها كيف بإمكانها أن تحمي نفسها من الرجال. اندهشت ماري نويل لمّا علمت بأن الرجال أنفسهم الذين لا يرمقونها ولا بنظرة، مهووسون في الواقع بفكرة واحدة: أن يكسروا قفل جسدها. لذلك السبب، شكّكت في مصداقية السيّدة إسمونداس، وأشفقت في قرارة نفسها على هؤلاء الناس الذين يقفون في الدور أمام باب بيتها. رغم ذلك

كلّه، فإن الأوقات التي تقضيها بصحبة السيّدة إسموندداس مباركة وتبثّ في نفسها نوعاً من السعادة.

كانت المعسكرات الصيفية بالنسبة لها أسابيع من العذاب، فهي تكره التمارين الجسدية والمشي والتسلّق والسباحة والتجاهل الذي يلحقها من قبل المشرفين الذين يفضّلون الرياضيين. هذا الصيف، أرسلت البلدية أطفالها إلى قرية في مقاطعة «دوردونيو»، حيث يمضون أوقاتهم في السباحة في مياه الأنهار الباردة، والنزهات الطويلة في الأحراج، والنزول إلى عمق المغاور حيث لا يوجد شيء يستحق المشاهدة. ما إن عادت إلى «سافيني سور أورج» حتى هرعت ماري نويل إلى بيت السيّدة إسموندداس التي لم تنسَ أن ترسل لها بطاقة بريدية من مكان العطلة. لكنها اصطدمت ببابها المغلق. صعدت الدرج مرّاتٍ عدّة ولكن من دون فائدة. السيّدة إسموندداس غائبة وعليها أن تذعن للواقع. ما إن عادت إلى الشقّة مكفهرّة ومكتئبة حتى وضع لودوفيك سلة الغسيل بين يديها. لم تتوقّف عن التساؤل وهي تطوي أكياس المخدّات والمناشف والجوارب: أين ذهبت السيّدة إسموندداس؟ كان جدول مهامها اليومي دقيقاً جداً. لا تخرج من منزلها إلا يوم الأحد صباحاً للذهاب إلى الكنيسة، والأربعاء بعد الظهر للذهاب إلى السوق. لم تجرؤ على الإفصاح عما يعتمل في داخلها إلى لودوفيك الذي كانت واثقة بأنه يجهل حتى اسم السيّدة إسموندداس. لودوفيك الهمجي هذا الذي يعيش دون أن يكترث لأحد من جيرانه في الحيّ. أوقات البهجة الضئيلة الماضية راحت تدور في رأسها. السيّدة إسموندداس التي كانت كالأم بالنسبة لها لم تعد هنا. عادت رائحة الشوكولا الساخنة تداعب منخريها، ومذاق البسكويت الطازج الذي أُخرج للتوّ من علبته المعدنية

إلى فمها. إن اختفت صديقتها فلن يبقى منها شيء يذكّرها بها، لا شيء ولا صورة، لا شيء سوى الصور التي تتلاشى مع الوقت من ذهنها.

بعد عدة أيام، دفعت جارة تعبة من حركة ماري نويل المستمرة بابها وأخبرتها بأن السيّدة إسموندّاس قد تعرّضت لنوبة. نوبة؟ نوبة ماذا؟ أين هي الآن؟ لم تكن الجارة تعرف أكثر. تناولت ماري نويل القاموس. نوبة: 5- ثورة مفاجئة وعنيفة لبعض الأمراض. مستحيل! لقد كانت السيّدة إسموندّاس تتبجّح بأنها ما عانت قطّ حتى من أكثر آلام الرأس شيوعاً.

بقي باب الشقة في الطابق السادس مغلقاً لشهور. في بداية الربيع، فُتح الباب. انتقل إلى الشقة سكّانٌ جدد. عائلة مؤلّفة من أبٍ وأمّ وحشد من الأطفال جميعهم ذكور. وبما أنهم لا يلقون التحية على أحد، فليس بالإمكان سؤالهم عن أي شيء. اكتفى الناس بالتخمينات. لا بدّ أنهم من أقارب السيّدة إسموندّاس، شيء ما في هذه العائلة يبعث على هذا الاعتقاد.

لم تفقد ماري نويل الأمل. لقد كانت على يقين بأن السيّدة إسموندّاس لن تهجرها بعد كل تلك الصداقة التي نمت بينهما، بأنها ستودّعها بشكل سرّي لا يفهمه أحد سواها. انتظرت حضورها في أحلامها ليلاً. لكن الشهور مرّت ولم تعد قطّ.

.5

في هذا الضباب الذي يلفّها، أتتها ذكرى تحمل وعداً بالضياء كانبلاج الفجر.

ما من معسكرٍ صيفيّ هذه السنة. في شهر تموز، حضر إلى «سافيني سور أورج» رودريغ وناتاشا وابنتهم آوا ذات الاثني عشر ربيعاً. رودريغ أسود اللون، ملتحٍ، ضخم الجثة، يشبه «ميلشيور»، الملك المجوسي. ناتاشا شقراء ذابلة، في نهاية الثلاثينيات، تحيط بعينيها التجاعيد. رودريغ ولودوفيك يدّعيان بأنهما أولاد عمّ لكونهما أبناء لمهاجرين من هاييتي في كوبا، ولأنهما عملا في صغرهما في الحقول نفسها لقصب السكر الذي خرّش أجسادهما. افترقت مصائرهما حين آثر رودريغ البقاء في كوبا بالقرب من عائلته، الأمر الذي أتاح له في ما بعد دراسة الطب في جامعة موسكو، وأن يصبح شخصاً ذا شأن. التقى بناتاشا في موسكو، وهو الآن يدير مركز رعاية الأمومة والطفولة في غينيا العليا، في قرية تقع وسط غابة استوائية.

لعدم وجود متسع كافٍ، تشاركت ماري نويل وآوا السرير نفسه. منذ الليلة الأولى، نضحت ماري نويل، التي كانت لا تتكلّم مطلقاً لأن لا أحد

ينصت لها، بسبحة من الكلمات لم تنتهِ إلا مع حلول الصباح، وصفت فيها لآوا نوعية الحياة التي تعيشها. تلك كانت المحادثة الأولى من سلسلة محادثات استمرت لسنوات، لم تفلح في إطفائها أيٌّ من خيبات الأمل. نشأت في الحال صداقة بين الفتاتين اللتين توهّجتا بسببها توهّج الفولاذ في اللهب الأزرق.

آوا وماري نويل متشابهتان، لهما الطول نفسه والوزن ذاته، لون البشرة الفاتح نفسه، العيون متغيّرة اللون نفسها، الشعر الكثيف نفسه -شعر مجعّد أكثر مما هو كثّ- المائل للحمرة والمصفّف كيفما اتفق. أقسمتا أن تكونا كالأختين وحافظتا على قسمهما لمدة طويلة.

في المساء التالي، جاء دور آوا لتصرّح عما يعتمل في داخلها. هي الأخرى لم تكن سعيدة، فلم يعد والداها يحبّان كلٌّ منهما الآخر. كان جلّ اهتمام أبيها منصباً على مركز الرعاية ومرضاه، بزحارهم وجروحهم الملتهبة وملارياهم ودود غينيا الذي يصيبهم، إضافةً إلى بكتيريا «كوش». أما نتاشا، أمها، فتعيش في عزلة كبيرة. هجرت بلدها وأهلها الذين يتحدّثون لغتها، ودفنت شبابها في هذه الأرض البائسة لتكون مع رودريغ. لذلك لم تكن تتوقّف عن ملامته واتهامه وتجريمه. لقد علمت بأنه على علاقة مع امرأة إفريقية، لديه منها أطفال سود كالشياطين، يقيمون في إحدى دور القرية. حاولت جاهدة أن تملأ حياتها بشيء مفيد. إعطاء دروس في الروسية على سبيل المثال؟ لمن؟ لا أحد يجيد القراءة. أن تبدأ دراسة اختصاص ما بالمراسلة مع جامعة داكار في السنغال؟ البريد كان بطيئاً للغاية. أن تنجب طفلاً آخر؟ مضت في تطبيق مشروعها وأنجبت ولداً، لكن، للأسف، لم يناسبه الطقس وتوفي بعد ولادته ببضعة أسابيع.

في الوقت الحالي، لا تغادر «K» حتى لا تبتعد عن القبر المحفور في الدبال تحت أشجار الغابة. كل شيء كان يثير ذعرها، الإفريقيون بأُزُرهم المتسخة اتساخ أجسادهم، البيض النادرون -تجّاراً أو مدرّسين- العجفاء والمهزولون مثل أشباح حيواناتهم القديمة، السماء الملبّدة والمنخفضة دوماً فوق رأسها، والغابة، تلك الغابة التي تفتح فمها كحيوان مفترس أنّى التفت المرء. تقضي نتاشا أياماً بكاملها مستلقية على سريرها، تبكي وتنادي أمها التي توفّيت في العام الماضي، مستعيدةً ذكريات «نيجوفور» البهيّة، ضاحية موسكو التي ترعرعت وعاشت بدايات حبها مع رودريغ فيها. في عمر الثانية عشرة أظهرت آوا اهتماماً بالصبيان تطوّر مع مرور السنوات. يقال إنّ بعض الخلاسيين الأكثر ضخامة وشبقاً من الآخرين كانوا على علمٍ بهذه الانجذابات الجنسية. ماري نويل، أيضاً، لم تكن بريئة تماماً. في لابوانت، حين كانت تستيقظ في الليل فجأة، تستمع إلى شهقات الثنائي رانليز وجيراردو بوليوس، وفهمت أن ما يحدث في الليل بين رجل وامرأة لا يحبّذ ضوء النهار. فضولها الآن منصبٌّ على العلاقة الجسدية بين رينالدا ولودوفيك. رينالدا تتصرّف بطريقة جدّ غريبة مع لودوفيك، فلا تبادره بأيّ حركة إيحائية أو ابتسامة خفيّة أو غمزة تدلّ على الرغبة بالحميمية. حين يطلق العنان لنفسه في تقبيلها، تبدو متعذّبة ومنكمشة على نفسها كالآنسة ماري(*) في حقلها. لكنّها لم تحبل بغارفي من الروح القدس! فلماذا كلّ هذا التعفّف؟

سحبت آوا ماري نويل بعيداً عن هذه الذكريات التي لا فائدة ترجى منها. طوال الصيف، كانت الفسحة المركزية في مجمّع أبنية «جان ميرموز»

(*) نبتة ميموزا بوديكا. [م].

تمتلئ بصِبيةٍ سُمر بدرجات مختلفة، ضجرين، أو يتعاركون في ما بينهم، أو يركلون الكرات. لقد شكّلت هذه الفسحة أرضاً خصبة لكلّ أنواع التجارب. رأت ماري نويل مذهولة من شدة الرغبة آوا وهي تغري هؤلاء الشباب عديمي الجدوى، وكيف تفتح الأحاديث معهم، وتقيّم ما يلبسون على مستوى العضو الذكري بين الجينز الأزرق ولحمهم. تدفعهم لتقبيلها ولمداعبة جسدها في بيت درج البناء، أو في موقف السيارات، أو أمام الغسّالات في الأقبية. ثم، تقفل عائدة إلى منزلها، لتتناول العشاء، بوجهها الملائكي، مع عائلتها. هناك، لا يحظى الأطفال بقسطٍ كبير من الاهتمام، فالجوّ كان حاداً كشفرة حلاقة. رودريغ ولودوفيك اللذان لم يريا أحدهما الآخر منذ فترة التقيا لقاء الإخوة، وشرعا يحلمان بأن يعيشا متجاورين. كانا يتبادلان طرح أسئلة من قبيل: هل ثمة مرتكبو جنح في غينيا العليا؟ هل يوظّفون أطباء تخرّجوا في الدول الشرقية في «سافيني سور أورج»؟ على المقلب الآخر، أبدت السيّدتان حذراً متبادلاً منذ أن التقتا في مطار «أورلي» وأُجبرتا، من قبل زوجيهما، على أن يتعانقا ذلك العناق الحار. مذّاك والخلاف بينهما مستعر. ففي حين كانت رينالدا تتجنّب الاحتكاك بأن تغلق الباب على نفسها في مكتبها بحجّة العمل على الأطروحة، لم تجد نتاشا حرجاً في إطلاق التعليقات الأكثر ازدراء إزاء طريقة رينالدا في اللباس، أو أسلوبها في ترتيب منزلها وعدم استقبال الضيوف ومعاملتها لعائلتها، فضلاً عن الطريقة التي تتعامل بها مع لودوفيك. مذكور في العهد القديم إنه لا يحظى باللؤلؤ إلا الخنزيرة، وهي حظيت بغارفي الذي لا تمنحه كفايته من الأمومة. في نهاية الأمر هو رجل صغير، وهؤلاء الصغار ينالون منذ المهد القوة والشجاعة التي يحتاجون، لكن لا شيء بإمكانه أن يبرّر أسلوبها في التعامل مع ماري نويل، الجميلة جدّاً، والرقيقة جدّاً،

والذكية جدّاً! لو كانت ابنتها، لاعتنت بها كبؤبؤ عينها وكسلسلة ذهب في معصمها. أعمال الله تفتقر أحياناً للحكمة، إذ تخصّ بالهبات الناسَ الذين لا يستحقّونها. في الحقيقة، هو فخّ ينصبه لهم، فلن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم يوم يمثلون أمام محكمته الإلهية.

شرعت نتاشا إذاً بتصحيح ما يمكن تصحيحه. وفيما كان رودريغ ولودوفيك يحيون ذكريات طفولتهم الكوبية بشرب زجاجات البيرة الواحدة تلو الأخرى، أو بالتعرّق بغزارة وهما يركلان الكرة كالأطفال، كانت هي ترتدي فساتينها ذات التطريز الإفريقي، وتجدل شعرها الأشقر وتصطحب الفتيات إلى شتى الأماكن، من منتزهات، ومعارض كتب، وعروض خاصة بصغار الأعمار، والرسوم المتحرّكة، والعروض المسرحية الموسيقية، وحفلات الروك، أي شيء. هكذا، تنهّدتا وهما تستمعان إلى جون بايز في ساحة «نوتر دام»، واهتاجتا بجنون في «بارك دي برينس» وهما تستمعان إلى موسيقا «أيك» و«تينا تورنر» بعد عودتها من غانا.

ذلك الصيف، أعادت ماري نويل اكتشاف رقّة المداعبات، والتأنيب والعقاب أيضاً، فنتاشا لم تكن بخيلة في شيء. لذلك لم يكن من الحكمة الاقتراب منها كثيراً، فمن غير الممكن التنبؤ بما سيتلقى المرء منها، قبلة أم صفعة. تمتّعت ماري نويل بتذوّق الإكلير بالشوكولا وفطيرة الليمون في صالونات الشاي في شارع «ريفولي»، والإسكيمو أثناء الفواصل في السينما. كانت أسماء الدلع تُدخل السرور إلى نفسها. وخفق قلبها الصقع مجدداً لدى سماعها نتاشا تناديها: «يا قملتي»، «يا أرنبتي»، «يا بطّتي». تستيقظ ليلاً والقلق يعتريها من أن الربّ، الذي لطالما عاملها بقسوة، يستهزئ بها.

ثمة كثيرٌ من الحنان، فجأة.

قبل موعد عودتهم إلى K بوقت قصير، صارت آوا دائمة الشكوى من اقتراب موعد الرحيل، وتقدّم كل من رودريغ ونتاشا برجاء خاص إلى رينالدا. حضّرت نتاشا خطاباً قصيراً امتنعت فيه، نزولاً عند رغبة لودوفيك ورودريغ، عن استخدام أيّ كلام فيه حدّة وازدراء. كان من الواضح أن كلّاً من ماري نويل وآوا متعلّقة برفيقتها بشدّة، كما لو أنهما توءمين خرجتا من البطن نفسه. ماري نويل على وفاق مع نتاشا كما لو أنها أمها، ومع رودريغ كما لو أنه أباها، لقد كان الاثنان يرعيانها بحنان. المدرسة ليست سيّئة إلى حدٍّ كبير في K، وقادرة على إيجاد ما تشغل به وقت الأطفال، أما الأمراض فرودريغ يتكفّل بها. فلِمَ لا تعهد لهم بتربية ماري نويل؟

استمعت رينالدا للاقتراح. لقد كانت على غير اعتياد في مزاج جيّد هذا المساء، فمنذ بدايته توقّفت عن النقر على آلتها الكاتبة، وانضمّت إلى الآخرين في غرفة المعيشة. وقد اعتادت على المحادثة التي لم تكن مواضيعها تتغيّر إلا طفيفاً من يوم إلى آخر: تذكُّر الحماقات التي طبعت طفولة رودريغ ولودوفيك، حكايات طريفة تعود للوقت الذي كان فيه رودريغ متدرّباً في مستشفى موسكو، قصص توضح المحن التي يعيشها الأفارقة، خطب تقريعية مطوّلة ضد الكولونيالية الجديدة التي حلّت محلّ الكولونيالية التقليدية، وأخيراً نقاشات شغوفة حول الثورة الكوبية، هل كان فيديل كاسترو القائد الأكبر الذي لم يكن يحبه أحد؟ وحول الماركسية التي يرى لودوفيك حدودها، وحول «مونتو» التي تثير مبادئها سخرية رودريغ. لقد كانت تلك فكرة مستوحاة من الأميركيين، أليس كذلك؟

أنصتت رينالدا مستندة، في حالة نادرة من الاسترخاء، على كتف

لودوفيك، وهي تنظر مباشرة إلى محدّثيها، لكن دون أن ينمّ وجهها عن أيّ تعابير قابلة للتفسير. لمّا فرغت نتاشا من الكلام، ودون أن تنبس بكلمة، التفتت رينالدا نحو ماري نويل التي ترتجف من الأمل، ونظرت إليها. ربما تلك هي المرة الأولى التي تنظر إليها بهذا الشكل، مباشرة، وجهاً لوجه، محدّقةً في بياض عينيها. أدركت ماري نويل معنى هذه النظرة. إنها تدلّ على الامتلاك. فهمت أن رينالدا التي طردتها، هجرتها لعشر سنوات لأسباب مبهمة تعرفها هي وحدها، وليس لها من القواسم المشتركة مع الحب سوى الشيء الضئيل، لا تنوي أن تتركها في حال سبيلها. مهما حاولت هي نفسها أو حاول الآخرون، لن تتحرّر منها أبداً. ستقضي حياتها في تخيّل رقّة الزمن الماضي الكبيرة عندما كانتا متّحدتَين كجسد واحد، في التحسّر عليها، في محاولة استعادتها. ذلك عناء ما منه جدوى. لن تصل إلى مبتغاها وستستمر وحيدة في صحرائها. أخذت تبكي من شدة خيبة أملها. أما رينالدا، فدون أن تقول شيئاً أو أن تبادرها بحركةٍ ما، ودون حتى أن تتمنّى ليلة سعيدة لأحد، نهضت وقفلت عائدة إلى غرفتها.

أمضت الفتاتان الليالي الأخيرة متعانقتين تتنهّدان، في الوقت الذي أخذ لودوفيك ورودريغ ونتاشا يتبادلون فيه اللوم. لقد كانت نتاشا عاتبة عليه لقلّة شجاعته.

بعد ذلك، لم يعد أحد يذكر الذهاب إلى K.

في العام التالي، انضمّت ماري نويل، التي لطالما كانت من الأوائل في مدرستها، إلى الطلاب الذين يتراجع مستواهم صفّاً بعد صف، والذين لا يتوقّع لهم الأساتذة مستقبلاً مشرقاً. لم يعد من شيء يحوز اهتمامها. بات

الوجود بالنسبة لها تتابع حركات لا قافية لها ولا معنى. تستيقظ صباحاً، تغسل أسنانها بمعجون أسنان بطعم النعناع، ترتطم بجدران حجرة الدوش، تأكل فطورها من الحبوب، تملأ حقيبتها المدرسية بكتب ثقيلة، تدرس مسرحيات راسين التراجيدية، تترجم شعر وودسوورث، تشرّح الأعضاء التناسلية لفأر أو جرذ. لماذا ليس بإمكانها الإبحار توّاً نحو ذلك الشاطئ المزروع باللوتس وعنب الأحراج والبردي العملاق الذي وصفه المصريون القدماء؟ أن تستقبل روحيها الاثنتين والسيستروم(*) يعزف في انتظار لحظة الانبعاث على أمل أن تكون حياتها، هذه المرة، أقل عذاباً؟

لكن، في عالم التلاميذ الكسالى الذي بدأت التعرّف عليه، العالم الخالي من الانشغال بالنجاح، وبالتالي المتحرّر من ذهنية المنافسة، أعادت ماري نويل اكتشاف الصداقة، هذه الزهرة قاهرة العزلة. في باحة المدرسة، لم يكن أحدٌ يودّ الاقتراب من هذه الفتاة الصغيرة السوداء كالفحم، ذات الشعر المجدول كالكعكة، سيئة الملبس. لا الأفارقة القادمون من شمال الصحراء أو من جنوبها، ولا القادمون من جزر الأنتيل الذين يشكّلون الغالبية العظمى في المدرسة الإعدادية. كما هي حالة آوا، تعود أصول ساران إلى «غينيا» (ليس من K بل من العاصمة) التي أغرقت أفواج مهاجريها طرقات العالم. والدها، مانديكومان، من كبار كوادر النظام، ويمتلك سيارتي مرسيدس بنز. هي كبرت يحرس بابها رجل من إثنية الموسي، خلف سور من زهور الجهنمية، إلى أن غيّر النظام حاشيته. لمّا دقّت ساعة الهروب عبر طرقات منطقة المانكيه الصخرية، اختار مانديكومان زوجته الثالثة لترافقه في منفاه، تلك التي تتقن القراءة

(*) السيستروم (السِخِم): آلة موسيقية عند المصريين القدماء. [م].

والكتابة وتجيد قليلاً التحدّث بالفرنسية، وترك خلفه والدة ساران. بين ليلة وضحاها، انقلبت حياة الفتاة الصغيرة. في الشقة الخالية من التدفئة، كان الأطفال الذين يتغذّون على السردين بالزيت والرز المسلوق، ينامون وهم يلبسون معاطفهم كي يشعروا بالدفء. تصل ساران إلى المدرسة متأخرة دوماً، إما بسبب أخيها الصغير المحتاج إلى قماط، أو الملابس التي بحاجة إلى غسيل وكيّ، أو لأنها كانت مشغولة تشتري بالدين وجبة الغداء من سردين ورز من عند العربي. تتسرّب المياه إلى داخل حذائها، وأصابعها قد تفسّخت بفعل قضمات الصقيع. مع ذلك، أكّدت لها ماري نويل أن بؤسها لا يعادل البؤس الذي تعيش هي فيه، فزوجة أبيها، أميناتا، شخص ينضح حياة، شخص يضحك حتى في الضرّاء، شخص لا يخذله الكلام في وصف حفلات حدائق الرئاسة المزهرة، وعباءات النساء ومجوهراتهن، ورائحة الخرفان الاثنَي عشر الموضوعة على أسياخ الشوي، وأصوات منشدي الجوقة الوطنية الحادة وهم يتغنّون بعظمة الثورة. لم تكن ساران تصدّق أيّ كلمة، ولكي تثبت العكس، رفعت قميصها لتكشف عن الكدمات في جسدها.

على العكس من آوا، لا تهتمّ ساران بالصبيان؛ لا تفكّر إلا بأمها التي عادت إلى أهلها، والتي ترسل لها الرسالة تلو الأخرى، وليس لديها منها أي خبر. ولكن كان من اللازم الحصول على القرطاسية، والتعرّف على طعم بطاطا الشيبس والمارس والسمارتيز أثناء الفرصة. لذلك، تقبل مضاجعة ضخام البنية في الإعدادية، الراسبون ممن هم في السابعة عشرة من عمرهم على الأقل. تتمّ اللقاءات في قاعة مخصصة للفيزياء والكيمياء مهجورة. كانت ماري نويل مكلّفة بمراقبة الباحة وحركة البوّاب. لكنها

تفضّل أن تلصق نفسها بزجاج النافذة، فما كان يحصل في داخل الصف يرعبها ويثير الاضطراب في نفسها ويسرّع دورتها الدموية. كما على زمن آوا، تتمنّى أن تكون مكان صديقتها، مسلّمة نفسها، مباعدة بين رجليها، وكلية القوة مع ذلك، مثل إلهة توزّع المتعة على طابور من المتوسّلين. لم يكن أحد يشتهيها. كان صبيان المدرسة أو مجمّع الأبنية يمرّون جنبها ولا ينظرون إليها حتى. شوّشتها ساران يوماً حين أسرّت إليها أنها لا تشعر بلذّة بل تدّعيها. أصبحت تلك فكرة ثابتة بالنسبة لماري نويل. هل تمثّل رينالدا أيضاً؟ يمكن لهذا أن يفسّر تصرّفاتها مع لودوفيك. أرتها ساران أيضاً الواقيات التي تُلبسها بحرفية عالية لشركائها في الجنس. رينالدا ولودوفيك لم يعودا ينجبان، أيستعملانها؟

أخذت ماري نويل تبدي بعد ذلك وعياً متزايداً بجسد لودوفيك حين يتمشّى في المنزل، برائحته، بلونه، بالسلاح الملاصق لفخذه في وضعية الراحة. أخذت أيضاً تُظهر وعياً بجسد والدتها غير مكتمل النمو، اليانع على الرغم من كل الولادات. رجلان على الأقل مارسا الجنس معها. كيف فعلا ذلك؟ أحملها الأول كعاهرة؟ اغتصبها؟ يمكن لذلك أن يفسّر رغبتها بالانتحار. كانت ماري نويل تستيقظ ليلاً لتترصّد، لكن لا يصلها سوى صوت غارفي القادم من السرير فوق سريرها. من شدة ما قلّبت هذه الأفكار الفاسدة في رأسها، نحلت وأمست فساتينها فضفاضة عليها. في الخريف، دهمها الحيض للمرة الأولى.

في شباط تقريباً، أخبرتها ساران عن خطتها. سوف تضع يدها على الحلي التي تخفيها أميناتا تحت مرتبتها ولا يعلم بها أحد حتى زوجها: أطواق تغطّي كامل الصدر، وقلادات تزن وزن البرتقالة، ودبابيس زينة على شكل أزهار أو حيوانات، أساور للمعصم، وخلاخيل للكاحل،

كلها إما من البلاتين أو الذهب أو الفضة المصوغة على يد أشهر صاغة غينيا، أو مرصّعة بالأحجار الكريمة المستخرجة من مناجم زائير أو جنوب إفريقيا. كان ذلك، إضافةً إلى الذكريات، كل ما بقي لها من زمن ولّى. تغلق أحياناً على نفسها وتتزيّن بحليّها وهي تبكي بحرقة. تنوي ساران بيع كلّ شيء إلى مخفي سرقات، ثمة كثير منهم في «سافيني سور أورج»، وشراء بطاقتي طائرة إلى الولايات المتحدة الأميركية. ستهربان بهذه الطريقة إلى الولايات المتحدة وستحضر أمها كي تكون إلى جانبها. أكانت ماري نويل ترغب ربما هي أيضاً في إحضار رانليز وكلير ألتا؟

كانت ماري نويل لتفعل أيّ شيء لترحل، بعيداً، بعيداً جداً عن «سافيني سور أورج» التي لم تكن متعلّقة فيها سوى بغارفي الذي تحبه بقوة. لقد أكمل مؤخراً عامه الثالث، وكان يبدو مدركاً لحزنها، إذ يغدق عليها بكلّ أنواع التدليع. لن تتحسّر على فقدان لودوفيك، لا، ليس هو بكلّ تأكيد! لقد أيقنت مع نضوجها أن لطافته تخفي شعوراً بالشفقة، ومن هذا الذي يرغب في الإيحاء بالشفقة؟ مع ذلك لم تقتنع بخطة ساران. لقد بدت لها طفولية وغير قابلة للتحقيق، مجنونة باختصار. كي لا تحرج مشاعرها، لم تُبدِ سوى اعتراض وحيد، لماذا الذهاب إلى الولايات المتحدة؟ لماذا لا تعود إلى غينيا بكلّ بساطة. كانت ساران قد فكّرت في هذا الأمر ملياً، ولديها حججها: «ستقتلنا الشرطة هناك كالكلاب؛ أميركا هي بلد الحرية».

اتفقتا أخيراً على الرحيل بداية شهر تموز بعد انتهاء العام الدراسي. ادّعت ساران أنها تعرف مُخفي سرقات، حركي(*) من تلمسان، اسمه

(*) الاسم الذي أُطلق على الجزائريين الذين قاتلوا في الجانب الفرنسي أثناء الثورة الجزائرية (1954-1962). [م].

طاهر. كما ادّعت أنها على اتصال مع مكتب سفر. لكن في اليوم الذي من المقرر فيه أن تضع يدها على المجوهرات، لم تجدها في المكان المعتاد، لا بدّ أن أميناتا قد غيّرت مخبأها. ماري نويل متيقّنة أنه في الواقع ليس لدى ساران النية بتاتاً في الرحيل. لم يكن كلامها إلا أحلاماً، أحلاماً فقط، أضغاث أحلام.

.6

كم من أيام لتتشكّل الأسابيع؟ وكم من أشهر لتتشكّل السنوات؟ كم من السنوات مرّت؟

لم تعد ذاكرة ماري نويل تعدّ السنوات. لم تعد تحتفظ إلا بذكرى هذه المحادثة مع رينالدا، الوحيدة التي جمعتهما خلال مدّة عيشهما المشترك. كانت ماري نويل في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمرها، مهدّدة بالطرد من المدرسة. كانت ساران قد طُردت قبلها. حدث ذلك في الربيع أو الصيف، فقد كانت النوافذ مفتوحة على مصراعيها، وزعيق الأطفال يتعالى إلى مسمعيهما قادماً من الباحة. ملابس رينالدا تكشف عن أكتافها الفاتحة اللون مقارنةً بوجهها، كما تكشف عن أعلى ثدييها -باللون نفسه- المتباعدين والهابطين قليلاً. خصلات شعرها المصبوغة بالأحمر في بعض مواضعها تشير إلى كل الاتجاهات كما لو أنها خصلات شعر غورغونة(*)، لكن من دون أن يضفي عليها ذلك أيّ مظهر مرعب. تنظر إلى وجه ماري نويل نظرة تتجاوزها لتستقرّ كعادتها في مكان مبهم خلفها إلى اليمين أو

(*) الغورغونة في الأساطير الإغريقية هي إحدى الأخوات الثلاث المُرعبات: سيثنو وأيرلن وميدوسا، شعورهنّ من الأفاعي ونظراتهنّ تمسخُ الرائي حجراً. [م].

اليسار، أو إلى الأعلى قليلاً، على نسخة غريبة للوحة علّقها لودوفيك على الجدار. تتكلّم كما لو أن ما تقوله لا يخصّ ماري نويل فعلياً، بل عبارة عن استطرادات شخصية.

- العمل هو ما أوصلني إلى ما أنا عليه الآن. لديّ مكتب في الطابق الأول من مبنى البلدية مع سكرتيرة تنفّذ ما أطلب منها. إنه العمل وليس شيئاً آخر. اليوم، لم أعد تحت إمرة لا مدير ولا مديرة، أفعل ما أريد، كما أريد، حينما أريد. عاملني الناس لسنوات ككلبة، كانوا يلقون عليّ كلامهم كعظام كي أقرضها، ويأمرونني: «رينالدا، افعلي ذا، افعلي ذاك!». لقد ولّى ذلك الزمن. على المرء أن يعي ما يريد. عليك أن تأخذي قرارك بنفسك، فلا أحد غيرك يعيش حياتك. من غير المعقول أن يمضي المرء وقته يبكي ويجترّ ما حصل. لقد انتهى بي المطاف أن أدركت ذلك. لقد تعذّبت في حياتي أكثر من أيّ شخص آخر. تمنّيت الموت لمرّات عديدة. أستطيع القول إني أجهل كيف ما زلت حيّةً على وجه الأرض. لا بدّ أن الفضل يعود للودوفيك، لكني أتساءل أحياناً ما إن كان ذلك يستحقّ العناء حقاً.

وُلدت في «ديزيراد». للناس في غوادلوب فكرة سيئة عن ديزيراد، بسبب المجرمين والمصابين بالجذام الذين كانوا يُرسلون إلى هناك في ما مضى، ولأن ما من شيء كان ينمو هناك أيضاً، لا قصب سكر، ولا قهوة، ولا يام، ولا بطاطا حلوة. أما بالنسبة لي، أنا الفتاة الصغيرة، فلقد كانت ديزيراد، الجزيرة المنشودة التي ظهرت في البحر أمام أعين البحّار كريستوف كولومبوس بعد أيام وأيام من الإبحار. كنت أعرف كل زاوية فيها. أتنفّس رائحتها حين تضع الشمس التي سخّنتها طوال النهار رأسها أخيراً لتنام في قعر المحيط. كان بإمكاني رفع صخرة وتسمية الحشرة

المختبئة تحتها بدقّة. أعرف نباتاتها الطبّية. كنت أعيش في الجبل مع أمي. لم يكن لديّ إخوة ولا أخوات، لا أحد سوانا نحن الاثنتين في دار متداعية على أرض قفراء صخرية تحيطها نباتات الكروتون، تفصلها خطوات عن شجرة مونيما رمادية. في الصباح، أُطعم الرز المطحون للعصافير التي اصطدتها بالدبق ووضعتها في قفص من قصب البامبو جدلته بنفسي. لم يكن لدينا كهرباء ولا مياه جارية. كل صباح، أنزل وادي «سيبيل»، حاملة دلواً متوازناً على رأسي. كنا ليلاً نشعل شموعاً لا تنقشع العتمة معها. كما هي حال معظم باقي الأطفال، لم يكن لي أب. لم يزعجني الأمر ولكني كنت دائماً أسأل عن هويته. ولدى سؤالي لها، تعطيني أمي أجوبة مختلفة. تقول لي أحياناً إنه صيّاد بالحبال ذهب لصيد أسماك التونا من جهة «بوتيت تير» ولم يعد قطّ. أحياناً أخرى، تؤكّد أنه مربّي ديوك قتال من «بي ماهو». أحياناً أخرى أيضاً، تروي لي أنه يشحذ السكاكين في «سان فرانسوا» على الجزيرة الكبرى. في الحقيقة، أظن أنها لم تكن تعلم بدقّة من جعلها حبلى، فكثيرٌ من الرجال وطئوها في سبيل اللذّة. لم يكن ذلك رغبة بالرذيلة منها، فلقد كانت بائسة مسكينة، والبائسات المسكينات يصبحن مشاعاً للجميع، يرافقونهن ويتركونهن، ومن ثم يعودون ويرافقونهن كما تملي عليهم رغباتهم. لم تكن والدتي تقدّرني، أحسست بذلك منذ اللحظة الأولى. لا أستطيع الجزم بأنها بدأت بتعنيفي في ذلك الوقت، فهي لم تخاطبني بالحسنى على الإطلاق. كانت تكرّر على مسمعي أني شديدة السواد، قصيرة، وأن شعري بشع، ليس كشعرها الطويل والكثيف الذي تجدله كالفانيليا للذهاب إلى القدّاس. لم تكن تتوقّف عن التبرّم من أني لن أجد رجلاً يهتمّ بي. ما حصل لاحقاً أثبت بلا شك أنها كانت على خطأ. في منزلنا لم نكن نرى اللحم دائماً. كنت أشعر بأني سعيدة حظ حين

يكون بمقدور أمي التي تلمّع أرضيات منزل كاهن «بي ماهو» دفع ثمن بضع سمكات تقليها باستخدام دهن الخنزير. أغلب الأوقات كنت أغمس قطعة فاكهة الخبز أو موز البوبو في الزيت وآكلها. لكن ذلك لم يجعلني أحزن ولم يتحوّل إلى عقدة نفسية. حين كان بطني يزقزق كثيراً، أتناول حبة مانغا، أو أخدش يديّ وأنا أقطف ثمرة الإيكايا في أيكة شجر البقم. إلا أن ما يمكن عدّه حظاً سعيداً هو الآتي: على الرغم من كوني فقيرة وبائسة، بلا حذاء أو ثياب جديدة أو كتب جديدة ودفاتر مجلّدة، إلا أني كنت الأولى في المدرسة. أثار ذلك حنق آنساتي، إذ اعتبرنه غير لائق، فهنّ يرغبن أن يوزّعن البطاقات الوردية إلى مدلّلاتهن من صاحبات البشرة الفاتحة، لكن من دون جدوى، فقد كنت أنا، رينالدا تيتان، من تحوز عليها جميعها. يمكنك القول إني كنت أجمعها. أصفّها في علبة بسكويت «لو» وأرقّمها.

كنت أغنّي بشكلٍ جيّد أيضاً.

لطالما وضعتني معلّمات الدين في الصف الأخير خلف الأطفال ذوي الملابس الحسنة، أصحاب الشعور المصفّفة، حتى لا يراني أحد في الكنيسة، إلا أن صوتي وحده كان المسموع خلال القداديس. يرنّ صوتي في صحن الكنيسة ويحلّق عالياً حتى السقف الذي على شكل جناحي طائرة ممدودين، ويحلّق عالياً أكثر حتى السماء.

للمفارقة، هذا ما سبّب تعاستي. في الخامس عشر من آب، جاء أسقف غوادلوب إلى ديزيراد في رحلة حجّ. في ذلك الزمن، كانت غوادلوب بالنسبة لي أرضاً بعيدة غريبة. كما هي الحال بالنسبة لمعظم الناس، لم أكن أعرفها. لم أركب قارباً في حياتي أو أسافر، ولا حتى إلى محلّة «سان فرانسوا» التي كان بالإمكان رؤيتها هي و«لا بوانت دي شاتو» خلف

الحشف في عرض البحر. في ذلك اليوم، هرع الناس منذ الصباح إلى رصيف البحر. بعضهم أتى بكلّ بساطة ليشاهد المركب وأعلامه وصور العذراء مريم الخفّاقة؛ البعض الآخر، لأنهم سمعوا عن قدرة الأسقف على شفاء الأمراض، ويقال إنه شفى امرأتين اثنتين وطفلاً صغيراً في «كابستير». ترجّل المطران مستنداً على كاهنين، أحدهما إلى يمينه والآخر إلى يساره. كان يلبس ثوباً بنفسجياً كلون وجهه، ويعتمر قلنسوة مذهّبة ويقوم بإشارات تبريك كبيرة. أحد أطفال الجوقة يلوّح بالمبخرة. ركع الجميع. بعد ذلك، صعدوا إلى الكنيسة لإحياء شعائر القداس الإلهي. كانت جوقة الأطفال تقف في مكانها المعتاد، إلى الأسفل من المذبح العالي.

وأنا واقفة في الخلف، وكما هي الحال في كل مرة، لم يسمعوا سوى صوتي. يبدو أن الأسقف قد بكى. طلب بعد ذلك أن يراني وأُجبرت معلّمات الديانة على إحضاري له. كان الأسقف جالساً في صالون منزل كاهن الرعية الواسع، محاطاً بكهنة «بي ماهو»، وعمدتها وأعيانها، كان ضخم البنية ومتعرّقاً، هيئته توحي باللطافة في الحقيقة. مدَّ لي خاتمه كي أقبّله. سألني عن اسمي. أراد أن يعرف من هو أبي، من هي أمي، وما إن كنت أحبّ المدرسة، وما إن كنت أواظب على دروسي. الجميع يشاهدوننا لكني لم أشعر بالخوف. أجبت عن أسئلته ثم عدت إلى المطبخ حيث تقدّم أمي يد العون لخادمات الكهنة. أذكر أننا أكلنا كمية كبيرة من طعام ما كنت أتخيّل أنه موجود: كبد الإوز، فولفون، طبق البط كونفيت، حتى إني تذوّقت النبيذ الأبيض الحلو.

بعد عدة أسابيع، في أحد المساءات، جاء الأب روسو، كاهن الرعية، مقطوع الأنفاس لعند أمي. لقد وصلته رسالة. رسالة من الأسقف الذي

كنت أنا قد نسيته تماماً. لقد ارتأى أنه عليّ ألّا أبقى في ديزيراد أجترّ البؤس، بل الذهاب إلى لابوانت حيث مجالات التقدّم بالنسبة للزنوج الأذكياء أوسع. من خلال الدراسة، يمكن للمرء أن يصبح مدرّساً أو مدير مدرسة. وجد لأمي عملاً: خادمة عند صائغ إيطالي في شارع «نوزييه»، رجل مشهود له بالاستقامة والطيبة، حتى وإن كان يهودياً، زوجته مصابة بمرض عضال، ولذلك فهو بحاجة إلى أحد يثق به يدير له المنزل. هذا الرجل يدعى جيان كارلو كوبيني. قدّم لنا الطعام والمسكن، وكما تعهّد، وهذا هو الأمر الأهم، تكفّل بإرسالي إلى المدرسة حتى عمر السادسة عشرة.

ظننت أن أمي سترفض. لماذا ستقبل أن تعمل خادمة لدى رجل أبيض، هذا عدا كونه إيطالياً؟ أن تترك ديزيراد حيث البحر أمامنا على مدّ النظر، والشمس فوق رؤوسنا، والعصافير الطنّانة الخضراء تهدهد على قمم أشجار الأكاسيا؟ لكني دهشت لرؤيتها ترتمي على العرض ارتماء المريض على حساء الدجاج. سلّمها الخوري بضع أوراق نقدية من فئة المئة فرنك دفعة مقدّماً من راتب شهرها الأول، فشرعت تتنقّل من دار إلى أخرى متبخترة:

– يا فلان، وجدت عملاً في لابوانت، نعم!

– يا فلان...

دُهش الناس من حظّها الجيّد وأخذوا يستغيبونها. لا ريب في أنها ستبيع نفسها للرجال هناك، فالرجال هنا لا يرغبون بها. جمعت حاجاتنا في سلة قصب كاريبية، وأقفلت الباب وراءها وغادرنا. أنا كنت أحتضر. في الليلة التي سبقت رحيلنا، فتحت باب القفص وحرّرت كلّ عصافيري،

ذهبت لأودّع كل الأماكن التي أحب: برودة وادي «سيبيل»، التيار عذب الألحان الذي يسير تحت غطاء من عدسيات الماء، والأشجار من قابوق وتابوبيا، والحلوى المحلّيّة، والبحر، بالأخصّ البحر الذي لن أقفز فيه مجدداً برجلي أولاً.

أركانيا التي تشبه العذراء مريم بجمالها، والمستلقية دوماً، والتي كنا نحن أطفال المنزل نعشقها، وندعوها ماما، هي من روت لي هذا. لقد كانت تكرهه مثلي، لكن ماذا بإمكانها أن تفعل هي أيضاً؟ لقد قطعت المحيط معه. في ذلك الزمن، حتى وإن كنّ معنّفات ويتعرّضن للخيانة، فإن النساء لا يفكّرن في الطلاق بتاتاً.

جيان كارلو كوبيني كان الصبي الوحيد لعائلة من منطقة «كوم» حيث يتوارث الرجال مهنة الصياغة أباً عن جدّ. هم بالأصل يهود قدموا من بولونيا، لكنهم «طَلْيَنوا» اسمَهم بعد وصولهم، ولم يعودوا يكترثون لأمور الشعائر اليهودية. حتى بعد تحوّلهم للمسيحية، لم يولوا شؤون الدين أيَّ اهتمام، وظنّهم الجميع عديمي الإيمان. لمّا كان في الثانية والعشرين من عمره، ارتكب جيان كارلو خطأً –لا تعلم أركانيا ما هو– من الجسامة بمكان أن أباه وأمه لعناه رغم كونه ابنهما الوحيد. بعد أن هام على وجهه في شمال إيطاليا حيث لم يواجه صعوبة في إيجاد عمل، لأنه عامل ماهر يتقن صياغة خيطان الذهب وتركيب الأحجار الكريمة المنقوشة، ارتأى أن يستقرّ في ميلان عند الجواهري المشهور باولو رينوشي. من المهم هنا معرفة أنه لدى باولو بنت، بنت وحيدة. كان باولو رينوشي ينام وبندقية ملقّمة تحت وسادته، إذ إنه أقسم إن الذي سيطأ ابنته لم يولد بعد. انبرت ألسنة الناس بسبب ذلك في القول إن الأمر واضح: إنه يريدها لنفسه. حين

حملت أركانيا من جيان كارلو، لم يكن أمامهما سوى حل وحيد: الهروب بعيداً قدر الإمكان عن ميلان وعن باولو. بالطبع كان لديهما خيار الذهاب إلى الولايات المتحدة، ففي تلك السنوات، كان هنالك قوارب عديدة محمّلة بالإيطاليين تتجه إلى هناك. ماطل جيان كارلو. أصدقاء له مقيمون في نيويورك كتبوا له رسائل حزينة يصوّرون فيها برد الشتاء القارس الذي يلفّ شوارعهم.

في أحد الأيام وبينما يتصفّح «لاستامبا» وقع على إعلان:

أنتم على موعد مع الشمس في أراضي غوادلوب ومارتينيك المصطفاة
رحلات دورية على بواخر فاخرة، فنادق مريحة،
ورحلات مع أجمل المناظر الطبيعية المحلّيّة
الشركة العامة عابرة الأطلسي

حفّزهما الإعلان لأخذ القرار.

وصل جيان كارلو وأركانيا الحامل بإيرا، ابنته الأولى التي توفّيت بعد ستة أشهر من ولادتها، إلى غوادلوب على متن الباخرة «آلييه»، في نهاية الحرب العالمية الأولى، في السنة نفسها التي ولدت أنا فيها مجهولة نسب الأب في ديزيراد. كانت البلد قد عانت كثيراً بسبب حصار الحلفاء. كثيرٌ من الأمهات كنّ في حزن على أولادهن الذين انشقّوا للّحاق بالجنرال ديغول، فإما قُتلوا وإما صاروا في عداد المفقودين. جيان كارلو، الذي كان ماهراً جداً في المساومة، اشترى منزل رجل أبيض مفلس بمبلغ متواضع جداً. كان المنزل في حال يرثى لها، لكن موقعه جيّد في شارع «نوزييه»، مؤلّف من طابقين مع سقيفة خدم، متين الهيكل مع ملحق بالطابق الأرضي، افتتح فيه محلّ الصياغة الذي سمّاه «إيل لاغو دي كومو». حقّقت أعماله

نجاحاً سريعاً لم يكن هو يتوقّعه، فأهل غوادلوب لم يكونوا بعد قد رأوا مجوهرات تشبه تلك التي يصنّعها. بالطبع يعرفون الأحجار الكريمة ذات النقوش النافرة، لكن جيان كارلو عَرَّفهم على النقش الغائر، والذي هو أسلوب مختلف كلياً في الحفر. كان البرجوازيون يأتونه من «باستير» و«سان كلود» و«ماتوبا» ليسجّلوا طلبياتهم. لم يستطع جيان كارلو أن يدير الأعمال وحده، فاضطرّ أن يستقدم اثنتين من أخواته على متن رحلة من الدرجة الثالثة. كانتا قد بلغتا سن الزواج، فأقنعهما بأن بشرتهما التي بلون الحليب وشعرهما الأجعد الأشقر سيسهّلان عليهما إيجاد زوج من البيض المولودين في الجزيرة. ما حصل في الواقع هو أنه أرهبهما منذ نزولهما من الباخرة. جعلهما تعملان دون أن يدفع لهما قرشاً واحداً، وخصّص لهما كميات محدّدة من الأرز وسمك القدّ ليستهلكاها. كانت المسكينتان تخجلان من أثوابهما المرتوقة باستمرار، ومن أحذيتهما التي لا تتوقّفان عن تغيير نعالها، إلى درجة أنهما باتتا لا تجرؤان على الخروج نهائياً إلا للاعتراف وحضور قداس الساعة الثامنة، وأحياناً للجلوس، وطرحتاهما مسدلتان على وجهيهما، في ساحة «لافيكتوار» في زقاق الأرامل. كنا نشعر بالشفقة على حالهما، العمّة ليا والعمّة زيتا. لكن خيبات أملهما لم تؤثّر بشيء على طيبة قلبيهما. لقد كانتا قديستين تستحقان الذهاب إلى الفردوس.

هذا هو المنزل الذي دخلت إليه لمّا بلغت العاشرة يوم 10 أيلول 1955.

كانت ماما أركانيا، هكذا يناديها الجميع، حتى زوجها وسلفاتها، بيضاء مثل دهن الخنزير. أنجبت في عشر سنوات عشرة أطفال دفنت خمسة منهم. لحسن الحظ، لم تعد قادرة على الإنجاب بسبب نزيف داخلي

أصابها وكاد يودي بحياتها. نتيجة لذلك، سوّد جيان كارلو عيشها لأنه لم يحصل منها على صبي. كانت تقضي جلّ نهارها مستلقية على سريرها تقرأ الروايات وتستمع للموسيقا، تحلم وتبكي. أحياناً، عند غروب الشمس، تستلقي على كرسي طويل على شرفة الطابق الأول لتستمتع بقليل من برودة المساء. في بعض أيام الآحاد، حين تكون قادرة على المشي، تذهب، مستندة على ذراع جيان كارلو إلى كاتدرائية القديسين بطرس وبولس حيث يسترق الناس، عوضاً عن الصلاة وقراءة كتيّب القداس، النظرات إليها كما لو كانت شيئاً عجيباً. في بعض الأيام أيضاً -لكن ذلك نادر الحدوث- تنزل إلى المتجر وتجلس خلف الصندوق لبعض الوقت، ثم تعاود الصعود منهكة. كان صوتها في غاية الرقة مثل الموسيقا الكنسية، ومن الصعب سماعه إن لم يقترب المرء منها ليعرف ما تريد. وتنبعث دائماً من ملابسها رائحة زهرة الأرنيكة، وبخور جاوي، وعطر «سوار دو باريس». هذه الروائح كانت هنا بغية إخفاء رائحة أخرى، حادّة، تلك المنبعثة من دمها النازف باستمرار.

من لحظة استلامها العمل، شرعت أمي تهتم بها كما لم تهتم بأحد من قبل، أكثر مما تهتم بي على أيّ حال. تقتطع جزءاً من مصروف المنزل الضئيل الذي يعطيها إياه جيان كارلو لتشتري لها البيض والحليب والبريوش والفواكه. للغداء، تقلي لها لحم البقر الأحمر الدامي، وتطهو صدور الدجاج وفيليه السمك ومهروس البطاطا، وتحضّر سلطة قلب الخس. مساءً، تحضّر لها القرع الشتوي المهروس. هي من تحمّمها وتُلبسها وتعطّرها وتدهن شعرها بزيت الشعر «روجا»، وتضعها في السرير لترتاح في غرفة نومها المغلقة الستائر، التي زيّنتها بنباتات مسك الروم

واللوف. لم تكن تتساهل مع أطفالها حين يطرقون بابها ويجلسون جنبها ويقبّلونها ويحكون لها قصصهم اليومية في المدرسة. حتى وإن لم يثيروا أي فوضى، تطردهم: «انصرفوا! ستتعبونها!».

بدا الأمر كما لو كانت غيورة، كما لو أنها تريد، مثل والدها باولو رينوشي، أن تكون لها وحدها.

مع ذلك لم يمنع هذا الأمر شيئاً. كنت أنام أنا وأمي في سقيفة الخدم في غرفتين ضيّقتين يفصلهما جدار رقيق كورقة السيجارة.

مساء بعد مساء أسمع جيان كارلو وهو ينضمّ إليها في سريرها، وصرير العوارض الخشبية. أسمعه ينخر كالخنزير لحظة وصوله إلى النشوة، يتنحنح، يضرط، ويبول بغزارة في السطل. لم أكن أسمع أمي، الأمر الذي يزيد من بشاعة الموقف. لو صرخَتْ أو اعترضَتْ أو قاومَتْ لحزنت عليها واعتبرتها ضحية. لو انتشَتْ لاعتبرتها حيواناً شبقاً. لكن هذا الصمت جعل منها شيئاً سلبياً، خادمة تفعل كل شيء. أظن أن الأمر بدأ قبل أن تكمل أمي أسبوعها الأول في العمل. لا أعرف كيف بدأ الأمر ولا أستطيع سوى تخيّله، أتخيّل أن أمي كانت تلمّع الأرضية بمهارتها المعروفة. راكعة على ركبتيها في الماء الوسخ إلى جانب سطل، الفرشاة في يدها وثوبها مرفوع. دخل هو إلى الغرفة ورأى أليتيها المكشوفتين، ودون حتى أن يتعب نفسه بقول شيءٍ ما، غرز فيها وتده. مساءً، جاء لينضمّ إليها في الفراش. أكرهه وأكره أمي. لا أعرف من أكره أكثر. كنت أحلم بقتلهما بالطريقة الأكثر شناعة والأكثر دموية. وأتخيّل ألف طريقة لتعذيبهم. عليهما أن يتعذّبا، هذان الوحشان.

في تلك اللحظة، رينالدا، التي كانت كمن في غيبوبة، عادت إلى

وعيها. توقّفت فجأة. راحت تنظر من حولها وإلى النافذة التي حلَّ الليل خلفها. نظرت مشدوهة إلى ماري نويل التي كانت تمتصّ كلامها مرعوبة، ونهضت. تحرّكت حركة غريبة بجسدها كلّه تشبه الارتعاش، ثم قفلت عائدة إلى مكتبها.

بعد عدة أسابيع أو شهور من ذلك، كشفت زيارة طبية روتينية في المدرسة أن ماري نويل مصابة بتجويف درني في رئتها اليمنى.

.7

يشكّل مصحّ «فينس»، بحديقته الممتدة على مساحة مئة هكتار والمأهولة من أيائل سمراء أوروبية وأشجار نادرة، عالماً مغلقاً، عالماً مختلفاً لديه قوانينه وفلسفته وعمارته الخاصة. الحبوب الواجب تناولها، قياس الحرارة، المصول، الحُقَن، القيلولة على الترّاس أو في الغرفة وفقاً لميلان الشمس، التصوير الشعاعي والتصوير المقطعي كانت تضبط إيقاع كلّ يومٍ من أيام الأسبوع. الوقت يقاس بالمدة التي تلازم السريرَ بها المريضاتُ المئة اللواتي كنّ تلميذات وطالبات. بعد مرور ثلاثة أشهر، إن لم تقاوم عصيّات كوش العلاج، يُسمح لهن بمغادرة الغرفة لعدّة ساعات تقيسها الممرّضات بدقّة، وبتناول العشاء في المطعم في الطابق الأرضي. بعد ستة أشهر، بإمكانهن الشروع في التحضير للامتحانات تحت إشراف أساتذة، هم أيضاً مصابون بالسلّ، يعملون في ثانويات «نيس» و«غراس»، أو في جامعة «إيكس إن بروفانس» التي لم تكن بعيدة هي الأخرى. بعد انقضاء عام، يصرّح لهن بقضاء فترة بعد ظهر واحدة في الأسبوع في أي مكان يرغبنه، لكن مع تحاشي كلّ ما يمكنه الضرر بصحتهن، كالإفراط في الكحول وتعاطي المخدرات واللعب في الكازينو والعلاقات

الجنسية على وجه الخصوص. في ظرف ثلاث سنوات، يمكنهن في أحسن الأحوال توديع المصحّ، وإن أخذن احتياطاتهن متابعة حياتهن دون حصول أيّ انتكاس. تُعتبر المصحّات، مثلها في ذلك مثل السجون، أماكن ملائمة لتطوّر العواطف الجارفة. كلّ المريضات كنّ واقعاتٍ في غرام الأطباء والأطباء المتمرّنين المسؤولين عن علاجهن. كنّ يكرهن الممرّضات ويجترحن ألف حيلة وحيلة سيئة كي يصعّبن عليهن مهامهنّ. شريكتا السكن في الغرفة الواحدة تتبادلان العشق، أو على العكس تتنافران بين ليلة وضحاها وتصبحان غير قادرتين على تحمّل البقاء معاً. قضت ماري نويل سنتين وتسعة أشهر في «فينس». ومع تقدّمها في العمر، صارت تتذكّر هذه الإقامة على أنها فترة ذهبية في حياتها، فهناك استعادت الرغبة في الدراسة، وحضّرت امتحانات شهادة البكالوريا. عدا رسائل رانليز وآوا المخلصتين لم يكن يصلها بالبريد شيء، ولا يأتي لزيارتها أحد. كانت تصلها حوالة مالية شهرية تحمل الجملة المكرّرة ذاتها من شهرٍ إلى آخر: «محبّة من والدتك». كلّ خمسة عشر يوماً، يتصل لودوفيك بها ويطلعها على آخر مستجدات المنزل. كان غارفي حسب زعمه لا ينفكّ يسأل عنها. دافعت أمها أخيراً عن أطروحتها في علم النفس الاجتماعي، وهنّأتها اللجنة بالإجماع. أيام الآحاد والعطل، في الوقت الذي يمتلئ المصحّ فيه بضوضاء الزوّار القلقين على صحة أقربائهم، تجلس وحيدة في غرفتها، الأمر الذي لم يكن يزعجها بتاتاً. بتلك الطريقة، كان بإمكانها أن توهم نفسها، كما المحيطين بها، بأن عائلتها، أباها، وأمها وإخوتها وأخواتها، وأولاد العم، يعيشون في الخارج. بتلك الطريقة، بإمكانها التخيّل بأن السنوات التي أمضتها في «سافيني سور أورج» ليست سوى محض خيال. لم تجلبها رينالدا لعندها لتعاملها بتلك الطريقة. ذلك الحديث الذي

لحسن الحظ قوطع، لم يحصل أبداً، لأنها تخشى هذه الاعترافات الرهيبة. لقد أتت ماري نويل مباشرة من لابوانت حيث تركت رانليز تنتحب على كتف كلير ألتا في مطار «ريزيه». لكنها ستُشفى قريباً بفضل العناية الجيّدة، وسيكون بإمكانها العودة إلى جانبها في غوادلوب، لتستأنف حياتها في قناة فاتابل من النقطة التي تركتها فيها.

كانت ماري نويل سعيدة في «فينس» لسببٍ ثانٍ. لقد غدت صديقة لفتاتين: ليلى التونسية ذات السبعة عشر ربيعاً، التي، بعد انتكاسات ثلاثة وعمليتين جراحيتين، باتت تتنفّس برئة واحدة؛ وأراكسي الأرمنية، العمر نفسه والبنية الهشّة نفسها، التي زارت كلّ مصحّات البلد. لم يكن الناس يدركون لِمَ تشعر ماري نويل بأن لديها كل ما تريد وليست بحاجة إلى شيء. يرثون لحالها ويحيطونها بعناية نابعة من نيّة طيّبة، ولكن لا جدوى منها. كان الأطباء من عاملين ومتدرّبين يتبارون في تطمينها حول منحى تطوّر مرضها. أما الممرّضات فيحشين جارور منضدتها بعجائن الفواكه وحلوى كاليسون، وكان الأساتذة يصرّون على إعطائها دروساً خاصة في كلّ المواد.

لا تسأم ماري نويل من الاستماع لليلى وأراكسي وهما تصفان حياتهما العائلية والطاولات التي تُمدّ للاحتفال بأعياد الميلاد والزواج والعمادات. تتخيّل الضحكات، والمشادّات الكلامية، وطعم الكريما شانتيه، ورائحة النبيذ المستخدم في الطهي، وحرارة العاطفة الجامحة. لم تستوعب لِمَ تشتكيان وما تكرهان. أن والديهما قاسيان، وأن إخوتهما حمائيّون وأن والدتيهما تملّكيّتان جداً؟ كم تودّ لو أنها عرفت أنواع طغيان الحب هذه.

مرّة في الأسبوع، يذهبن ثلاثتهن إلى نيس. ليلى وأراكسي ترفضان

ركوب باص المصحّ المريح بحجّة أنهما تودّان الابتعاد عن جوّ المرض. ما كدن يجلسن في الكرسي الأخير من الباص الذي سيرتجّ لكيلومترات على الطريق المتعرّج حتى يشرعن بإطلاق النكات، والأغاني ذات المعاني الجنسية، والمزاح الطفولي، والنظرات إلى الرجال، والتعليقات الازدرائية تجاه النساء، والصرخات الحادة عند كل منعطف كما لو أنهنّ مصابات بالكَلَب. الناس يتحمّلون هذه الإزعاجات ويبتسمون، فقد كانوا يعلمون بلا شك من أين أتين، ويتحسّرون على شبابهن. لدى نزولهنّ من الباص، التقين بمجموعة من العاطلين عن العمل من عرب وكاريبيين وأتراك، أي أنهم كلهم مثلهن من المستأمنين الذين ليس لديهم مكان إقامة دائم، مدخّنون عتيقون للقنّب الهندي، ومن هواة الكحول. يتعاملون بخشونة مع آلات القمار في بارات «نيس» القديمة وهم يشربون زجاجة البيرة تلو الأخرى، وكانوا، وهم نصف سكارى، يقضون ما تبقّى من فترة بعد الظهر يمارسون الجنس في مطعم وفندق «نوي دو تلمسان» الباعث على الازدراء، والذي يديره أحد الحركيين اسمه الأخضر. تتملّص ماري نويل دائماً عندما يحين وقت الصعود إلى الغرف. كان ذلك سهلاً لأن الشباب لا يطلبون منها مرافقتهم. لو صعدت معهم فإنهم لن يوفّروها وسيطؤونها الواحد تلو الآخر أو جماعة. لكنهم لا ينتبهون حتى لغيابها... وفي حين تستمتع ليلى وأراكسي بوقتيهما، تتسكّع هي في سوق الزهور حتى تصل إلى البحر، وتغمس قدميها في مياه المتوسط عديمة اللون والباردة جداً إذا ما قورنت بمياه بحر طفولتها الكاريبي. تجلس أحياناً في الكنائس المهجورة وفي صالات السينما دون أن تعير أي اهتمام لما يُعرض على الشاشة، ومن ثم تلتحق برفيقتيها المنهكتين الشعثتين، اللتين أصبحتا فجأة قلقتين بخصوص صحتهما.

في حزيران 1978، نجحت ماري نويل في البكالوريا مع عشر طالبات أخريات من المصحّ تقدّمن للامتحان. كان ذلك حدثاً مشرّفاً جدّاً للمؤسسة ويستدعي الاحتفال. لذلك جرى تنظيم حفل، وألقى رئيس الأطباء خطاباً شكر فيه المريضات وأساتذتهن المخلصين. قدّمت بعدئذٍ الممرّضات الحلوى والنبيذ الأبيض. رقصت المريضات ممن سمحت صحتهن لهن بذلك، وصدحت موسيقا الديسكو في الممرّات حتى منتصف الليل. على العكس مما يمكن تصوّره، لم تكن ماري نويل سعيدة، بل بقيت وحيدة في غرفتها تبكي. كانت نتائج صورها الطبقية ممتازة، الأمر الذي حدا بالأطباء إلى القول إنها شُفيت من المرض، وإنه صار بإمكانها مغادرة «فينس» في نهاية الصيف. ماذا سيصبح حالها؟ هل ستسجّل في الجامعة وتبدأ دراسة اختصاصٍ ما؟ لم تعد تتخيّل نفسها معتمدة على رينالدا أو عائدة للعيش بالقرب منها. أليس من الحريّ بها أن تبحث عن عمل وتستقر في مكان بعيد، بعيد جداً عن «سافيني سور أورج»؟ عمل؟ من هذا الذي سوف سيشغّلها؟ لا تعرف عمل أيّ شيء بأصابعها العشر، والشهادة التافهة التي حصلت عليها مؤخراً لا تثبت العكس. جاء دور ليلى وأراكسي في ألّا يستوعباها. دموعها أثارت حنقهما، فكم ودّنا لو أن بإمكانهما التعافي والعودة إلى حياتهما السابقة بلا أدوية ولا قيلولات، تلك الحياة التي لا تتطلب خسارة وزن ومراقبة وزن دائمة.

في أحد الأيام التي نزلن فيها إلى «نيس»، التقين بصبيّ جديد في العصابة. يتكلّم معه الصبيان الآخرون باحترام غير معهود بينهم، لأنه الوحيد فيهم الذي يعمل، وهو قادر على دفع إيجار غرفة مفروشة. كانوا يلقّبونه بوب مارلي، بسبب جدائله. وهو لا يتوقّف طوال بعد الظهر عن التدخين والشرب والحديث عن نفسه. لقد كان طفلاً معجزة يعزف على

البيانو في أعياد ميلاد إخوته وهو يلبس طقماً من المخمل، ورسم خطّ شعاع بالشفرة في لبدة شعره الكثيف. غادر عائلته بعد وقت وتعلّم العزف على الساكسفون والفلوت العرضي والناي والغيتار والغيتار الكهربائي والبانجو من دون معلّم. وهو يقود في الوقت الحالي فرقة مؤلّفة من خمسة عازفين: عازف بيانو، وعازف غيتار باص، وعازف طبل، وعازف ترومبون، وهو على الساكسفون. تعزف الفرقة في نادٍ للجاز يقع على الساحل اسمه «رامدا». لكن لم تكن لديه أدنى نيّة في إضاعة وقته في هذا النادي، إذ ينوي السفر بعد عام إلى الولايات المتحدة حيث سيصبح لديه شهرة وسمعة وجمهور. استمعت ماري نويل له بكثير من الدهشة وبعض الحسد. يا للعزم الذي يمتلكه هذا الصبي الذي لا يكبرها إلا بقليل! في الوقت الذي تمتد حياتها أمامها كأرض قاحلة دون أي نقاط ترسم لها طريقها فيها، كان هو يعرف ما يريد. في الوقت ذاته، ذكّرتها تلك الأحلام بأحلام ساران الطفولية والمجنونة غير القابلة للتحقيق. هذه المرة أيضاً لم تسمح لنفسها بالاعتراض إلا على شيء واحد، هو نفسه في الحالتين. لماذا الولايات المتحدة الأميركية؟ مثل ساران، أتى جواب ستانلي جاهزاً: «إنها البلد الوحيد الذي يمكن لزنجي أن ينجح فيه!».

في فترة بعد الظهر، كما جرت العادة، كانت ماري نويل على وشك التملّص قبل مجيء وقت الصعود إلى الغرف، لكنّه أصرّ عليها بشدّة.

يا للغرابة! يا للغرابة أن ذاكرة ماري نويل لا تحتفظ بأي ذكرى عن فترة بعد الظهر هذه! ذلك أنه لم يحصل شيء يستحقّ الذكر. ليس هناك من راوية تنتظر على الباب لإعلان حصول النزيف. ما من متعة كبيرة ولا

حتى آلام. تلمّسا طريقهما ضمن فضاء رطب، ومن ثم ناما متجاورَين. في صباح اليوم التالي، طلب ستانلي إليها أن تصبح رفيقته.

استلَّ لودوفيك قلمه وشرع في كتابة رسالة مفصّلة لها. قال لها إن كاتب هذه الرسالة هو رجل لا يجهل الحيل التي تخدع الحياة بها المرء. لم يكن يؤنّبها لكن من أين تعرّفت على ستانلي هذا الذي بقيت في نيس من أجله؟ هو موسيقيّ؟ انتبهي، الموسيقا لا توفّر لقمة العيش للعامل بها. لقد خبر ذلك، فقد عزف على الغيتار لسنوات في بروكسل. سيحقّق النجاح في الولايات المتحدة؟ لقد عمل في نيويورك في تفريغ أحمال السفن في المرفأ، وفي قيادة المترو رقم 9، وبإمكانه أن يؤكّد أن الحلم الأميركي قد انتهى منذ زمن. في الحقيقة لم يرَ أحدٌ الحلم الأميركي على قيد الحياة. لم يبقَ منه اليوم سوى رائحة جثته التي تزكم الأنوف. طلب منها أن تفكّر مليّاً بما هي مقدمة عليه. رغبتها في الهرب من أمها التي لم تحاول قطّ أن تفهمها هي مجازفة قد تحمل لها مستقبلاً من الآلام وخيبات الأمل.

من مجمل الرسالة، لم يشدّ انتباه ماري نويل سوى جملة الملامة الأخيرة. لودوفيك يعتقد بأنها لم تحاول قطّ أن تستوعب رينالدا. كيف في الحقيقة يمكن معرفة من هي المخطئة هنا؟ من المؤكّد أنها تحاول الهروب منها. وستانلي لا يمثّل أيّ شيء بالنسبة لها سوى فرصة الحياة من دونها، الحياة بعيداً عنها، أليس كذلك؟ لم تكن ماري نويل في حال يمكّنها من أن تقرأ ما في داخلها. بعد سنوات أمضتها في المراقبة لرفيقاتها، آوا، ساران، ليلى وآراكسي، ظهر أخيراً رجلٌ يبدي رغبة تجاه جسدها، يعطي قيمة لما احتقره كلّ الآخرين. الحقّ يقال إن ستانلي لا يهتمّ بها خلال النهار. في الصباح، لدى نهوضه من السرير، يحمل ساكسفونه الثمين بين ذراعيه

ويمضي إلى التدريبات التي تكاد لا تنتهي. يعود في بداية المساء ليذهب بعد ذلك إلى «رامادا» حيث يعزف كلّ مساء. ظنّت في البداية أن من واجبها أن ترافقه إلى هناك، وتبقى تستمع إليه حتى ساعات الصباح الأولى. كلّ مرة تشعر أكثر بأنها لا تنتمي إلى هذا المعبد حيث لا مكان لشغف آخر غير الموسيقا. في جوّ يعبق بروائح الدخّان والكحول القوية، كان روّاد البار يهزّون برؤوسهم أو يتابعون الإيقاع بضربات من أيديهم، ثم فجأة، كما لو أن شيئاً مسّهم، يطلقون صيحاتٍ حادّة ويصفّقون بحماسة. ستانلي لا يلحظ وجودها، كان بعيداً، أعمى، غير مكترث إلا للأصوات التي تُصدرها آلته. يبدو وهو يعزف كأنه يتألم ألماً شديداً. في فترات الاستراحة، يشرب بلا توقّف ويصافح معجبيه ويبتسم لها ابتسامات مجبرة. فضّلت في نهاية الأمر أن تنتظره في غرفتهما المفروشة في شارع «لي فلور»، وتترقّب وقع خطواته على الدرج، وتتخيّل اللذّة التي سيجلبها لها. في الحقيقة، كان عشيقاً مزاجياً وغير منتظم. في بعض الليالي، يرمي بنفسه فوقها، ويغمرها بالقبلات ويتملّكها بنهمٍ شديد؛ في ليالٍ أخرى، يبدو عديم الرغبة ويُمضي وقته في الحديث، يفصله عنها في السرير فضاء أحلامه الواسع. يصف لها في الظلام مستقبل حياتهما المشرق في أميركا بالتفصيل. منذ بضعة أشهر وهو على اتصال مع نادي جاز في بوسطن اسمه «ذا فول مون». كان ذلك مكاناً خارجاً عن المألوف، طليعياً، ففيه جرى للمرة الأولى عزفُ الموسيقا الكوبية في الولايات المتحدة، قبل فترة طويلة من قيام ديزي جيليسبي بالتعاقد مع شانو بوزو للعزف في حيّ هارلم. كما أنه هنا أيضاً عزف كبار موسيقيي الريغي، باستثناء بوب مارلي، في الوقت الذي كانوا ما زالوا فيه غير معروفين خارج بلادهم الأصلية. لا يمكنه أن يعزف موسيقاه في أيّ مكان، فهي لا تشبه موسيقا أيّ رجل آخر، ميزتها أن الآذان الساذجة

لا يمكن لها أن تقدّر رقّتها ما لم ترتقِ بها. كانت هذه الأحاديث تستمرّ حتى الصباح، فيما ماري نويل تغفو وهي تتمايل على سيل الكلام الذي لا ينضب هذا. في ليالٍ أخرى، يدير ستانلي ظهره حرفياً لها في السرير، وينام كقرمة خشب ما إن يضع رأسه على المخدّة، دون أن يكترث لها. مع ذلك، اعتقدت ماري نويل بأنها سعيدة، وأن ما من مشكلة لديها سوى النقود. يبدو أن ستانلي لم يكن يعي أن النقود ليست فقط لشراء ما يمكن تدخينه والاستمتاع بشربه مع باقي موسيقيي فرقته. لم يكن يعير اهتماماً لأيّ شيء من الأشياء التي تجعل الحياة حياة، كتناول ثلاث وجبات يومياً، ولبس ثياب أنيقة، وركوب الباص... لم يكن يستوعب أنه مسؤول عن ماري نويل، وأنها لا تملك ما يؤمّن لها حاجاتها سوى حوالات رينالدا البريدية. يشتري لها هدايا مكلفة جداً دون أيّ منطق ينظم تصرّفاته: عطور، وأوشحة حريرية، وحقائب. لم تكن تستخدم العطور لأنها تجدها ثقيلة وعابقة، ولا الأوشحة أو الحقائب، إذ تجدها باذخة جداً. لم يكن يرى مثلاً أنها بحاجة إلى معطف، وأنها ترتجف لدى هبوب الريح الشمالية.

لم تكن ماري نويل تعرف الحاجة. مع كل بؤسها وفقرها إلا أن رانليز أنشأتها كما لو أنها أميرتها الصغيرة. أيام الآحاد كانت تلبس أثواباً من قماش الأورغانزا وتنتعل أحذية ملمّعة، وكانت تتلقّى هدايا ثمينة بمناسبة عيد الميلاد. أما رينالدا فإنها لم تبخل عليها إلا بالحنان. في المدرسة، حملت ماري نويل دوماً أجمل الحقائب. وبما أنها لا تجرؤ على طلب أي شيء من ستانلي، كانت تختلس من جيبه. إلا أنها لا تجد سوى فتات من عشبة الماريغوانا، ومن التبغ الرمادي، وبعض القطع الورقية المسجّل عليها نوتات موسيقية. لمّا دهمها الدوار مرّاتٍ عدة نتيجة للجوع،

وأصبحت سحنتها مثيرة للشفقة، لم تجد من حلّ سوى أن تبحث عن عمل لها.

وكانت مفاجأتها كبيرة حين وجدت واحداً.

مدرسة «إيماكوليه كونسيبسيون» الداخلية تشبه مصحّ «فينس». فهي مثله محاطة بحديقة من عدة هكتارات مليئة بأيائل وأشجار عطرية. غرفة الاستقبال فيها تنبعث منها أيضاً رائحة الشمع ومحاليل التطهير. هذا العطر الذي لا يمكن تقليده موجود فقط لدى المجموعات المنغلقة على نفسها. لم تكترث الراهبات للسنوات التي قضتها ماري نويل في المصحّ، لكنهن استغللن ذلك لتخفيض مُرتّبها إلى النصف. كُلِّفت ماري نويل بتدريس الفرنسية للصف السادس. طالباتها كنّ ثلاثين فتاة في عمر العاشرة، ينتمين غالباً إلى العائلات الأكثر ثراء في المنطقة. كانت الراهبات فخورات جداً لوجود ابنة صانع عطور شهير من منطقة «غراس» في الصف الثاني، وابنة مالك مطعم مذكور في دليل «غول-ميلو» في الصف الرابع. مع ذلك، لاحظت ماري نويل سريعاً أن النزيلات كنّ، رغم تنانيرهن القصيرة المخيطة من الجوخ الإسكوتلندي وكنزاتهن الملائمة، يعانين من مرض خبرته هي، داء منتشر في العالم أكثر من السلّ: نقص الحب. هؤلاء الطفلات المسكينات نُفين إلى المدرسة الداخلية كي لا يسبّبن إزعاجاً لزوج أمّ أو زوجة أب لم تكن تتحمّلهن، كي لا ينافسن إخوة أو أخوات من زواجٍ ثانٍ أو ثالث، أو كي لا يسبّبن أيّ إزعاج لأهل مشغولين في جمع المزيد من النقود، أو في قضاء العطلات في بلاد بعيدة. لذلك فإنهنّ لا يكترثن لا بموليير ولا دولافونتين، ولا بتطابق اسم المفعول. لم يكنّ يحتجن إلا لشيء واحد، وهو الحنان الذي لا وجود له في قاموس

«لايماكوليه كونسيبسيون». قدّمت ماري نويل لهن ما يرغبن فيه. عوضاً عن تعليمهن السنديانة والقصبة وخطبة السيّد جوردان، قرأت لهن القصص التي أثّرت بها لحدّ ذرف الدموع عندما كانت في سنّهن، أو روت لهن قصصاً كريولية، تلك نفسها التي روتها لها رانليز وكلير ألتا لتسحراها. كانت توزّع عليهن صوراً للعب لعبة «نعم أو لا»، جعلتهن يتذوّقن كعكة جوز الهند التي حضّرتها طبقاً لوصفة لودوفيك. نظّمت مسابقات في الغناء والمسرح وحتى الرقص كي تعطي الفرصة لمن يفتقرن إلى الموهبة في الظهور. حين أنهت الأم الرئيسة خدماتها بعد مضيّ فصل واحد لم يمثّل ذلك لها أيّ مفاجأة. لقد شعرن بالضيق لأجلها، لكنها ليست مناسبة للعمل، فلقد انخفض مستوى الصف. بكت الفتيات كثيراً في حصتها الأخيرة، واشترين وشاح «هيرمس» من مصروفهن يضاف إلى تلك التي أهداها ستانلي لها.

بعد ذلك، وجدت ماري نويل عملاً في عيادة أطباء. لم تعمل هناك طويلاً لأنها كانت بطيئة في العمل على الهاتف. ثم وجدت عملاً في حانوت «إنترفلورا» متخصّص بالنباتات والزهور الاستوائية. بدا الأمر وكأنه ترتيب من القدر أن تعمل غوادلوبية في تنسيق زهور الفلامنكو مع زهر طير الجنة أو الجربارة. هنا أيضاً لم يستطيعوا للأسف الاحتفاظ بها، فليس لديها أيّ خبرة في تناسق الألوان. اكفهرّت بعد ذلك كثيراً لدرجة أنها لم تعد تبتسم.

مع أنها جميلة جداً حين تبتسم.

8.

أحياناً، وهي تنتظر ستانلي ليلاً، تحلم ماري نويل بأمها. تحلم بها بحنان وشفقة. لقد نسيت المكان الموجودة فيه، والوقت، واللحظة، في نيس، في بناء تنقصه وسائل الراحة، ضائعةً في سريرٍ شراشفه رمادية. كان خيالها يستحوذ عليها كلياً. بدا لها أنها تركت جسدها وراءها كجلد «جانغاجيه»(*) وعادت لتعيش في غوادلوب، دون أن يعرفها أحد، قبل عشرين عاماً.

وصلت رينالدا إلى لابوانت في العاشرة من عمرها، بنتاً صغيرة ضعيفة، جمالها لا يسترعي انتباه أحد. سرعان ما كرهت لابوانت والحياة التي تعيشها فيها. ما من شجر أو من عرق أخضر، بل مبانٍ متراصّة واحدها على الآخر، وشوارع متشعّبة، ورائحة غبار خانقة.

إن كان المنزل في شارع «نوزييه» واسعاً وذا موقع جيّد، فذلك يعود لكون بنائه يعود إلى بداية القرن. وبالنتيجة، ليس فيه أيٌّ من وسائل الراحة الحديثة. يعود الفضل إلى جيان كارلو كوبيني في وصله بشبكتي المياه والكهرباء بتكلفة قليلة. للاستحمام، كانت العائلة تحشر نفسها في حمّام بدائي يقع بين غرفتي نوم على الطابق الأول، يحوي حوضاً من الزنك

(*) من باع نفسه للشيطان فتحوّل وبات يؤذي الناس، حسب الأسطورة الكريولية. [م].

ومرحاضاً وجِراراً. أما رينالدا ونينا فتستحمّان في الأسفل، في ما يسمى بيت الماء، الذي هو عبارة عن خصّ من التوتياء تزدحم فيه الأسطال والمكانس والفراشي، ويوجد صنبور مياه ينقّط ماء فوق جرن. كل صباح، ترغي رينالدا قطعة من صابون مارسيليا وتفرك جسدها بها مطولاً، بلا نهاية، أملاً بأن تطهّر نفسها من الليل، ثم تصعد لتلبس. ولمّا كانت نينا منهمكة في الاهتمام بأركانيا، تلتفت إلى العمّة ليا التي مهمتها تمشيط شعور جميع أطفال العائلة. تتشارك العمّة ليا والعمّة زيتا الغرفة نفسها وتنامان على أسرّة مفردة كالمراهقات. في حين تبقي العمّة زيتا عينيها مغلقتين ورأسها مستند على المخدة، كانت العمّة ليا، مرتديةً قميص نوم قطنياً مزيّناً بشريط من الدانتيل حول الرقبة، تجلس في كرسيّها ذي الظهر القائم منحنية فوق الفتيات اللائي يجلسن بين ساقيها الواحدة تلو الأخرى. تسرّح شعور بنات أخيها المخملية العبيّة بالرقة نفسها التي تسرّح بها شعر رينالدا الأجعد الكثيف. تنهي كل عملية بقبلة تطبعها على الجبين، خفيفة خفّة مسحة من جناح عصفور. بعد تشبّعها بهذه الطاقة، تدلف رينالدا إلى المطبخ وتشرب بعجلة كأس الشوكولا الصافية، وتخرج من المنزل. تكون نينا عندئذٍ قد نظّفت الرصيف الذي يصبح لامعاً كحذاء جديد، ويكون جوزيه، الموظّف ضئيل الأجر بشورطه الخاكي المبقّع يهمّ برفع شبك «إيل لاغو دي كومو» الحديدي. في تلك الساعة تحديداً، تعود المعتوهات اللواتي حضرن قدّاس الساعة السابعة إلى بيوتهن وأساريرهن منفرجة، إذ يكنّ ما زلن تحت تأثير القربان الذي تناولنه للتوّ.

في مخيّلتها، تتبع ماري نويل هذه الهيئة السيئة الملبس، التي تحثّ الخطا طوال مسيرها في شوارع ما زالت هادئة وشبه مهجورة حتى مدرسة

«دوبوشاج». بعد قليل، ستمتلئ الشوارع بأسراب من أطفال المدارس ممّن قوّست حقائبهم المدرسية ظهورهم، وسترنّ فيها كلّ الأصوات التي تثير رعبها: أجراس الدرّاجات الهوائية، وهدير محرّكات السيّارات، وصياح باعة جوز الهند وهم يروّجون لبضاعتهم. بدلاً من أن تعبر ساحة «لا فيكتوار» حيث بعض الأشقياء يتربّصون بالمارّة دوماً خلف أشجار السابلييه، تلتفّ رينالدا مروراً عبر «لادارس» كي تستنشق رائحة البحر. صواري السفن تحجب الرؤية، لكن النسيم القادم من البحر يطبع طعم الملح على الشفاه. توقّفت وتردّدت قليلاً قبل أن تتابع مسيرها مجدّداً كي لا تتأخر عن المدرسة. أسند بعض الأطفال جباههم على سور المدرسة الحديدي، كان ذلك نوعاً من الطقس لديهم. في تمام الساعة السابعة والنصف، حضر الحارس العتيق حاملاً أمامه كرشه ومطقطقاً بحمّالة مفاتيح كبيرة مثل تلك التي يحملها القديس بطرس. صرخ قائلاً: «ابتعدوا لو سمحتم!»(*).

أفسح الطلاب له المجال. فتح البوابة على مصراعيها واندفع الطلاب مطلقين كلّ أنواع الصيحات الحيوانية. قبل رنين الجرس، كان الصبيان يشبهون الحيوانات المسعورة، يركضون ويتدافعون ويلعبون بعنف لعبة الساخن والبارد أو قفزة الضفدع، في الوقت الذي كانت فيه الفتيات، وهنّ أهدأ من الصبية، يتهامسن بالأسرار في ما بينهن. ثم رنّ الجرس وعمَّ الهدوء، اصطفّ الأطفال بأرتال من اثنين اثنين ودخلوا إلى الصفوف.

لم يكن أحد يكترث لأمر رينالدا كما لو أنها واحدة من المصابين بالجذام الذين يُرسلون إلى ديزيراد. كان يمكن لها أن تصبح واحداً من

(*) بالكريولية في الأصل. [م].

أكباش المحرقة الكثر في مدرسة «دوبوشاج» لو أنها لم تُحضر شهادتها الابتدائية في صف السيّدة ليبيرفييه. على الرغم من اسمها المثير للرهبة(*)، فإنّ مدام ليبيرفييه تجسّد الطيبة. حتى موتها المبكر كانت أمها تبيع الأسماك في سوق «سان أنطوان». وبما أنها الأكبر بين إخوتها الثمانية ربّتهم هي. معرفتها في طفولتها لأشدّ أشكال البؤس جعلتها تقرّر لدى نضوجها أن تساعد كلّ من هم بحاجة. زوجها كان مدرّساً أيضاً ومنخرطاً بقوة في نشاطات الحزب الشيوعي. في اليوم الأول من العام الدراسي، لاحظت السيّدة ليبيرفييه رينالدا لدى قيامها بجولة سريعة على الصفوف، وأدركت في الحال ما ينتظر هذه الفتاة الهزيلة ذات العيون الذابلة، وأخذتها تحت حمايتها. يجدر القول أيضاً إنها تذكّرها بأخت صغيرة لها ترقد في المقبرة منذ أن كانت في الرابعة عشرة. صارت تصحبها إلى منزلها ثلاث مرّاتٍ أسبوعياً وتجبرها على تناول اللبن والجبن الطازج من مخصّصات أولادها. تعلّمها دروسها وتشرح لها مسائل الحساب مذهولة من ذكائها. مع ذلك بقي شيءٌ يضايقها: رغم أسئلتها، فإنّ رينالدا لا تتكلّم قطّ لا عن نفسها ولا عما يحصل في منزل جيان كارلو كوبيني. ولا مرّة حكت لها شيئاً يشبه تلك القصص التي تخرج بسهولة من أفواه الأطفال المعدمين حين يشعرون بالثقة. هي نفسها هالها ما سمعت من أخبار سيّئة عن جيان كارلو كوبيني. صحيح أن الناس يُذهلون بالمينا والمجوهرات المنقوشة التي تخرج من تحت أصابعه، لكنه كإنسان كان شيئاً آخر كلّيّاً. يقال إن بخله شديد جدّاً، أضف إلى ذلك عصبيّته وفساده. في زمن مضى وقبل أن تتدخّل الشرطة، كان لديه خليلة زنجية من منطقة «لومورن أكاي»

(*) اسمها Lépervier، وépervier هو الباشق: طائر من الجوارح. [م].

يصرف عليها. خليلة، ربما تلك كلمة مبالغ فيها، إذ إنه لم يكن يغدق على هذه البائسة الفقيرة سوى بالتعنيف! كل مرة تحاول سؤالها: «هل تحظين بمعاملة جيّدة في المنزل؟»، «كيف يعاملك البيض؟ بالأخص ذلك الذي يقال إنه الشيطان نفسه؟». تلتزم الصمت وترجّاها بنظراتها أن تتركها بسلام، تلملم حاجاتها وتتجه نحو الباب وشفتاها ترتجفان متمتمةً اعتذارات. ماذا تريد أن تخفي؟ هل يضربها البخيل كما يفعل مع زوجته وأخواته وبناته، حسبما يقال؟ هل يشغّلها خادمة؟

حين تخرج رينالدا من عند السيّدة ليبيرفييه المقيمة في ضاحية «ألكساندر إيزاك» تكون لابوانت تتحضّر لحلول الليل كالسيّدة غابرييل(*). أضاءت المصابيحُ الأرصفة، وعبق الجوّ برائحة سمك القد المقلي الفوّاحة. فرغت ساحة «لافيكتوار» من الباعة وحمولاتهم، وغدت تضجّ بثرثرة العشّاق المراهقين: العهود الأولى، القبلات الأولى، المداعبات الأولى، والخصامات الأولى خلف أشجار السابليه، التي شهدت أيضاً أنواعاً أخرى من الحروب. حتى لا تقع عينها على هذه المشاهد، ركضت رينالدا ورسمت علامة الصليب على وجهها لدى مرورها بكاتدرائية القديسين بولس وبطرس. عشّشت الوطاويط في الأشجار وفي الشقوق الصخرية. كان القساوسة يتمشّون دائرياً على شرفة منزل الكهنة وهم يقرؤون كتب صلواتهم. رمقتهم بنظرة كراهية. أفليس بسببهم انتهى بها الحال في هذا المكان؟ أليس الأب مونديشيللي من خرج بفكرة أن تعمل نينا لدى عائلة كوبيني؟ هل يعلم أين أوصلهما الاهتمام الذي ادّعاه؟ ابن المهاجر الإيطالي هذا لم ينسَ العِرق الذي ينتمي إليه أجداده، وكان يزور

(*) بائعة هوى. [م].

أركانيا يومياً. يصل إلى شارع «نوزييه» عند الساعة الرابعة تماماً أي بعد انتهاء قيلولة أركانيا. أحياناً، يتوقّف في المتجر لإلقاء التحية على العمّة ليا والعمّة زيتا، لكنه يصعد في أغلب الأحيان إلى الطابق الأول مباشرة. هناك، يجلس بجانب سرير أركانيا ويقرأ لها أخبار الأسقفية كاملة، وهي صحيفة ينشرها صديقه الأسقف في «باس تير». بعد مرور ساعة، تدخل نينا، ودون أن تلتفت نحوه، إذ إنها لم تكن تتحمّله، تضع صينية الشوكولا والحلوى على طاولة الشاي، ثم تعقد منشفة مطرّزة حول رقبة أركانيا. ما الذي يتحدّث عنه الأب مونديشيللي وأركانيا بعد أن يُغلق الباب عليهما؟ هل تحكي أركانيا له عن حظها السيّئ؟ هل تشتكي من زوجها الذي لم يكنّ لها أيّ عاطفة، عن خادمتها المرائية والشاذّة، عن كلّ هذه الحياة التي لا نور فيها والبعيدة عن بلادها؟ أم إنها تسمو فوق هذه السخافات، لأنها قد شرعت التفكير في حياتها بعد الموت؟ كانت الزيارات تنتهي دوماً بصلوات مسبحة يتلوانها معاً.

غالباً ما كان الأب مونديشيللي يصادف رينالدا العائدة إلى المنزل وحقيبتها على ظهرها، ويباركها كل مرة بشيء من الشفقة. ماذا يعلم؟

حين تصل رينالدا إلى المنزل، يخفض جوزيه ستارة المتجر ويحاول فتح حديث معها، إذ كان جاهزاً دائماً لإطلاق الشتائم ضد صاحب العمل وعائلته، لكنها تندفع بكلّ سرعة داخل بيت الدرج. جيان كارلو لم يكن موجوداً هناك. كل يوم في الساعة نفسها يأخذ عكازه ويعلن إنه ذاهب لتنشّق الهواء على الرصيف البحري. يغيب لمدة ساعتين ونصف، ثم يُسمع وقع خطواته على الرصيف. الحق يُقال لم يكن أحد يكترث لمعرفة أين يقضي كل هذا الوقت حقاً. تلك هي لحظات السعادة الوحيدة القصيرة في اليوم

التي يجتاح الأطفال فيها غرفة أركانيا، وتجلس فيها العمّتان ليا وزيتا إلى جانب سريرها، ويشرعون في النميمة والقيل والقال، قصص عن أناس من لابوانت لم تكن تعرفهم حتى، ولكنها تجعل وجنتيها وشفتيها تحمرّ. كنّ يستمعن للقرص الموسيقي نفسه: ماريو لانزا يغني «أو سول ميو». تلتحق رينالدا بالمجموعة لاهثة بعد صعودها الدرج بسرعة، ترمي الحقيبة في إحدى الزوايا وتجعل لنفسها مكاناً بجانب أركانيا. تبعد الأخيرة أطفالها وتضع يدها حولها، وتقول لها بصوت ملائكي: «ماذا فعلت في المدرسة اليوم؟».

لكن ليس لرينالدا أيّ رغبة في الحديث عن المدرسة، عن الحساب والإنشاء بالفرنسية، ولا حتى عن السيّدة ليبيرفييه الطيّبة معها. فتغلق عينيها وتسند خدّها على هذه البشرة الناعمة والرقيقة والزكية. كانت تودّ لو في مقدرتها أن تعود طفلةً صغيرة ترضع ثدياً ينضح حليباً وأن تبقى شَبِعة، غارقة في النعيم والصمت. كانت أركانيا تعلم كلّ شيء ومتأكّدة من ذلك. برقّتها التي لا تخفت أبداً تُفهمها بأنها معها. للأسف! هذا الوقت لم يكن يدوم طويلاً. إذ تدفع نينا، التي انتهت للتوّ من تحضير طعام العشاء، الباب بغضب وتطرد الجميع: «سوف تتعبونها!».

دون أيّ معارضة، تصعد العمّتان ليا وزيتا إلى غرفتهما، ويبدأ الأطفال الكدرون بحلّ وظائفهم. بعد ذلك بقليل، يُسمع صوت خطوات جيان كارلو على الرصيف. في غرفة الطعام، تسكب نينا الحساء في الصحون.

ويكون الظلام الدامس قد حلّ حينئذٍ.

في هذا المشهد القاتم، كان لرينالدا صديقة، فيوريلا، البنت البكر لجيان كارلو وأركانيا، التي تصغرها بعام واحد.

للوهلة الأولى، يظن المرء أن لا شيء يجمع بين رينالدا وفيوريلا. يُجمع الناس على اعتبار فيوريلا أجمل مخلوق على وجه الأرض. حين كانت العمّة ليا والعمّة زيتا تدفعان عربتها عبر ساحة لافيكتوار، كان الفضوليّون يوقفونها ليتأملوا جمال ملامح الطفلة. بعد عدة سنوات، حين بلغت الثالثة، منعها جيان كارلو من النزول إلى المتجر، لأن الزبائن ينشغلون بتأمل جمالها إلى درجة أنهم ينسون القيام بمشترياتهم. في العاشرة من عمرها، صار شعرها المفرود يلفّها كمعطف من المخمل الأسود. عيناها كانتا قطعتين من سماء صافية غسلها المطر. بشرتها شفّافة، زهرية اللون على مستوى الوجنتين. ثغرها يشبه زهرة الخبّازى. بسبب هذه الصفات الحسنة كلّها، كانت راهبات مدرسة «سان جوزيف دو كلوني»، التي درست فيها، يرشّحونها سنة بعد سنة لتمثّل الملاك في احتفالية الخامس عشر من آب. تصعد بخشوعٍ الدرج الذي يلفّ حول مذبح الكاتدرائية مرتديةً قميصاً أبيض طويلاً مع جناحين من اللون نفسه مثبّتين على الظهر، لتضع، ترافقها أناشيد خورس، تاجاً على رأس تمثال العذراء مريم. للسبب نفسه كان المجانين بحبها يتنزّهون أمام «إيل لاغو دي كومو»، ويحاولون إعطاء نينا رسائل إعجابهم. العمّة ليا والعمّة زيتا كانتا تعبدانها، لأنها مع مرور الوقت تزداد شبهاً بالمرحومة أمهما، ولم تستطيعا أن تمنعا نفسيهما من إغراقها بالقبلات كلّ مرة تريانها. حاولت أركانيا دون نجاح أن تخفي عن الأطفال الآخرين تفضيلها لها. حتى جيان كارلو، الذي كان عنيفاً مع فتياته، لم يستطع إلا أن يجلب لها من نزهاته المسائية علبة خرشوف القدس، وقرناً من الكيليبيبي(*) أو الفستق الحلبي المحمّص جيداً، يعطيها إياهما مع ابتسامة خفيفة.

(*) حلوى مصنوعة من دقيق الذرة الحلوة. [م].

كانت فيوريلا على الرغم من ذلك تعيسة، قليلة الكلام، سريعة البكاء لأي سبب. يعود السبب في ذلك إلى أنها عاشت وفاة أخواتها الثلاث الصغيرات، رفيقات لعبها المحبوبات، بفواصل قصيرة بين الواحدة والأخرى. لقد علمت بأن وفاة إيرا، أختها الكبرى قبل سبعة أشهر من ولادتها، قد سبّبت جرحاً في قلب والدتها لا يمكن شفاؤه. بدا لها بسبب ذلك أنها ترعرعت بين الأحزان مثل الأعشاب التي تنمو بين شواهد القبور. أضف إلى ذلك مرض أركانيا، وخضوع عمّتيها، وفساد أبيها، والإهمال الذي يتسم به المنزل. كانت وريناالدا تتشابهان في المزاج، وتعلّقتا الواحدة بالأخرى منذ اليوم الذي فكّت فيه رينالدا تعلّقها بثوب أمها، وكشفت للجميع وجهها المنتفخ ببشاعة. جفّفت فيوريلا دموعها بمنديلها من قماش الباتيست، وصحبتها إلى غرفتها التي تتشاركها مع دوناتيلا وبياتريس. منذ ذلك الحين وهما تتشاركان كل شيء. فيوريلا هي الشخص الوحيد الذي باحت له رينالدا عن الكابوس الذي عاشته ليلةً بعد أخرى. كان غضبهما يتغذّى من إحساسهما بالعجز، فلم تكونا قادرتين على مواجهة جيان كارلو. ليس بمقدورهما سوى اللجوء إلى خيالهما. تتخيّلان بشكلٍ محموم ألف طريقة وطريقة للتخلّص منه. آه، لو أنّ بالإمكان نحره وتعليقه من رجليه فوق وعاء من القصدير مثل الخنازير التي يشبهها، سلخه أو شقّه بالساطور إلى نصفين، وتقطيعه شقفاً. ماذا عن تقديده على نار هادئة؟ سيطلق جلده أزيزاً وفرقعة، ويتشقّق مُخرجاً عصارة كريهة الرائحة. ماذا لو قطعنا رأسه ودفنّاه ركلاً بالأرجل في حفرة مليئة بالقرّاص؟ فيوريلا، البارعة في الرسم، كانت ترسم تخيّلاتهما بالفحم وتحتفظ بها في حقيبة سمّتاها اسماً ميلودرامياً معبّراً: «الجحيم». كتبت الفتيات أيضاً قصصاً قصيرة تتسم بالروح الانتقامية الدموية نفسها.

تبدع رينالدا في هذا المجال، فاقترحت عليها فيوريلا نشر هذه النصوص القصيرة لدى «لاردونوا»، ناشر غوادلوب المصوّرة والأعمال الرابحة في مسابقة «جو فلورو». لكن رينالدا رفضت قطعياً هذه الاقتراحات.

لا ترغب في أن تنفضح مشاعرها أمام الجميع.

لم تكن ماري نويل تخرج من أحلام اليقظة هذه إلا عند دخول ستانلي الغرفة. تسأل نفسها لبرهة من هذا الرجل الذي يملك تلك السلطة على جسدها. كانت على وشك أن تدفعه عنها، ولكن ذاكرتها عادت إليها فأفسحت له مكاناً بجانبها.

.9

لدهشة ماري نويل الكبيرة، تحقّقت مشاريع ستانلي التي ظنّت أنها غير قابلة للتحقيق في المدد التي حدّدها لنفسه. لم تمضِ سنة على عملهم معاً وها هو ذا نادي «ذا فول مون» يرغب في التعاقد مع فريقه الموسيقي «M. N. A». هذا العقد غدا سبباً في تغييرات كبيرة. أولاً، لم ترُق فكرة المنفى في بوسطن لكلٍّ من غاس، عازف البيانو، وفريدي، عازف الترومبون، فرحلا إلى طنجة، إذ هناك على الأقل الشمس مشرقة معظم أيام السنة. لم يلاقِ ستانلي عناءً كبيراً في إيجاد بديلين لهما بسرعة. أماندينو وناندو توءمان ولدا في «كاب فيردي» من أبوين كاريبيين، متشابهان إلى درجة أنه لا يمكن تمييز أحدهما عن الآخر إلا بعد أن يتناول كلّ واحد منهما أداته الموسيقية. ثانياً، في أحد الصباحات، غسل ستانلي فمه بالكحول كعادته وأشعل سيجارة حشيش، وطلب يدها للزواج. لم يكن في هذا الطلب أيّ نفحة رومانسية على الإطلاق. كان قد استعلم عن مشكلات الهجرة إلى الولايات المتحدة، ووجد أن الزواج هو الحلّ الأفضل لتجنّب المشكلات مع الشرطة. وذلك أثار الاضطراب في نفس ماري نويل. فمن عيشها مع ستانلي، تولّد لديها الإحساس بأنهما يتكلّمان لغتين مختلفتين

كاختلاف اليابانية عن اليونانية، وبأنهما يسلكان طريقين سيفترقان عاجلاً أم آجلاً. كانت تنتقل من عمل مؤقّت إلى آخر دون التفكير بمستقبلها. تارة أمينة صندوق في سوبر ماركت، وتارة مراقبة لمنع حصول العراكات بين طلاب الإعدادية أثناء الغداء، وتارة أخرى عاملة في مصنع للأحذية. ويملأ السرور قلبها حين تجني ما يكفي لشراء وجباتها. لا تقرأ شيئاً سوى عناوين الصحف العريضة، ولا تذهب إلى السينما ولا حتى إلى الكنيسة. كانت تنذهل لدى رؤيتها لنفسها في المرآة. أوَجْهُ العجوز هذا وجهها، هي التي لم تبلغ بعد سنّ العشرين؟ أخدودان أفقيان يحيطان بفمها، وجفناها نصف هابطين على عينين ما من بريق أو لون فيهما. أين اختفى الشباب؟ قلّما أحسّت أنها عاشته، وها قد أصبح بعيداً. كل تقسيم من تقاسيم وجهها يحمل علامات الإعياء والفشل. على العكس منها، كان ستانلي يشعّ أملاً بالمستقبل، بغدٍ مشرق يحمل له المجد والثروة. إن لم يكن يلحظ ما يحيطه من بؤس وقذارة في غرفته المفروشة، ولا ملامح صاحب الغرفة المكفهرّة حين يتأخر في دفع الإيجار، ولا تعابير وجوه المستأجرين في الأبنية المجاورة، الحانقين ممن أداروا ظهورهم إلى البوهيمية، فذلك لأنه ليس هنالك في ذهنه من حيّز سوى للتخيّلات. لقد كان فخوراً جداً بألبومه الأول، ويشرح لمن يودّ سماع أغنية «ميلبا» بترفٍ في التفاصيل يشبه الذي يصف فيه المرء ما يراوده في الأحلام.

يقول إن «ميلبا» هو اسم المرأة الأولى التي مارس معها الحب. في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره. حدث ذلك حين ذهب في رحلة مع المدرسة إلى أمستردام. في الوقت الذي كان فيه رفاق صفّه يضيعون وقتهم في متحف «Rijksmuseum»، راح هو يتمشّى في الحارات

المخصصة للكبار حيث نادته بإشارة من يدها، في إحدى الواجهات، عاهرة سوداء كالفحم تعتمر باروكة شقراء، تلبس بيجاما من الساتان الأحمر عليها رسوم «كابالا» على مستوى الثدي الأيسر. استقبلته بين فخذيها دون أن تسخر من بتوليّته. لكن خوفاً من قوّادها الإندونيسي الضخم صاحب الجيوب المحشوّة أسلحة بيضاء، لم تسمح له بالخروج من غرفتها. حين تستقبل الزبائن، كانت تخبئه تحت السرير أو في الخزانة، وهكذا أمضى عدداً من الليالي ثملاً بالحب في هذه الغرفة الضيّقة العابقة برائحة الفراديس. عثرت الشرطة عليه أخيراً وأرسلته إلى لندن. رغم عنوان الأغنية السحري، إلا أن «ميلبا» لم تستحوذ على اهتمام النقّاد، عدا سطرين كُتبا في مجلة شهرية متخصصة. مع ذلك لم يفقد ستانلي الأمل، لقد كان جدّ متأكّد من أن الأمور ستأخذ منحى آخر مع الأسطوانة الثانية التي يحضّرها.

كانت ماري نويل مقتنعة أن أذنها لم تكن موسيقية كفاية لتقدّر هذه الموسيقا التي، بحسب الخبراء، لا تشبه موسيقا أيّ أحد آخر. أرسلت «ميلبا» إلى لودوفيك، لكن ردّه جاء عبارة عن تعليقات لا حماسة فيها لم تُثِرها.

أصاب ماري نويل عذاب ضمير، ولامت نفسها لأنها أساءت الحكم على ستانلي الذي صارت مع مضيّ الوقت تراه غريباً، لا مبالياً، منغلقاً بأنانية بنفسه على موسيقاه. إنه في الواقع يهتمّ لأمرها، بل إنه الشخص الوحيد في العالم من يفعل ذلك وكان يودّ حمايتها. هذه المشاعر بدت لها بالغة التأثير، فقبلت الزواج به وعيناها تدمعان. أمضى ستانلي الليل يرسم مخطّطات للمستقبل. العقد مع «ذا فول مون» سيستمرّ لعدّة أشهر

فقط، لكنه على يقين بأنه سيُجدَّد. وإن لم يتحقق له ذلك، فسيجد عملاً كعازف في نادٍ آخر، ولا سيما أن «نيو بورت» المشهورة بمهرجان الجاز الخاص بها قريبة من بوسطن، كما أن نيويورك و«ذا بلو نوت» وكلّ نوادي قرية الجاز لا يبعدون عنه سوى بضع ساعات. كبحت ماري نويل نفسها عن مقاطعته وعن طرح الأسئلة التي كانت على رأس لسانها، والتي تشبه نداءات استغاثة: «وأنا، ماذا عني؟ أأستعيض عن صحراء نيس بصحراء بوسطن؟». تثاءب ستانلي في منتصف إحدى الجمل. لحسرتها الكبيرة، لم يعد يمارس الحب معها.

تمّت مراسم الزواج بسرعة بعد أسبوعين أو ثلاثة، أي الوقت الذي استغرقه طباعة الإعلان. تتذكّر ماري نويل أن الهواء كان متجمّداً ويندفع من كلّ الاتجاهات، وأن السماء زرقاء ناصعة، زرقة معدنية فوق البحر الذي كان هو أيضاً برّاقاً وكأنه يحتفل معهم بالزفاف. سرعان ما حلَّ محلّ بهجة الأيام السابقة القلقُ المعتاد، علماً أنه في محيطها كانت الوجوه كلّها مبتسمة، كما هي العادة في مناسبات الأعراس السعيدة. لعب الأخضر الحركي، الذي استضافهما مرّات عدّة في الماضي، دور الأخ الكبير بسرور. قدّم اللحم المشوي على حسابه، وعلّق شرائط من مصابيح ملوّنة على جدران «لي نوي دو تلمسان». في وسط طاولة مخصّصة لعشرة أشخاص وُضعت طيور جنة وقلاقيس وزهور من الخزف أرسلتها رانليز وكلير ألتا، فأضافت نفحة غرائبية على الجوّ. ناندو المحترف في العزف على الغيتار أخذ بالعزف، وغنّى أماندو «مورناس»(*). الحنين الذي أثارته هذه الألحان سافر بماري نويل إلى اللحظات اللطيفة النادرة في طفولتها،

(*) نوع غنائي من جمهورية الرأس الأخضر (كاب فيردي)، مرتبط بنوع من الأغاني الشعبية البرتغالية. [م].

التي سمح لها لودوفيك فيها باختيار أسطوانته ليقرأها الإلكتروفون. أهو غريبٌ أنها أصبحت ما هي عليه الآن؟ الحبّ الذي تكنّه لرينالدا، والذي دفنته عميقاً في نفسها لأنه لا يصلح لشيء، ترك في قلبها مكاناً صخرياً قاحلاً. بسبب رينالدا لم يكن لديها رغبة في شيء أو في أحد، وأخذت تنحرف على غير هدى في حياتها. لقد أملت بأن يشفيها ستانلي، لكنه كان طبيباً فاشلاً. بكلّ الأحوال، ألمها ليس منه براء.

أخذت تتساءل وهي جالسة بين أراكسي وليلى اللتين حضرتا بإذنٍ استثنائي، لِمَ ظلّت السعادة شيئاً لم تستطع الحصول عليه قطّ؟ في اليوم التالي توجّب عليها الذهاب بالقطار إلى باريس، من أجل السفر بالطائرة إلى بوسطن. استغلّت هذه الفرصة كي تودّع من يشكّلون عائلتها. فضّل ستانلي عدم مرافقتها، فكلمة عائلة تثير ذعره، هو الذي ترك خلفه أباه وأمه وإخوته وأخواته.

مضت سنوات أربع لم ترَهم فيها. رينالدا. لودوفيك، غارفي. غارفي الذي الآن على وشك أن يصبح في العاشرة من عمره. في الحقيقة فكّرت برينالدا على وجه الخصوص. كيف أصبحت هيئتها الآن؟ ذابلة، متقدّمة في العمر هي أيضاً؟ لا شكّ في أنها ستتحاشى أن تنظر مباشرة في عينيها. ستتكلّم إليها بفتور. هي أيضاً ستكون مرتبكة بشدّة في حضورها. فكّرت ماري نويل بلودوفيك، متخيّلةً خيبة الأمل التي ستسبّبها تصرّفاتها له، لكن لم تكن لديها الجرأة في أن تصارح نفسها بما كانت تنتظر منه.

نحو العصر، حشر الجميع أنفسهم في سيارة استُؤجِرت لهذه المناسبة لتوصيل أراكسي وليلى إلى بوّابة المصحّ. خلف قضبان السور ما زالت الأشجار تنتصب بثبات واستقامة. المريضات في أسرّتهن على

التّراس، يستنشقن الهواء ملء الرئتين لعلّهن يتطهّرن من المرض. لامت ليلى وأراكسي ماري نويل لعدم زيارتهما. أدركت الآن أنها لا ترغب في إفساد ذكريات أسعد أوقات حياتها. حين كان المستقبل يتلخّص بمنحنى درجات حرارتها. إن بكت ماري نويل دموعاً حارّة لحظة الوداع، فإن ذلك ليس للأسباب نفسها التي دفعت صديقاتها إلى البكاء. ليلى وأراكسي بكتا على انتهاء صداقتهن، وأنهما لن ترياها مجدداً بالتأكيد. أما هي فقد بكت على نفسها وعلى الشكل الذي سيأخذه مستقبلها.

لتأخير لحظة اللقاء برينالدا، أخذت ماري نويل تتسكّع في باريس. هي لم تكن تعرف المدينة جيّداً بكلّ الأحوال. لقد جاءت إليها مع نتاشا وآوا خلال ذلك الصيف الذي لا يُنسى، وأحياناً مع لودوفيك الذي اعتاد منذ سنوات أن يشتري أسطواناته من البائع نفسه في الحيّ اللاتيني. نزلت مع ستانلي في فندق رخيص على الضفة اليسرى من نهر السين. شغلوا غرفة ضيّقة كممرّ تخلو من الرونق ووسائل الراحة، لكن نافذتها مطلّة على كاتدرائية «نوتر دام» وأرصفة نهر السين. على الرغم من السماء الملبّدة والريح القوية، كان السيّاح يستمتعون بوقتهم في القوارب السياحية المزجّجة كأحواض السمك. الحياة للبعض هي هكذا: تسكّع على المياه في مدينة أحلام.

بدا الناس لها حين خرجت جميلي الهندام ومصفّفي الشعر. بدت النساء أنيقات وواثقات. أزواج يتأملون واجهات المحالّ، يشترون الكتب والجرائد والحلوى، يمشون كيفما اتفق، ويتوقّفون لتبادل القبلات. في الوقت نفسه، فإنّ من اختارته لنفسها زوجاً ينام متدثّراً بغطاء مصنوع من قطن رديء النوعية. ينام هكذا لساعات وساعات، أصمّ وغير مبالٍ

لنداءات النهار. ينتهي الأمر به أن يفتح عيونه ويملأ معدته بكأسين أو ثلاث من الكحول، ثم، من دون أن يهتمّ لمعرفة ماذا كانت زوجته فاعلة، يختفي حتى الصباح مع الموسيقيين الآخرين. دخلت إلى مقهى لتشعر بحرارة الناس الآخرين فقط، طلبت كرواسانة وشاياً بالحليب، أشعلت سيجارة وشرعت تقرأ الصحيفة كي تقلّدهم. اقترب من طاولتها رجلٌ أشيب وأصلع يلبس بزّةً أكبر من مقاسه. إن الطيور على أشكالها تقع: لم يكن ينجذب إليها سوى المعاتيه. قبل الظهيرة بقليل، قرّرت أن تركب الباص، ذلك الباص الذي يشبه يرقة خضراء تزحف على طول الشوارع. كان الطلاب يخرجون من السوربون ويتجهون نحو المقاهي والمطاعم الجامعية. في «فينس» أجمع الأساتذة على أنها موهوبة. هي أيضاً بإمكانها أن تحصل على غرار هؤلاء الشباب على إجازة في الآداب الكلاسيكية أو الحديثة، أو في التاريخ. بإمكانها كتابة مقالات وكتابة كتاب ونشره، أن تصبح كاتبة. لِمَ لا؟

رينالدا لم تعد تعمل مساعدة اجتماعية في «سافيني سور أورج»، انتقلت للعمل في باريس منذ سنتين لحساب منظّمة لا تعلم عنها أي شيء. هذه المعلومات المجرّدة التي زوّدها بها لودوفيك تحقّقت على أرض الواقع حين وجدت نفسها واقفة أمام مبنى جديد جداً في الدائرة الثالثة عشرة من المدينة، فيه أنترفون وقاعة استقبال مزيّنة بمنحوتات حديثة ومصعد سريع صامت. أدركت عندئذٍ والدهشة تعتريها التطوّر الذي حققته أمها. في حين راحت هي تغوص نحو قاع المجتمع، تلك التي وهبتها الحياة كانت في طور الصعود نحو الشمس. فتح غارفي الباب لدى وصولها إلى الطابق العاشر. لقد تغيّر غارفي كثيراً. أصبح مربوعاً وبطولها

نفسه تقريباً علماً بأنها ليست طويلة جدّاً. للوهلة الأولى، لم يكن من شيء يميّزه عن المشاكسين الصغار الذين في سنّه سوى شعره الكثيف. وبما أن شعره لم يزره مشط، فلقد أصبح مثل شريط من الدانتيل أجعد وغير منتظم فوق جبهته. كانت عيناه البنّيتان الصافيتان فضوليّتين أكثر منهما ودّيتين. لم يقترب ليقبّلها إلا بعد تردّد واضح. لحسن الحظ كان لودوفيك في المنزل. إضافةً إلى شعره، أطلق لودوفيك لحيته أيضاً وشاربيه، وفي وسط هذه الكثافة الشعرية غير المرتّبة يبتسم فمه ابتسامة مشرقة. جذب ماري نويل إلى صدره، وعند سندها لرأسها على كتفه أحسّت بفرط عاطفي جعلها على وشك الانهيار باكية. في الوقت الذي تحاول أن تسيطر على نفسها، أغرقها هو بمعاتبات ودّية عن كلّ تلك السنوات التي لم تتواصل فيها معهم. ستانلي الذي يختبئ عنهم، أين هو؟ بودّه أن ينظر مباشرة في عينيه ويطرح أسئلته على هذا الموسيقي الذي أخذها بعيداً. بوسطن، إنها عاصمة الشتاء والأحكام المسبقة، ستختبر ذلك بنفسها قريباً. جفّفت دموعها ودافعت عن نفسها قدر استطاعتها. رغم بشاشتها الظاهرة إلا أنها شعرت بأن سعادتها بلقائه مهدّدة. يكفي أن تحضر رينالدا حتى ينهار هذا النعيم. كانت غرفة الجلوس مفروشة بشكلٍ رديء من حولها، المائدة عبارة عن لوح موضوع على منصب خشبيّ. يبدو أن رينالدا ولودوفيك لا يهتمان بالراحة والأناقة أكثر مما كانا في الماضي على الرغم من هذا الصعود الطبقي. لا يختلف الأثاث البتّة عما كان في «سافيني سور أورج»، الأشياء القديمة اختلطت بالحديثة، وكانت تتعرّف عليها مثل وجوه مألوفة وسط جمهرة غريبة.

جاءت رينالدا أخيراً، ولاحظت ماري نويل بالحال شكل بطنها

المتكوّر. إنها حامل في الشهر الثامن على الأقل نظراً لحجم الكرة التي تدفعها أمامها. أصاب ماري نويل غثيانٌ شديد، وتذكّرت رسالة تحدّث فيها لودوفيك عن مفاجأة. أهذه هي المفاجأة؟ إنها لمفاجأة بذيئة، مفاجأة مؤلمة! هذا الحمل الذي يمكن اعتباره إنجازاً لا يتحقّق إلا في حياة جنسية هانئة هو بمنزلة إهانة كبيرة بالنسبة لها. لقد كانت مستبعدة من نطاق العائلة، وهذا الطفل الذي على وشك الولادة سيشغل الحيّز الذي لن تستطيع هي ملأه أبداً. الأنكى من ذلك أنه جعلها تعي حجم الحرمان العاطفي الذي تعيشه. هي من يجب أن تتباهى ببطنها، وأن تبحث عن اسم للمعمودية، وأن تغيظ رينالدا بحيويتها وخصوبة شبابها! عوضاً عن ذلك، فإنها تقف هنا، هرمة رغم شبابها، سيّئة الملبس، تنتعل حذاءً مهترئ الكعبين لكثرة استعماله. لمست رينالدا وجهها لمسةً خفيفة، دون أيّ لهفة زائدة عما كانت تظهره في السابق، كما لو أنهما افترقتا البارحة وليس منذ أربعة أعوام طويلة، ثم جلست قبالتها. باستثناء بطنها المتكوّر فإنها قد نحفت وبدا عليها التعب. عروقها البارزة تجول وتنعقد عند يديها ورقبتها. صفّفت شعرها على الطريقة الإفريقية، الموضة الجديدة التي تكشف الجبهة وتقاسيم الوجه، الأمر الذي أضفى على وجهها ملامح طفولية تقريباً. مرّةً أخرى أيضاً، لم تستطع ماري نويل أن تقرّر ما إن كانت جميلة أو بشعة. في هذا الوقت فإنّ لودوفيك تكلّم عن شخصين: ليس سعيداً في باريس، وهو يشتاق إلى الجنّح الذين كان يعمل معهم.

«مونتو» كانت بائسة. شباب جمعية «دوميان» التي يعمل لديها، لا يهتمّون بشيء سوى الفتيات والتفاخر. ليس لديهم أيُّ مشروعٍ جدّيّ. يتثاءبون لسماع كلمات مثل الماركسية أو الثورة. يهتمّون بستيفي وندر

أو مارفن غاي أكثر بكثير من إفريقيا وكوبا وفيديل كاسترو وسيكو توريه. يعشقون موسيقا فيلا رانسوم كوتي، ولكنهم لا يتكلّفون عناء ترجمة كلمات أغانيها. أخذ لودوفيك يشجّع غارفي وريناللدا على المشاركة في الحديث كما لو كانا طفلين انطوائيين. الأول لم يكن يهتمّ لشيء آخر سوى برنامج تلفزيوني يشاهده، أما رينالدا فراحت تفتح فاها من وقتٍ إلى آخر متلفّظة بكلمات أحادية المقطع أو جمل مختصرة جداً، كما لو أنّ ما يقال ليس بذي أهمية تُذكر. هي أيضاً تتحسّر على «سافيني سور أورج». لم يتغيّر عملها فعلياً، إذ ما زالت تهتم بالنساء من الأوساط الاجتماعية المحرومة. الاختلاف الوحيد هو أنها أصبحت تجري الآن تحقيقات وتكتب تقارير لحساب وزارة السكّان. ماذا تنفع هذه التحقيقات والتقارير؟ لا شيء سوى إعطاء نوع من راحة الضمير للمسؤولين المموّلين لهذه الأبحاث. نحو منتصف بعد الظهر، أعلن غارفي الذي جلس أمام التلفاز من جديد إنه سيذهب للانضمام إلى رفاقه، وخرج دون أن يودّع أحداً. بعد قليل، استأذن لودوفيك هو الآخر. من الواضح أنه يريد أن يفسح المجال للأم وابنتها للحديث وحدهما، الأمر الذي خشيت ماري نويل حصوله منذ الصباح. ساد صمتٌ ثقيل لعدة لحظات. الشمس التي دخلت غرفة الجلوس سخّنت الغرفة قبل أن تختفي. من خلال الباب الزجاجي العريض بالإمكان ملاحظة الأردواز الرمادي والقرميد الزهري الذي تتشكّل منه أسقف باريس. بالإمكان القول إن رينالدا قد غافلها النوم، فرأسها مائل إلى الوراء وهي مسترخية كليّاً بين وسائد الأريكة. فكّرت ماري نويل أنه بإمكانها أن تقف وتنسحب بهدوء نحو باب الشقة حين، فجأة، قالت رينالدا دون أن تفتح عينيها أو تتحرّك: «لم أكن أرغب بهذا الحمل. إنه

لودوفيك. أنا لست بأمّ جيّدة، ما من شكّ أنك تعلمين ذلك. لهذا السبب أنت غير سعيدة وغارفي أيضاً. تظنّان أني لا أهتمّ لأمركما، أليس كذلك؟ أنتما مخطئان. لا يمكنني أن أمنحكما ما لم أتلقّاه أنا نفسي. أتذكرين اليوم الذي بدأت أروي لك قصتي؟ لم تكن لي القوة أن أصل إلى الخواتيم، فالكلام يمزّق حنجرتي. سأحاول المتابعة دون أن أدخل في التفاصيل حتى لا تظني أني أبالغ. الحقيقة هي كل ما أنا قادرة على منحك إياها، أملاً في أن تستوعبي، وبهذه الطريقة، تبدئين عيش حياتك».

.10

لقد قال لودوفيك الحقيقة: بوسطن هي عاصمة الشتاء. حين وصل ستانلي وماري نويل إليها في منتصف شهر كانون الثاني، كان الثلج المتساقط منذ أسابيع قد تراكم في الساحات وعلى أطراف الطرقات، وشكّل منحدراتٍ سوداء كالسخام. أغصان الأشجار تلمع بسبب طبقة الجليد التي تغلّفها، والمتزلجون يرسمون أشكال أرابيسك بزلاجاتهم على وجه النهر المتجمّد. في كلّ ساعة من النهار أو الليل، تجول الرياح كوحش ينفث أنفاسه المتجمّدة ويبتلع كل ما يصادف في طريقه. نشرات الأخبار والجرائد لا تعلن إلا عن المدارس المغلقة والقطارات الخارجة عن مساراتها والرحلات الجوية الملغاة في المطارات. لم يكن «ذا فول مون» أكبر من منديل جيب، لكنه كان مشهوراً. أيام عطلة نهاية الأسبوع، يصطفّ الروّاد في طابور يصل إلى الشارع الثالث بعده. مديراه، لويس وليو، من المثليين، أحدهما يتنقّل باستخدام كرسيّ متحرّك. لكن لم يكن أحدٌ يشفق عليه لأنه هو من يدير الأمور المالية، وكان شرساً في إدارته. نتيجة لتحفّظات كثيرة أبداها، استطاع أن يدفع لستانلي وموسيقييه أقل من نصف ما اتفقوا عليه. الأمر الذي دفع بجيري، عازف غيتار الباص النحيل

الذي يتماهى مع آلته ولا يعبّر إلا من خلال صوتها، أن يقرّر العودة إلى أوروبا. لم يسبّب ذلك ضيقاً كبيراً لستانلي الذي استطاع أن يجد من يحلّ محلّه خلال ثمانية أيام. بوسطن ليست فقط عاصمة الشتاء، بل هي أيضاً عاصمة الموسيقا، إذ يتخرّج في مدارسها العديدة موسيقيون أكثر مما تنتج أفرانها خبزاً. تيري الذي استطاع ستانلي العثور عليه في أحد نوادي كامبريدج وُلد في «ليوغان»، لكنه غادر هاييتي منذ كان رضيعاً في حضن أمه الترحة قبل أن يتعلّم الكريولية أو الفرنسية. لا يتكلّم سوى الأميركية وباللكنة الثقيلة الخاصة ببروكلين حيث أنشأته أمه وعمّاته الثلاث. على عكس ستانلي الذي يشرب دون أن يثمل كلّ أنواع الكحول، لم يكن هو يشرب أو يدخّن. بدا زير نساء وغازل ماري نويل مباشرة مما أثار دهشتها العارمة، فقد مضى وقتٌ طويل منذ أن رغب بها رجل! آخر اتصال جنسي جرى بينها وبين ستانلي يعود إلى فترة وجودهما في باريس. كان ذلك صباحاً عند عودته إلى المنزل. وجدها ملتوية على نفسها في السرير تبكي بسبب لقائها مع رينالدا، فلم يجد من وسيلة أخرى لإراحتها من عذابها سوى الجنس.

بما أن ستانلي لا يتمتّع بأيّ موهبة إدارية، تولّى أماندينو، عازف الترومبون، مهام مسؤول الفرقة المالي. استأجر شقّةً مريحة تبعد مسافة قليلة عن النادي، كي لا يستطيع لا الثلج ولا البرد ولا الجليد ولا المطر المتجمّد منعهم من التوجّه إلى عملهم. للأسف، بعد دفع الإيجار لم يتبقَّ لهم ما يكفي لشراء الطعام أو للتدفئة. لكنّ البرد كان قادراً على النفوذ عبر جدران القرميد إلى درجة أن الآلات الموسيقية صارت تفقد دوزانها وحدها، وقد احتاجوا إلى أن يلفّوا أنفسهم بالجرائد تحت ملابسهم حتى يحافظوا على دفء أجسادهم. لذلك استأجر أماندينو منزلاً في «كامدن

تاون». منزلٌ ضخم، يتألّف من طابقين وسقيفة وقبو، مجموع غرفه يصل إلى الخمس عشرة. بالإمكان العيش والتدرّب فيه بكلّ أريحية، لكن «كامدن تاون» بعيدة وذات سمعة سيّئة. وهي من الخطورة بمكان أن رجال الشرطة لا يدخلونها إلا اثنين اثنين، ودوماً بعد الساعة التاسعة ليلاً. في البداية، حين تبقى وحيدة في المنزل، بعد أن يذهب الموسيقيّون إلى «ذا فول مون»، حين تضيء أضواءُ الشارع صحراءَ الثلج المحيطة، تقفل ماري نويل على نفسها وتقيم المتاريس، وتجفل لأضعف صوت تسمعه. فكّرت أيضاً في إخفاء سلاح أبيض حادّ أو سلاح ناري مذخّر تحت مخدّتها، فقد خُيِّل لها أن الحيوانات المفترسة سوف تدخل عنوة رغم الأبواب والنوافذ المغلقة وتلتهمها حيّة. انتهى الأمر بها في هذا الكابوس أن تذكّرت أمها رينالدا التي هي أيضاً كانت تنتظر في الخوف، وتترقّب في الليل، وتتخيّل العنف والجريمة. نفحات الحنان هذه تثير دموعها، وتدفعها للنهوض إلى طاولتها لتكتب رسائل لا ترسلها. كانت واثقة أنه حتى لو وصلت إلى رينالدا، فلن يكون لها تأثيرٌ يذكر. لا شيء يمكن له أن يتغيّر بينهما، فالحب شيء يتعلّمه المرء منذ الولادة وعادات القلب لا تتغيّر. لكنها لاحظت مع مرور الوقت أنه في «كامدن تاون» لم يكن العنف خبط عشواء. إذ إنه يضرب بعض الأشخاص ممن يقودون سيارات «لينكولن كونتيننتال» ذات الشبابيك الظليلة، والذين يعملون بتجارتهم غير المشروعة في حانات محرّمة على البلديين. أولئك من يُعثر على جثثهم المتيبّسة على تقاطعات الطرق وفي الأراضي المهجورة. «كامدن تاون» تشبه «سافيني سور أورج» من ناحية أنه يمكن التعلّق بها. كانت مسكونة من أميركيين إفريقيين، ومن أفارقة، ومن مهاجرين أتوا من كلّ جزر البحر الكاريبي ومن بلدان أميركا اللاتينية، أناس يعملون ويحترمون القوانين، ولكن فقرهم الشديد جعل

منهم مشبوهين دوماً. في المحالّ، يتخاطب الناس إما بالإسبانية وإما بكريولية هاييتي. في منتصف الشتاء، تمتلئ واجهات المحال بالأفوكادو وموز الهند والبابايا والفلفل. في وقت الغداء تقدّم المطاعم القذرة لحم الخنزير مع الرز والبازلاء.

لم تعد ماري نويل تذكر متى بدأت ممارسة الجنس مع تيري. لا بدّ أن ذلك حصل سريعاً، فلقد رغبت هي برغبته لها منذ اليوم الأول. لم يخفيا ذلك. حين يعود من «ذا فول مون»، ينضمّ إليها في الغرفة التي من المفروض أنها مخصّصة لها ولستانلي، الذي لا يدخلها البتّة، مفضّلاً عليها النزول إلى القبو ليعزف الساكسفون المكتوم، وينام في إحدى الزوايا دون أن يخلع ملابسه. تيري يذكّرها بلودوفيك. وجهه الصبوح يتناقض ووجه ستانلي الغريب والآخذ بالانغلاق. طويل البنية وجسده خالٍ من التضاريس كما لو كان مراهقاً نما بسرعة كبيرة بعد تعافيه من مرض أصابه. تتركّز قوّته في مكان واحد، وأثناء الجنس يفقد أسلوبه المؤدّب الخاص بذلك الصبي الذي ربّته بكلّ حنانٍ أربعُ نساء. ليلة بعد ليلة، تتمنّى ماري نويل له، والرعشة تتملّك جسدها، أن يتغيّر. كان يقرع بابها بلطف، يخلع ملابسه ببهجة وهو يحكي لها طرائف العمل: القاعة كانت ممتلئة، ستانلي أدّى ارتجالاً خارجاً عن المألوف، دفع الحضور للنهوض والتصفيق له. ثم، من دون تمهيد، يرمي بنفسه عليها كما لو أنه واحدٌ من هذه المخلوقات المفترسة التي تخشاها. قبل أن تغرق في النوم، تفكّر مجدّداً بريناالدا، لكن يبدو لها الآن أن متعتها قد خانتها. مع أن هذا الزنى لم يكن يسبّب أي مأساة إلا أنه يعذّبها. ماذا شَعرَ ستانلي؟ لا شيء قد تغيّر في ما يبدو. لم يبدّل أسلوبه مع تيري، وما زال يفضّله على ناندو وأمانديو وباشيكو، عازف الطبل. ينصت إليه، ويأخذ ما يقوله في عين الاعتبار، ويمضي ساعاتٍ معه

في الارتجال. كما أنه لم يتغيّر معها حتى. يحدث أن يلاحظ أنها موجودة، وأن يسألها إذا كانت تشعر بالبرد، أو تودّ الخروج. كما أنه طلب لها عشرين وردة يوم عيد ميلادها العشرين. حين لا يعزف في «ذا فول مون» أو لا يتدرّب في قبو المنزل أو لا يلعب الورق ويأكل مع أصدقائه، في الأوقات القليلة التي يكون متوفّراً فيها، تلك التي يستحمّ فيها بنشاط كجاموس نهر في الحمّام، كانت تدخل وتنظر إلى عضلات جسده الذي يشبه جسد ملاكم يلبس برنصاً مهدّباً أو عارياً تماماً، ولكن لا يبدي أيّ رغبة تجاهها. تراقبه وهو يقصّ أظافره وشعر منخريه. كان يشرع في التخطيط للمستقبل دون أن يتيح لها المشاركة بكلمة واحدة. على ضوء سمعتهم الجيّدة التي عبرت البحار، دُعي فريق «M.N.A» إلى مهرجان جاز «سانتو دومينغو». ستكون تلك المرة الأولى التي ستطأ فيها أقدامهم جزر الأنتيل. كانوا ينوون الذهاب إلى «سانجر غراند» التي تعود إليها أصول عائلته. في صغره، حكت له أمه ذات الأصول الهندية عن دين «شانغو». ما هي الموسيقا التي يعزفون في المعابد هناك؟ سيذهب أيضاً إلى كوبا لاكتشاف الموسيقا الآفروكوبية، تلك التي سحرت أباه في شبابه. منذ أن وصل إلى بوسطن وفكرة تأليف سيمفونية يسمّيها العالم الجديد لا تبرح مخيّلته. كان يحلم بترجمة مساهمات المهاجرين الذين هم وحدهم قادرون على تجديد دم أميركا العجوز والصقع. لولا جرأة الأميركين الجنوبيين والمكسيكيين والكوبيين والهايتيين الذي تحدّوا الموت على الحدود أو في مراكب مهترئة تعبر البحر، لماتت أميركا بسبب اجترارها المتكرّر لهذا الخليط العفن من مخاوفها وكراهيتها. تستمع ماري نويل له بإعجاب. خجلة لعدم امتلاكها أحلاماً بتلك الضخامة، ولمحدودية أفكارها المبتذلة. كما في «نيس»، البحث عن عمل أجبرها على مواجهة الخارج. كانت تضطرّ

إلى المشي في الثلج بحذائها الخفيف جداً، والتزحلق على الجليد والتعثّر حتى الوصول إلى مطعم «لا روزيتا» البورتوريكي حيث وجدت عملاً: نادلة. أحبّها الناس دون عناء يذكر، لأنها تعلّمت التحدّث ببضع كلمات إسبانية، والصفع دون خشونة على أيدي الرجال غير المؤدبة. لكنها تظن في قرارة نفسها بأنها مذنبة. أمِن أجل عيش حياة كهذه حاربت رينالدا في حياتها بكلّ شجاعة؟ بدا لها أنها سلكت الطريق الذي رفضته لها أمها، أنها غدت كنينا، جدّتها، التي لم تعرف أن تعمل شيئاً سوى المباعدة بين فخذيها ومضاجعة الرجال والحصول على راتب بائس. ماذا أصبح حال نينا؟ لكثرة ما تكرهها وتنقم عليها، لم تسأل رينالدا عنها بتاتاً. لا بدّ أنها ما زالت حيّةً ترزق فهي لم تتجاوز الستين بعد. هل ما زالت تستأجر لدى عائلة جيان كارلو كوبيني؟ هل عادت إلى ديزيراد لأنها قد تقدّمت في السن؟ تتخيّل ماري نويل جسدها المتصلّب بسبب الأوجاع، الملفوف بدثار من القطن الباهت، وشعرها الأبيض المصفّف ككعكة، وهي تجلس أمام منزلها تنتظر إشارة أو غفراناً. تخالجها الرغبة أحياناً في الطلب إلى رانليز أن تجدها، ثم تقول لنفسها إن هذا لن يفيد بشيء. لو عادت إلى غوادلوب سيعود بها الزمن. في أحد الأيام، في موقف الباص، لحظت إعلاناً يفيد بأن أمّاً عزباء تبحث عن فتاة شابة، لتهتم بابنتها ذات الأعوام الخمسة ولتعلّمها الفرنسية براتب ممتاز.

أنثيا جاكسون تقطن حيّاً أفضل سمعة في «كامدن تاون»، في منزل كانت توضع صورته على البطاقات البريدية قبل ثلاثين عاماً. المنزل الذي بناه جدّاها، إيرل ونيلا، القادمان من ولاية ألاباما، بأيديهما. بنى جدّاها ثروتهما من خلال العمل في مراسم دفن الموتى. كانت شركتهم أول

شركة في المنطقة يملكها أفراد من ذوي البشرة السوداء. لقد كانوا يعرفون كيف يعطون للموتى لون البشرة التي ودّوا التمتّع بها خلال حياتهم، وكانوا يختارون مقاطع الأناجيل بكلّ تقوى، من أجل أن تُغنّى بكلّ حرارة من قبل جوقات ترتدي اللباس الكنسي البنفسجي والأبيض. كانوا يضيفون ترتيلة الموتى التي ألّفها بيرليوز إلى المراسم، حين تكون مراسم درجة أولى. ربّى إيرل ونيلا ابنهما الوحيد، كورنيل، كما لو أنه يتحدّر من أصول ملكية، وجّها اهتماماته نحو الدراسات الحقوقية، وجعلا منه أول محامٍ أسود يفتح مكتب محاماة في بوسطن. كان كورنيل سعيداً بحياته وبزبائنه وبسيّارته الكاديلاك وبزوجته ذات البشرة الفاتحة، إلا أنه تحسّر على شيء واحد: لم يستطع التوقّف عن التفكير في أسوار هارفارد الرائعة التي لم يستطع الدراسة فيها، ولم يكن يفتأ يحثّ ابنته أنثيا على أن تحصل على قبول هناك بعد إنهائها للبكالوريوس في جامعة يال. أنثيا لا تحب أن يجري تذكيرها بأنها بدأت مهنتها الأكاديمية بكتابة أطروحة دكتوراه حول روايات جين أوستن. كان ذلك خطأ شبابها الذي عادت وكفّرت عنه بأن أصبحت أفضل مختصّة بروايات النساء العبيد في بداية القرن التاسع عشر. كما أنها كتبت بغزارة عن نيلا لارسن وزورا نيال هورسون، وعُرِفَت بأنها أكثر الكاتبات النسويات حدّة على الشاطئ الشرقي للولايات المتحدة. لم يُكتب الاستمرار لزواجها من المحامي المتخرّج في هارفارد هو أيضاً، وقرّرت العودة للسكن في «كامدن تاون». لقد كان ذلك قراراً سياسياً في الوقت الذي صار الأميركيون الإفريقيون البرجوازيون يهجرون فيه أحياء السود كما فعل أهاليهم عام 1920، حين هجروا حقول القطن في جنوب البلاد. استغلّت أنثيا وجودها للتدريس في جامعة «كوماسي» لتتبنّى طفلة صغيرة اسمها مولارا. بالطبع، لم تتوانَ ألسنة السوء عن القول إن مولارا هي ابنتها

الطبيعية، وإنها قد حملت بها أثناء وجودها في إفريقيا. لكن احتمال ذلك ضئيل، فمولارا سوداء بقدر ما بشرة أمها بالتبنّي فاتحة، وقصيرة بقدر ما أمها طويلة، فضلاً عن ملامح وجهها التي تشبه قناع «أشانتي»(*). ما الفرق إن كانت طفلتها الطبيعية أو المتبنّاة؟ أنهت مولارا إجازة طويلة مع أمها في فرنسا وغدت تتكلّم بلكنة باريسية.

لم تكن هيئة أنثيا مألوفة كثيراً، فهي تقصّ شعرها كالرجال، وتلبس أطواقاً تغطي كامل قفصها الصدري، وحلقاً ثقيلاً جدّاً حتى امتطّت شحمتا أذنيها، وتلبس تحت معاطفها ملابس ذات أشكال غير مألوفة، مفصّلة تبعاً للأشكال التي ترسمها على الأقمشة الإفريقية. يقال إنها كانت تثير الرعب في صفوف طلابها، ولا أحد يجرؤ طوال حصصها أن يخالفها الرأي. مع ذلك، إن لم يقف المرء طويلاً عند هذه التفاصيل الصغيرة، فسيلاحظ أن تحت هذه المظاهر ينبض قلب شخص حسّاس أو ضعيف حتى، ولن يمضي وقتٌ طويل قبل أن تفصح له عن التعاسة التي تلفّ حياتها: طفولتها التي أطّرها لها أبوها المتغطرس، زواجها من رجل غاشم بلا مشاعر، علاقاتها العاطفية العديدة مع رجال لم يكن في بالهم سوى تدميرها. لم تكن حالياً ترغب بشيء، كما لو أنها هندوسية وصلت إلى نهاية حلقة ولاداتها المتجددة. لقد حدّدت لنفسها هدفين تحقّقهما في ما تبقّى لها من حياة: تربية ابنتها، الصغيرة مولارا، والرفع بعملها من قيمة العِرق الذي تنتمي إليه. بشكلٍ ما، كان هذان الهدفان متماثلين بالنسبة لها. انتزعت مولارا من حضن والد ووالدة لا مباليين يرتعان في الخمول في إحدى العشوائيات الإفريقية، وأنشأتها على الأناقة والفضيلة، لدرجة أن الكل

(*) أشانتي: مجموعة عرقية تشكّل الأغلبية في غانا. [م].

ينحني أمامها احتراماً لكمالها الأسود. هذا المزيج المدهش من الضعف والقوة ذكّر ماري نويل برينالدا، وهو السبب في تعلّقها بأنثيا. أفصحت عما يجول في داخلها، الأمر الذي لم يكن يحدث إلا نادراً. بتوالي الأحاديث مع أنثيا والإجابة عن أسئلتها، حلّت على طريقتها أحجية حياتها الغامضة. ظنّت بأنها تعرف الظروف التي رافقت ولادتها. مثل كل أطفال الأرض، لديها والد تعرف كيف تقول اسمه. هل هذا الأخير يتعذّب؟ ونينا؟ بماذا شعرت نينا؟ بالخوف؟ بالندم؟

ظنّت أنها حزرت ما حصل.

ليلة اختفاء رينالدا، هرعت فيوريلا تبحث عنها في كل زاوية من زوايا شوارع لابوانت. حتى إنها غامرت بالذهاب إلى الأحياء سيئة السمعة. كان السكارى يخرجون إلى عتبات حانات «لاريجي» ويرونها تركض بسرعة طائرة ورقية تعبر فوق الأرصفة، ويتبادلون التعليقات حول سرعتها. الحقيقة أنها كانت تعدو أسرع من قارب «سانتوا» في البحر يوم 15 آب(*). لدى عودتها خالية الوفاض باكية، اقترحت العمّة ليا والعمّة زيتا اللتان كانتا تنتظران إخطار الشرطة، ولكن الخوف منعهن، فمن يعلم كمية الغسيل الوسخ الذي سيُكتشف في خزائن هذا المنزل. لم تقرّرا إخبار قسم الشرطة إلا بعد مرور فترة من الوقت. تخلّص رجال الشرطة بسرعة منهما، ولكنهم أبقوا على نينا لاستجوابها وأخذ إفادتها. بالنظر إلى ملامح وجهها المكفهرّة، لا عجب في أن بنتها هربت دون أمل في أن تعود. حين مرّت الأيام وبات من المؤكّد أن رينالدا لن تعود، أصاب ضعفٌ شديد أركانيا زاد من وهنها. هل كانت متيقّنة بأن جيان كارلو كان وراء هذه البلية؟ فاتحت

(*) يُحتفل في 15 آب من كل عام بانتصار القوات البحرية الفرنسية على الإنجليز عام 1666. وتشكّل سباقات القوارب جزءاً من الاحتفالات. [م].

الأب مونديشيلي بالكرب الذي أصابها، لكن ما كان منه إلا أن هزّ كتفيه غير مبالٍ، فما المغزى من أن تتعذّب من أجل فاحشة صغيرة مثلها. إنه متأكّد، من النظر إلى وجهها العابس دوماً، من أنها لم تكن سعيدة في منزل تسوده الأخلاق المسيحية. لا بدّ أنها الآن تضاجع زنجياً سيّئاً بدرجة سوئها.

تدهورت صحة أركانيا بشكلٍ أكبر، وأصبحت لا تفارق سريرها. باتت لا تستطيع الحفاظ على الطعام الذي تتناول. اشتعلت حرارة شديدة في جسدها أودت بحياتها في أحد صباحات شهر أيلول، على الرغم من العناية التي أحاطها بها الدكتور مالانفان ونينا، وصلوات سلفاتها، وبكاء بناتها. كانت التشتية قد بدأت حزينةً وهادئة. والكهول يتأكّدون من أن الهطولات قد توقّفت قبل أن يغامروا بالخروج من المنزل. في الليلة التي سبقت الدفن ويومه كما في كل الأسبوع الذي تبعه لم تتوقّف الأمطار عن الهطول بغزارة. الأزهار المتشبّعة ماء نمت عالياً كما لو أنها شجيرات، وسقطت الفواكه من الأشجار ذابلة قبل أن تنضج. لا بدّ أنها إشارة من الطبيعة الحزينة على رحيل هذه المعذّبة. منذ لحظة عودتها من المقبرة، رفضت فيوريلا أن تتكلّم مع أبيها، وأعلمته عن طريق الأب مونديشيلي أنها ترغب في الالتحاق بمدرسة راهبات الرحمة الداخلية في «باس تير». في يوم السبت، ركبت سيارة مستأجرة. حتى مع حزنها كان جمالها مشرقاً كالشمس. لم تعد أبداً بعد ذلك إلى شارع «نوزييه». بعد ثلاثة أشهر على وفاة أركانيا، تزوّج جيان كارلو من فتاة في السابعة عشرة، ابنة جواهري إيطالي آخر يعقد معه صفقات. لكن هذه الأخيرة ماتت هي والصبي الذي تحمله أثناء الولادة. الكل رأى أن ما حصل هو انتقامٌ من الله.

لم تكن أنثيا جاكسون تعامل ماري نويل بصفتها خادمة أو جليسة، بل كأخت مولارا الكبيرة وقد أرادت تنمية فضائلها هي أيضاً. سجّلتها في

الدراسات العامة في الجامعة، التي تمهّد الطريق للحصول على الإجازة. حين تستقبل صديقاتها الإفريقيات، الأستاذات الجامعيات، والناقدات الأدبيات، والفنانات، وأحياناً الكاتبات، تُجلسها على الطاولة معهن. هؤلاء المثقّفات كنّ بَهِجات ومرحات ولسن متغطرسات ومختالات. يعرفن كيف يطلقن الضحكات المثيرة للدهشة مثل ارتجالٍ على البوق. إلا أنّ وجوههن تكفهرّ لدى مجيء ساعة احتساء القهوة التي يشربونها بلا سكّر إطلاقاً، ويبدأن التطرّق إلى موضوع العنصرية. كل واحدة منهن لها قصة ترويها عن رفض البيض القوقازيين تقدير قيمة الأشخاص الذين لهم لون بشرة مختلف عنهم. كنّ يحذّرن ماري نويل من قسوتهم وخداعهم، ويعدّدن لها أنواع العوائق التي سيضعونها في وجهها ليمنعوها من التقدّم في حياتها. لم يثر ذلك مشاعر ماري نويل. أولاً، لأنها تشكّ في أنه سيكون لها حياة مهنية تُحسد عليها. ثم، أين هو عالم البيض القوقازيين هذا الذي يرغبن أن تخشاه هي؟ هذا شيء غير قابل للحدوث وغير واقعي مثله في ذلك مثل الإنسان الذئب. إنها تعيش حياتها في عالم آخر، بين السود وغامقي البشرة والخلاسيين والمستأمنين والمهاجرين والمنفيين. معظم من تعاشرهم يتحدّثون الأميركية بصعوبة، لا يقرؤون الصحف، ولا يشاهدون إلا البرامج التلفزيونية المُعدّة بلغات أجنبية. لقد وُلدوا في مكان آخر حيث يأملون بالعودة إن قدّر الله لهم ذلك، فلا يحبّذون المكان الذي هم مجبرون الآن على العيش فيه. الولايات المتحدة الأميركية هي بلد الدولار. لا يرون غالباً في هذا الدولار لون الأمل، بل يرغبون في تجميعه قبل أن يعودوا إلى ديارهم أغنياء وأصحاب موجودات عينية ثمينة.

سبب الخلافات الوحيد بين أنثيا وماري نويل هو أن الأخيرة رفضت كلّ ما تقدّمه لها أنثيا من هدايا الثياب.

.11

لكثرة ما تمعّنَتْ في الأمر، بدا لماري نويل أن الأدوار التي تشغلها هي وستانلي قد بدأت تتغيّر بعد مهرجان «سانتو دومينغو». كما لو أن نزوة دهمت المُخرج في منتصف عرض مسرحي، وقرّر أن يتابع عرضه بعد تغيير شكل الأدوار المسندة إلى ممثّليه. نظراً لقلة النقود لم تستطع هي السفر إلى «سانتو دومينغو»، لكنها لم تكن راغبة في الذهاب على كل حال؛ إنها بحاجة إلى الهدوء والوحدة كي تستطيع التفكير. كم من الحزن يملأ قلبها! ذلك ليس بسبب الفوضى وعدم الراحة في المنزل الذي تسكن، إذ إنها لم تعرف أيّ شيء مغاير لهذا الإطار سوى أثناء المدة المباركة التي أمضتها في المصحّ. لم يكن ذلك أيضاً مردّه بشاعة «كامدن تاون»: واجهات مبانيها الكئيبة المفروض هدمها والتي لم تُهدم حتى الآن، المنازل الوضيعة وحدائقها التي تستحيل طيناً أو جماداً تبعاً لدرجات الحرارة، المغاسل الأوتوماتيكية، محلّات البيتزا، محلّات «جاك إن ذا بوكس»، «وينديز»، الفنادق خاليةً كانت أو مشغولة كلياً، محطات وقود «موبيل»، «أسوس»، «شيل»، «أموكوس»، المتشرّدون الذين يفترشون الأرصفة ويلتحفون الورق المقوى. لا، ليس هذا، فلقد

اعتادت على هذا كله. يعود ذلك إلى أسى ورتابة نابعة من داخلها. في حياتها، حتى الزنى أمسى نوعاً من الرتابة لأن الكلّ متعايشون معه، وشبق تيري يؤسفها بقدر زهد ستانلي. على الأقل ينضح ستانلي برغبات أخرى تختلف عن رغبات الجسد وشهوة النساء. أشغالها ليست ذات أهمية. الأوقات الممتعة الوحيدة هي تلك التي تقضيها بصحبة أنثيا، تشاركها حياةً تختلف كليّاً عن حياتها. لا يشغل أنثيا أيّ هموم إلا هموم الفكر. لم تكن تظلّ بلا نشاط حين لا تدرّس في الجامعة، إذ تستيقظ يومياً قبل الشروق، وحين تصل ماري نويل لتناول الفطور مع مولارا تكون هي في مكتبها، حيث تمضي الصباح وشطراً من فترة بعد الظهر مغلقة على نفسها، عيناها تحملقان بشاشة الحاسوب وتعزف على لوحة المفاتيح. ليس باستطاعة ماري نويل أو مولارا مقاطعتها تحت أيّ ذريعة. ذكّر هذا ماري نويل، التي تحوّل انتباه الطفلة إلى نشاطات عديدة، بما كان يطلبه لودوفيك من غارفي: ألّا يحدث فوضى لأن «الماما تعمل على أطروحتها». الغموض والعناد اللذان يلفّان هذا العمل أثارا فضولها. أخذت تقترب من المكتب وتوارب الباب وتشرع في التلصّص على أنثيا. خجلت من رغبتها في تقليد هذه المرأة، أبهرتها علامات فكرها الذهبي التي تتدافع كأرتال من النمل على شاشتها. حين تنضمّ إليهما بعد الظهر، لا توقف أنثيا نشاطها الفكري، إذ تملأ أوراق امتحان طلابها بخطوط من قلمها الأحمر. كانت تستمع إلى الموسيقا أحياناً، المقطوعات نفسها دوماً. خطر لماري نويل مرّاتٍ عدّة أن تسألها عن رأيها في موسيقى «M.N.A» ثم تمنّعت عن ذلك. أيمكن لشخص يعشق «فيرغونغن أوند لست» لجان سيباستيان باخ أن يتذوّق أنغام ستانلي واتس؟

في أحد الأيام، في الوقت الذي لم تتوقّع فيه مجيئهم قبل أسبوع، عاد الموسيقيّون من «سانتو دومينغو». كانت هيئاتهم جنائزية ومشيتهم ثقيلة. مع ذلك لم تستطع قراءة ما كُتب على جبينهم، ولم تأخذ منهم سوى جمل مبهمة. اضطرّت أن تنتظر حلول الليل حتى يحكي لها تيري ما حصل معهم. كانت الدهشة ما زالت تعتريه.

بالنسبة له كما للآخرين، تلك هي المرة الأولى التي يزورون فيها إحدى جزر الأنتيل. لذلك كانت تسيطر على فكره القصص التي حكاها له والداه المهاجران في طفولته: دكتاتورية، قمع، فقر، وحتمية الهجرة. لكن الأيام الأولى كانت كالعيد بالنسبة لهم. بعد كآبة الجوّ في بوسطن، السماء الزرقاء كلياً ابتسمت لهم. نزلوا في فندق كبير موجود بين كورنيش «ماليكون» البحري البرّاق من جانب، وحديقة تعجّ بالزهور والنباتات من الجانب الآخر، بين سحر البحر الذي تتكسّر أمواجه على صخور ضخمة مسنّنة، وتشابك أزهار البوهينيا الصدئية والياسمين الهندي والجهنمية والسحلب التي تمتد حتى سفح الجبل. هم الذين لم يفكّروا للّحظة بتاريخهم، ظانّين أنه تتابع لهزائم غير جدير بالاهتمام، تجلّت أمامهم أساطيره وروعته في قصر ديغو كولون والمنازل الحجرية مع الفُسح الداخلية التي تفتح على قطع من سماء زرقاء. خلف أسوار المدينة القديمة، ثمة قوارب هياكلها صدئة تستريح في مصبّ أحد الأنهار. طوال فترة السفر في الطائرة، أعاد ستانلي على مسمع رفاقه الأسس التي تشكّلت «M.N.A» عليها. نعم، موسيقاهم هي موسيقا الغد. نعم، موسيقاهم على صورة العالم الجديد الذي لا يتوقّف عن التطوّر أيضاً وأيضاً متحدّياً كلّ التعاريف. ما من شكّ في أن معزوفاتهم تحاول أن تكون عالمية. ستُسمع

في إنكلترا وأوروبا وفي الجزر الكاريبية، والكل سيتماهون معها لأنها تعبّر عما يختلج في أنفسهم. مع ذلك، بدأ سوء التفاهم بالظهور أثناء تسجيل أول برنامج إذاعي. لقد كان من الجليّ أنه في «سان دومينغو» لا أحد يكترث لهذه الخطابات الطويلة عن الهجرة، والمستقبل، والعالم الجديد. بدا ستانلي كشخص يبحث عن المتاعب، وكانوا قلّما يستمعون إليه، بل يقاطعونه في منتصف جمله. بسبب جدائله اتهمه أحد المذيعين بأنه يحاول استنساخ بوب مارلي، الأمر الذي نفاه بشدّة. ألم يكن يرى في بوب مارلي مثالاً يحتذى، المعلّم الأول؟ حاول ستانلي أن يوضّح وجهة نظره، وتكلّم بصورة مشوّشة عن دفوراك. قلّد التقنيون خلفه لكنته الجميلة الخاصة بضواحي لندن. أثار سماعه لهم غضباً في نفسه كان يجدر به أن يكظمه. نعم، لقد وُلد في ويمبلدون، ودرس في الأكاديمية الملكية للموسيقا. هل تلك جرائم؟

كان مقرّراً لأول حفل موسيقي لفرقة «M.N.A» أن يُقام في الباحة الداخلية لمصنع آلات بيانو قديم اسمه «مامبو بالاس». خطأ في التنظيم دفع المئات من متابعي شيكو ألفاريز، أحد فنّاني البلد الذي بنى شهرته من خلال مهرجان «كاريبو» في كاليفورنيا وصديق كارلوس شافيز، إلى أن يأتوا إلى المعمل. ولمّا علموا بأنهم سيستمعون إلى فرقة غير معروفة عوضاً عن معبودهم، غادر ثلاثة أرباع الحضور المكان، تاركين خلفهم علب بيرة فارغة ومناديل ورقية ملوّثة. الربع الأخير غادر أيضاً بشكلٍ فوضوي ما إن باشر ستانلي وموسيقيّوه سيمفونيتهم. هذه الدعاية السيئة انتشرت كالنار في الهشيم، لدرجة أنهم أقاموا حفلتهم الثانية أمام حضور شبه معدوم. عبّر بعض الفضوليين ممن حضروا عن انزعاجهم بإطلاق الصافرات. أُلغيت

الحفلة الثالثة نظراً لعدم الإقبال، فعادت «M.N.A» إلى بوسطن أبكر مما كان متوقّعاً لها. ويا لها من مصادفة حزينة! عادوا مع انتهاء عقدهم مع «ذا فول مون». جاءت فرقة «بينغا بوم» من كينيا بعازفيها العشرة مع الشهير دانييل أوينو والعديد من الحجوزات قد أُكّدت. منذ ذلك الوقت، حاول تيري جاهداً إدارة أعمال الفرقة بشكل مناسب، لكن مع ذلك أصبح أعضاء الفرقة مجبرين على العزف في أماكن متفرّقة، ليلة هنا وليلتين هناك، وعلى بعد كيلومترات من بوسطن أحياناً.

رغم هذه المرارة، استطاعت سيمفونية العالم الجديد جذب انتباه أحد المنتجين الجريئين، الذي دعا «M.N.A» للتسجيل في نيويورك مراهناً على نجاحها. لم تتردّد ماري نويل. شعرت أن من واجبها مرافقة ستانلي. لم يكن يطلب منها شيئاً عادةً، لكن للمرة الأولى في حياتهما المشتركة شعرت بأنه أقل استبدادية وأقرب إليها، ضعيف تقريباً. خُيِّل لها أنه بحاجة إليها. كان يدخل غرفتها في المساء غالباً، ودون أن يتضايق لوجود تيري يستلقي بجانبهما، ويبدأ بعرض مخطّطاته المستقبلية، ولكن بنبرةٍ باهتة. تولّد الانطباع لدى ماري نويل بأنه يقلّد نفسه ولا يصدّق أيّ كلمة ممّا يقول.

عبرَ القطار خلال خمس ساعات مدناً وأحياء أشبه بالكابوس، كما لو أنها قد دُمّرت بالنابالم، مما دفعها للتساؤل عن صحّة أميركا. أما نيويورك فأثارت دهشتها. يملك المنتج استوديو تسجيل في حارة يهود قديمة تقع على حدود حيّ «هارلم» وفي محيط جامعة كولومبيا، ويكتظّ بالأميركيين اللاتينيين، وتتجاور فيه محلّات العطارة وصالونات الحلاقة مع المعابد اليهودية. يجلس السكّان على كراسي قابلة للطّيّ على عتبات منازلهم.

هذه المدينة المستهجنة جدّاً والمثيرة للفزع بدت وكأنها قرية يسكنها على الأخص أمهات وأطفالهن، وأساتذة، وطلاب غير مؤذين، يجهلون تماماً عنف المخدرات وأذاها. كان هنالك معرض قد نُظِّم يوم سبت في شارع برودواي. حلَّ محلّ السيّارات مهرّجون يعتمرون قلنسوات ثلاثية القرون، ويؤدّون بهلوانيات باستخدام كرات من مختلف الألوان. لم تشعر ماري نويل بأيّ فضول لزيارة الصروح والمتاحف وناطحات السحاب وسيّارات الأجرة الصفراء، كل تلك الأشياء التي يصوّرها السياح بحماسة. كانت تجلس على كرسي في حديقة «ريفير سايد» بين الأمهات والأطفال والكلاب، وتنظر إلى المشهد غير المنتظم من قوارب ومنازل على الضفة الأخرى من نهر «هدسون»، فيما أفكارٌ مضطربة تملأ رأسها.

نحو منتصف السنة الثانية، حضرت آوا إلى بوسطن. كان الشتاء قد انتهى، وحلَّ المجذّفون لابسو كنزات التريكو الملوّنة محلّ المتزلجين على نهر «شارلز». كانت حياة آوا قد تغيّرت جذريّاً. في K، أُوقف رودريغ بين ليلة وضحاها بتهمة ممارسة نشاطات مضادة للثورة، وانضمّ بذلك إلى آلاف الرجال الذين يموتون ببطء في سجون المعسكرات(*). لذلك ذهبت نتاشا التي أصبحت بلا معيل إلى موسكو مع آوا، حيث يمكنها أن تعيش على مساعدات عائلتها. رغم كرهها السابق لغينيا، أصبحت الآن تصفها كما لو أنها الجنة المفقودة، بات على أهلها أن يستمعوا من الصباح حتى المساء إلى الأوصاف التي لا تنضب حول محاسن الأفارقة وروعة الغابات الاستوائية وحيوية الثقافة التقليدية. كان قد مضى على إقامتها

(*) مات آلاف المعتقلين السياسيين في غينيا خلال ديكتاتورية Ahmed Sékou Touré أحمد سيكو توري (1958-1984). [م].

ثلاث سنوات في موسكو حين وصلها خبر موت رودريغ. من غير المعلوم ما إن كان قُتل أثناء تدخّل فرقة كوماندوس من مرتزقة برتغاليين تعمل لحساب المتمرّدين بغية إسقاط الدكتاتور وفتح أبواب المعتقلات، أو مات من الجوع والمعاملة السيئة في المعسكر، أو حاول الهروب، فأرداه حرّاس السجن قتيلاً. غادرت نتاشا موسكو حاملة آوا معها، وعادت إلى غينيا من جديد. أملت في معرفة حقيقة ما جرى لزوجها واسترداد جثته. لمّا وصلت إلى العاصمة أشفقت عليها راهبات الزيارة، وقدّمن لها غرفة في مستوصفهن الواقع في وسط حيّ «بوتو بوتو». تنقّلت نتاشا كلّ يوم بين الوزارات والإدارات العامة، إلى الدرجة التي أصبحت معها قضية بالنسبة للبعض ومبعث سخرية للأكثرية. حين كانوا يرونها مرتدية الأسود تحت شمس حارقة وتعرج من التعب، شعرها يشبه كتلة ثلج متسخة، قدماها رماديتان بسبب الغبار في صندلها، عيناها شاردتان وأسنانها صفراء، كان موظّفو الحكومة المتجمّعون على النوافذ يلتوون من كثرة الضحك. يطلبون منها إحضار مختلف أنواع المستندات والوثائق، بطاقة شخصية لها وبطاقة شخصية لرودريغ، شهادة تثبت أنه كان طبيباً وأنه كان متزوّجاً، إثبات أنه كان يعيش في K، وأنه كان يدير عيادة طبية. ضاعفوا من طلبات التصاريح والأختام، الأمر الذي أدى إلى أنها لم تتقدّم في مسعاها قيد أنملة منذ أن عادت إلى غينيا قبل سنتين. في أحد الأيام، قرّرت آوا أنه لم يعد بإمكانها تحمّل هذه المأساة، فلجأت إلى سائق خبّأها في شاحنته التي تنقل جوز الكولا إلى «سيكاسو» على الحدود مع «مالي». من هناك، ذهبت مشياً على الأقدام حتى «باماكو» ونامت في الشوارع مع المشرّدين، تأكل مما يوجد في حاويات القمامة. بعد عدّة أيام ولكثرة مرورها أمام السفارة الأميركية، لحظها حارس من البحرية الأميركية يقف أمام السور.

تأثّر الأخير بقصتها الحزينة، فأمّن لها بطاقة طائرة إلى بوسطن كي تلتحق بماري نويل، الوحيدة التي تهتمّ لأمرها على وجه الأرض.

على الرغم من النوائب ومصائب الحياة التي ألمّت بها، إلا أن آوا ما زالت جميلة وحيوية، ابتسامتها مشرقة وضحكتها رنّانة كما لو كانت موسيقا. أدخل وجودها شيئاً من الحرارة إلى بؤس «كامدن تاون»، ومنح المنزل إدارة لم تكن موجودة من قبل، فقد كان كلّ واحد يفعل ما يحلو له. من الآن فصاعداً، ولمرّتين في الأسبوع، على الموسيقيّين أن يجتمعوا لتذوّق الطعام الذي حضّرته من الفاصولياء المسوّسة وموز الجنة الناضج جداً ومن اللحمة السيئة النوعية، دون أن تعير أيّ اهتمام لبقبقة هوسهم. ديكتاتورية. نقص. الأزمات الفكرية والأخلاقية التي تعصف بشعوب إفريقيا. الجوانب السيئة في التجارب الماركسية عبر العالم. فساد العاملين في الدولة وسوء الإدارة. البيروقراطية الزائدة. في حين ينقصهم كل شيء، وجدت آوا طريقة كي تستأجر جهاز تلفاز، وعوضاً عن شرب كحولهم السيّئ، جلس الموسيقيّون بهدوء يشاهدون المسلسلات الكوميدية أو المسلسلات الدرامية الطويلة التي تمتدّ لستّ ساعات. اشترت بالدَّين غسّالة لغسل البياضات. كما فعلت أكثر من ذلك. ضاجعتهم حتى تجلب لهم اللذّة. في الحقيقة استعداداتها الماضية لم تتغيّر، إنها تستمتع بممارسة الحب بقدر ما يستمتع الموسيقيّون بالعزف على آلاتهم. لم تتح لماري نويل أن تحزن من نزواتها مع ستانلي وتيري، فبعد اختبارات عدة، اختارت أن تنقل مكان إقامتها إلى سرير أمانديو وناندو. قالت إن عدم مقدرتها على تمييز من يداعبها منهما تثيرها. كما أنه بإمكانها معهما أن تتقاسم الحنين إلى إفريقيا وحلمها في أن تعود إليها يوماً، بعد أن تكون قد عالجت

آثار الاستعمار والاستعمار الجديد. هذا لم يمنعها من أن تقع في حبّ ديف، الأميركي الإفريقي الذي جاء ليصلح التلفاز، وفي أن تخصّص له أسبوعياً عدداً أكبر من الليالي. فتح لها ديف نافذة على عالم الإفريقيين الأميركيين، وراحت تلوم ماري نويل على بلادتها وعدم اكتراثها بالمحيط الذي تعيش فيه. ماذا تعرف؟ ماذا تستوعب من كل ذلك؟ إنها تعيش في وسطها كالطفيلية. بسبب ديف، بدأت آوا ترتاد كنيسة بيت لحم الإنجيلية، وتترقّب اللحظة التي يدخل فيها القسيس والمؤمنون في حالة تجلٍّ وهذيان من موسيقا الأرغن. حضرت دون اهتمام اجتماعات سياسية حيث يُنظر إلى البيض على أنهم الشيطان نفسه، وأسواق خيرية حيث يوسّخ الأطفال أفواههم بصلصة الباربيكيو. شغفت أيضاً بالبيسبول وكرة السلة وكرة القدم، وحفظت أسماء الرياضيين الذين يوحون بأحلام باسمة لصبيان أحياء الأقليات. رافقت آوا ماري نويل إلى الجامعة دوماً، لكن في الوقت التي غرقت فيه الأخيرة في قراءاتها للكُتّاب الفرنسيين المدرجين في المنهاج، فإنّ آوا، المصممة على أن تثقّف نفسها، حاولت متسلّحة بقاموس أن تفكّ حروف كتب المفكّرين الإفريقيين الأميركيين. لكن هذا الحب انتهى حين جاءت زوجة ديف محاطة بكوماندوس من صديقاتها التابعات، لتهديدها بمسدّس من المؤكّد أنها كانت لتفرغه فيها لولا تدخّل الموسيقيّين. نتيجة هذا كلّه أصبحت آوا بين ليلة وضحاها أشرس الناقدين لأميركا السوداء.

آوا وماري نويل اللتان لم تتوقّفا قطّ عن المراسلة عادتا لا تفترقان. كان ذلك كما لو أنهما لم تفترقا منذ الصيف جميل الذكرى الذي قضتاه في «سافيني سور أورج». أحياناً، تنسيان رفاقهما ليلاً. تجلسان متقابلتين في غرفة الجلوس ولا تملّان من استعادة طفولتيهما وتذكّر أمّيهما. كانتا

تتشاركان النقمة نفسها في نهاية الأمر. أخذت آوا تكره وتنتقد نتاشا، إذ تعتقد أنها لم تعُد إلى غينيا إلا لتُلحق الضرر بعائلة ضرّتها، لأن رودريغ قد سئم كآبتها وشكواها المستمرة، فتوقّف عن ممارسة الحب معها وتزوّج من امرأة أخرى، من إثنية «كيسي» من الغابة. التقت آوا بها وبأخيها الصغير الذي يشبه رودريغ تماماً عدّة مرّات، ومدحت كرمه وحرارته الإنسانية وحنانه، كل تلك الفضائل التي لا تملكها نتاشا. كانت تحقد على أمها لكونها على قيد الحياة على الأرض، فيما تتعفّن جثة أبيها المحبوب في مكانٍ ما دون صلاة ولا قبر. بكت ماري نويل لمّا علمت من لودوفيك خبر ولادة أختها الصغيرة أنجيلا، هذه البريئة التي لم تطلب الحياة من أحد. ليس من الصعب التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظرها. سوف تنحرف مثلها في ذلك مثل أختها الكبرى. كانت ماري نويل تتوق لتعريف أنثيا بآوا.

تجاهلت عيوبها وميولها وفرط فكرانيتها. كانت تعلم ماذا تخفي ولا تريد أن تتذكّر سوى الطريقة التي غيّرت فيها أنثيا حياتها. لولاها لكانت حتى الآن تقدّم أطباق «الباكالو» و«الفريجيل نيغروس» في مطعم «لاروزيتا»، وتسعد إن استطاعت أن تملأ معدتها بالقليل من الرز والبازيلاء. ارتأت أنثيا أن تلتقي بآوا بعد ظهر أحد الأيام، وتحتسي معها فنجان قهوة سومطرة بالفانيلا التي تشرب منها باستمرار. كان ذلك فشلاً ذريعاً، منذ البداية، لم تفلح معه محاولات ماري نويل في تغيير الحديث. بدا مباشرة أن أنثيا لا تحبّذ قصص الشجاعة والمقاومة في حديث آوا. كل جملة من جملها تثير حنقها. وما إن أدارت آوا ظهرها حتى نصحت أنثيا ماري نويل بالحذر منها، لأنها لا ترى في هذه الصديقة المزيّفة إلا النرجسية والابتذال.

أمّا آوا فرأت أن أنثيا متكبّرة ودوغمائية، واتهمتها بكلّ بساطة بالغيرة من شباب فقدته هي.

.12

لم تكن أرليس دو فيراري تشبه السيّدة إيسموندياس. تصفّف شعرها الأسود كالليل الحالك على شكل كعكة، تثبّتها في المنتصف بمشط من قشر السلحفاة المخرّم. بشرتها عاجية اللون، وفي عينيها العميقتين تدور ذكريات شبابها السعيد في «بيونيس أيريس». تسكن واحداً من أهم بيوت «كامدن تاون» مبنيّاً من القرميد والحجر الأبيض، تمتلك سيارة من نوع «ستوديبيكر» تنام في غبار الكراج لأنها لم تُستعمل قطّ. لكنها تمارس المهنة نفسها: الوساطة الروحية. لديها كروت مهنية مثل السيّدة إيسمونداس وضعتها في الصيدلية، تبصّر باستخدام التارو وتقرأ خطوط اليد على الطريقة التقليدية. ما يميّز جلساتها هي تلك اللحظة التي تُطفئ بها كل الأضواء دفعة واحدة حولها، وتقرأ المستقبل على ضوء شمعة يرتجف. من أكثر اللحظات مسرحةً هي تلك حين يتنبّأ صوتها الخفيض بلقاءاتٍ مشؤومة وبشدائد قاتلة وبأمراض مميتة، وبصعوبات يعجز عنها الوصف. فالمستقبل بالنسبة لأرليس لا يخبّئ في حناياه إلا سلسلة مآسٍ يستحيل تجنّبها، كالكوارث الطبيعية من هزّات أرضية وأعاصير. نعم، يستحيل تجنّبها إلا. إلا إذا. هنا تشعل الأضواء الكهربائية فجأة، وتضع

في يد زبائنها الخائفين قارورة ثمنها عشرة دولارات تحوي مستحضراً نتناً يجب التعطّر به كلّ يومٍ ثلاث مرّات. لم يكن أحدٌ يجرؤ على الرفض وكانت أرليس، بعد أن تأخذ النقود بعجل، تنهض مشيرةً إلى أن المقابلة انتهت.

في أحد الصباحات، فيما تترنّح أرليس على أحد الأرصفة تحت حمل سلّتها، ساعدتها كلٌّ من آوا وماري نويل على العودة سالمة إلى منزلها. منذ ذلك اليوم، لم تتوانيا عن إسداء آلاف الخدمات لها. تتسوّقان لها أحياناً، وتنظّفان أرضية منزلها بالتناوب، وتلمّعان إطارات صور أرليس التي لا تحصى، الموضوعة في كلّ مكان تقريباً، والتي توثّق كلّ مرحلة من مراحل حياتها. كانتا على الأخصّ تحضران لها بعناية في أكياس ورقية بنّية زجاجات فودكا من نوع سميرنوف.

تشرب أرليس الكحول دون أيّ إضافات.

يبدأ ذلك منذ الصباح الباكر، لحجّة ما: الشتاء الذي لا ينتهي في أميركا البؤس هذه، والذي يجعل من الجسد قطعةً من جليد، ألمٌ لا يخفّ في موضع القلب، ضعف في الركبة على مستوى الصابونة. تشرب طوال النهار، بعد كلّ جلسة، وتنتهي بشرب كمية كبيرة عند حلول الليل حتى تسهّل عملية النوم. في الحقيقة لدى أرليس كثيرٌ من الذكريات السيئة التي تودّ دفنها عميقاً في ذاكرتها: إفلاس عائلتها نتيجة لاستثمارات سيّئة، دراستها التي لم تستطع إكمالها، الرجال الذين تركوها الواحد تلو الآخر، وابنها الرقيق، أنطوني، فلذة كبدها، الذي أنجبته من زواجها الثالث مع زوجها الأسترالي، والذي أُردي قتيلاً وعمرُه أربعةٌ وعشرون عاماً، في إحدى زوايا جادة «لونوكس». لم تُحَلّ هذه القضية المشؤومة قطّ، لقد

تجرّأ رجال الشرطة على القول إنهم يراقبون أنطوني منذ الثانوية، لأنه يتاجر في المخدرات مع آخرين من صنفه، وإن الجريمة تصفية حسابات. سكّان الحيّ كانوا من هذا الرأي، فهم لم يكونوا يرونه إلا قرابة منتصف الليل، يعتمر قبّعة، ويلبس قفّازات، لباسه أنيق تحت عباءته المبطّنة بالفرو، ويحيط به زعران بسحنات مرعبة وحرّاس شخصيون. أما أرليس، فقد أقسمت مستشهدةً بأيقونات يسوع المسيح العديدة التي تزيّن غرفتها أن أنطوني كان ولداً رقيقاً حنوناً، محبّاً لأمه مثل كل الأولاد، وسائراً نحو مستقبل باهر. نام إلى جنبها حتى بلغ العاشرة، وتتذكّر حرارة جسده اليانع الملاصق لخاصرتها. كان يغرقها بالمجوهرات والألبسة المصنوعة من الدانتيل والحرير. هو الذي اشترى لها هذا المنزل الفخم مع هذه الحديقة الواسعة التي يمكن للغزلان أن تسرح فيها، وحيث السناجب يطارد بعضها البعض الآخر. منزل مؤلّف من طابقين باعت أرليس أثاثها الأفضل وباتت تؤجّر الغرف، حتى تستطيع أن تؤمّن مصروفها الشهري، لأزواج من أميركيين لاتينيين مزعجين، يشتم واحدهم الآخر دائماً ويستمعون إلى الموسيقا وغير قادرين على دفع الإيجار. تكره أرليس المتحدّثين بالإسبانية كالكاريبيين والكوستاريكيين والمكسيكين، وكل المستأمنين الذين كانت الولايات المتحدة ضعيفة أمامهم وفتحت لهم أرضها، والذين يزدادون وقاحةً يوماً بعد يوم، ويطالبون باعتبار الإسبانية لغة رسمية في بعض الولايات. تتباهى بأنها لم تَدَعْ أيّ أميركي لاتيني يلطّخ سريرها، لأنها رغم استقرارها في الأرجنتين منذ أجيال إلا أن عائلتها تتحدّر من أصول إيطالية، ويمكنها أن تعود في شجرتها العائلية حتى بادوفا. في يوم كانت فيه نفسها مضطربة، أسرّت ماري نويل لها بأن أباها ربما كان إيطالياً، الأمر الذي وثّق عرى صداقتهما أكثر. وحين يدفع الفضول آوا لاكتشاف

بوسطن، تبقيان معاً بسلام لشرب بعض الكؤوس، دون إفراط من جهة ماري نويل، وتدخّنان بعض لفائف الماريجوانا وتستمعان إلى معزوفات الأوبرا المفضّلة لأرليس، تلك التي لحّنها فيردي. ليس باستطاعة ماري نويل منافسة رفيقتها التي لديها دائماً قصة تحكيها عن والديها، وأصدقائها، وزواجها، وعشّاقها، والكنز الذي لا ينضب المتمثّل بإنجازات ملاكها، الشهيد ابنها، وطريقة الحياة في الولايات المتحدة الأميركية. ومع أن أرليس تعيش في الولايات المتحدة منذ ثلاثين عاماً، إلا أنها لم تحِد عن كرهها الشديد لها يوماً. لم يكن يعجبها شيء، لا اللغة، ولا الطقس، ولا الطعام، ولا الفواكه والخضار والجبن في الأسواق، ولا التلفزيون، ولا السينما، ولا الأزياء. لكنها تكره الأرجنتين أكثر. في ما يخصّ هذه الأخيرة، ليست السياسة الخارجية ولا الداخلية ما يصدمها، ولا القضايا الكبيرة كالديكتاتورية والمختفين، بل الشرّ الذي يعتمل في قلوب الأرجنتينيين الذين يتغذّون على الغيبة والإشاعات. ألم تكرّس «إيل بايس» الصحيفة الأولى في «بيونيس أيريس» صفحة كاملة ومفصّلة عن أنتوني، حتى يرى الناس بوضوح إلى أيّ عائلة محترمة تنتمي أمه؟

في المساء غالباً بعد أن ينضب سيل زبائنها، تحاول أرليس الدخول في تواصل مع أنتوني. تشعل أعشاباً عطرية في زوايا الغرفة الأربع، ثم تطفئ كلّ الأضواء وتتلو بشغف صلوات تهدف إلى إحضار ولدها إليها. هذا التحريض يمكن له أن يستمرّ لساعات عدة دون أن يستجيب أنتوني، فتنهار أرليس على الطاولة المستديرة التي لم تستطع إدارتها ثملةً من خيبة الأمل والفودكا على حدٍّ سواء. تخلع ماري نويل ثياب أرليس دون عناء يُذكر، وتُلبسها أحد قمصان النوم الدانتيل التي اشتراها لها ابنها أنتوني،

وتضعها في سريرها العميق كسفينة وتُبقي ضوء المنضدة فقط. تقفل الباب بالمفتاح قبل ذهابها وتضعه في صندوق البريد. تؤذي نفسها دوماً في المدخل غير المضاء جيّداً لشقّة الإخوة دياز. عائلة دياز المؤلّفة من أربعة أطفال وبالغَين تسكن في غرفتين في الطابق الأول. ومع أن الأهل يدفعون الإيجار دوماً في الأول من كل شهر، إلا أن أرليس تتمنّى التخلّص منهم، لأنهم يتعاركون كلّ مساء كالمصابين بالكَلَب، ويتلفّظون بشتائم وبعبارات بذيئة. لا تشعر ماري نويل بالأمان مطلقاً لدى مصادفتها الإخوة دياز الذين طول الواحد منهم متران، ويعتمرون قلنسوات صوفية تصل إلى حدود عيونهم ويلبسون معاطف مبطّنة. كلّ هيئتهم التي لا توحي بالترتيب تثير ذعرها. تلوم نفسها في الوقت نفسه. هل هم مذنبون لأنهم فقراء وغير مرغوب فيهم في المكان الذي يعيشون فيه، ولأن ليس لديهم من تسلية سوى آلات القمار وبيرة البارات السيئة؟ لكن على الرغم من تأنيب الضمير هذا، فإنها ترتجف رعباً حين تعبر الحديقة التي يلمع الجماد فيها، مترقّبة أن يمسكوها ويشطبوها بالسكاكين الكبّاسة التي يحملونها على خواصرهم.

عليها بعد ذلك أن تسير بمحاذاة جادة «نورث» دون إضاءة ولا مارّة. تصطفّ على جانبي الجادّة أبنيةٌ خربة لا يُعلم نوع الحيوانات التي تلجأ إليها خلال الليل. في البعيد تُسمع صفّارة سيارة شرطة تهرع إلى مكان حدوث جريمةٍ ما. فجأة، بدأت الاغتصابات والسرقات والجرائم التي تتغذّى عليها صحف الحوادث بتملّك ذهنها. حين صار بإمكانها أخيراً أن ترى المنزل، تركض بسرعة وتصعد الدرج كل أربع درجات معاً، وتُتَرْبِس خلفها الباب. يعمّ الهدوء المكان، لن يعود الموسيقيّون قبل ساعات.

أين ما تزال آوا تتسكّع؟ حضّرت لنفسها فنجان شوكولاتة في المطبخ المتجمّد، ومن ثم اتجهت إلى السرير، المتجمّد هو أيضاً.

كانت تلك الليلة كسابقاتها، من دون هواجس ولا كوابيس.

عادت أبكر مما اعتادت عليه، لأن أرليس المشبعة فودكا سميرنوف لم تحاول الاتصال مع ابنها أنتوني لمدة طويلة. انهارت على الطاولة سريعاً، فوضعتها ماري نويل في السرير، قبّلت الوجه العجوز الذي يحمل ملامح جمال مفقود، ورتّبت فوضى الكؤوس والقوارير الفارغة. لمّا وصلت إلى المنزل، حضّرت لنفسها فنجان شوكولاتة وشرعت تقرأ عملاً عن نظرية الأدب. إنّ نظرية الأدب أهم مواضيع جامعة إنكلترا الجديدة، وقد طرحها أستاذان استُقدما من جامعة «يال» بإغرائهما برواتب أعلى. واظبت ماري نويل على متابعة دروسهما، لكنها لم تكن تفهم الشيء الكثير منها. عادت آوا نحو منتصف الليل مهتاجة جداً وميّتة من الضحك. لقد عادت للتوّ من اجتماع سياسي في حيٍّ للسود حيث تتابَعَ متحدّثون لاذعون على المنبر لساعات ليوضّحوا حقيقة أساسية، وهي أن أميركا لم تتغيّر ولن تتغيّر أبداً. بالطبع ثمة زنوج وزنجيات ممن دهنوا أنفسهم بالمراهم العطرية راحوا يغْدُون في كلّ الاتجاهات مسرورين من أنفسهم ويحملون حقائب جلدية في أيديهم، لكن السواد الأعظم كان ممن يرتعون في البؤس والبطالة، وممن يتعرّضون للاعتقال التعسّفي والسجن والموت. هذه الحقيقة المؤلمة كانت بشكل أو بآخر مستحقّة، فالجالية السوداء قد نسيت الله والقيم التقليدية. صارت تشرب وتمارس الفاحشة ووطء الدبر وتعاطي المخدّرات. الشبّان يتقاتلون من أجل حذاء «نايكي». أما البالغون، فمن

أجل ممتلكات مادية تثير الضحك. على هذا أن ينتهي. كيف؟ من خلال جهد تطهيري عام: تشييد الكنائس والمعابد والمساجد، كل أشكال أنواع أماكن العبادة، في كل مدينة وحيّ؛ عناية الابن بأبويه، والأب بالأم، والأخ بالأخت، والعمّ بالعمّة. هكذا، في الوقت الذي يبرّر المستغَلّون حول العالم العنفَ والإضرابَ وحجز الحريات، هؤلاء سوف يلجؤون إلى الصلاة. صحيح أن أميركا لم تتغيّر منذ ذلك الوقت الذي اخترع فيه العبيد تحت سوط أسيادهم الصلاة المغنّاة. في الغرفة العليا، كانت آوا ما تزال تنتقد بساطة التفكير هذه لمّا عاد الموسيقيون، راضين عن أنفسهم هذه المرة، فكلّ الطاولات كانت محجوزة في «لاست ريزورت»، الحضور كانوا مسرورين وصفّقوا وقوفاً لهم في النهاية. للاحتفال بهذا الإنجاز، شربوا بعض الكؤوس، ثم نزل ستانلي إلى القبو مع آلته. انضمّت آوا إلى ناندو وأمانديو، ونامت ماري نويل إلى جنب تيري بعد أن مارسا الحب.

كان المنزل لا يزال نائماً حين قرعت الشرطة الباب بقوة.

لشهور عديدة، ظلّت ماري نويل تلتفّ التفافة كبيرة تحاشياً للمرور في محيط منزل أرليس. وجهها يتراءى لها كملامة. بِمَ هي مذنبة؟ بأنها لم تستطع حمايتها؟ بأنها لم تهوّن عليها وحدتها كفاية؟ لقد فعلت كلّ ما في وسعها. لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً. ليس الندم وحده ما يعذّبها، بل المعرفة أنه هذه المرّة أيضاً، كما في حالة السيّدة إسموندا‌س، غادرتها صديقتها دون أن تودّعها. لن تحتفظ بشيء منها. تمنّت لو أنها –حين كان ذلك ممكناً– وضعت يدها على واحدة من صور أرليس العديدة، تلك التي التُقطت لها عندما كانت طالبة في مدرسة داخلية دينية في «بيونيس إيرس»، أو تلك التي التُقطت في زواجها الأول –الذي لم يدُم ستة أشهر–

مع أميركي أبيض، مثال الأميركي الأبيض الإنغلوساكسوني البروتستانتي، أو تلك الحديثة نسبياً والتي تظهر فيها أمّاً مشرقة تحمل أنتوني الصغير بين ذراعيها.

أعادت الشرطة تمثيل الجريمة. دخل المجرم من النافذة وقتلها أثناء نومها، الأمر الذي يشرح عدم وجود آثار عراك. ثم قلب الشقّة رأساً على عقب. غير عارفٍ أن أرليس الذكية لا تحتفظ بأيّ شيء في منزلها. كانت تودع دخلها مباشرة قدر استطاعتها في البنك. من خيبة أمله سرق الفضيّات والشمعدانات وكلّ شيء احتفظت به من ماضيها البرجوازي الرائع.

لم يُتّهم الإخوة دياز ولا أيّ مستأجر آخر. رآهم ساعة حدوث الجريمة مئة شاهد في «مونسون» يسكرون ويلعبون بالقمار. أغلقت الشرطة التحقيق بسرعة. تلك جريمة سخيفة جرت بغرض السرقة يحدث مثلها المئات يومياً في المدن الكبيرة، ونادراً ما تقبض الشرطة على الفاعل. كانت ستينية تعيش وحيدة، مجنونة بعض الشيء، ولن يحزن عليها أحد على وجه الأرض. هل لديها عائلة في الولايات المتحدة؟

بعد ستة أشهر، ظهرت أختٌ لها تعيش في شيكاغو لم تذكرها أرليس قطّ، ووضعت المنزل برسم البيع.

القسم الثاني

.1



انتهى الدفن. الكاهن وطفلا الخورس، اللذان كانا يؤرجحان مبخراتهما كخشخيشة أطفال، يحثّون الخطا الآن في اتجاه كنيسة سان جول. تفرّق الحاضرون الذين ارتسمت على وجوههم تلك الملامح الرزينة التي يُظهرها الناس أثناء الجنازات، من الواضح أنهم في عجلة من أمرهم للابتعاد عن جوّ الحزن الذي طال كفاية. حان الوقت لترك رانليز ترقد رقادها الأبدي تحت أشجار الكزوارينة. وحدهم الأقرباء توجّهوا إلى المنزل للمرة الأخيرة ليتبادلوا العناق مع أفراد العائلة، وليشربوا كأساً من اليانسون النجمي، ولينهوا بالأخصّ ما تبقّى من الحساء الدسم الذي حضّرته كلير ألتا التي طيّبت المنزل في الليلة السابقة. يا حيف! سيتحدّث الناس عن الأمر لوقت طويل. لقد خطف الموت رانليز دون استئذان، دون أي إشارة مسبقة. اشتكت يوم الثلاثاء من آلام حادّة في الصدر، بعد عودتها من «لا بيل كريول» الذي حلَّ محلّ «تريبور بابور» حيث كانت تعمل طبّاخة. بعد أن امتدّت الأوجاع يوم الجمعة إلى اليدين، خطر لها أن تستشير طبيباً. لكن ما الجدوى من ذلك؟ هؤلاء المحتالون لا يشخّصون شيئاً، ويقولون لك إنك في أتمّ الصحة، في الوقت الذي تكون فيه أنت

على حافة الموت. اكتفت بتناول منقوع أوراق كاروج سميك وثلاث حبّات أسبرين، وخلدت إلى النوم باكراً. يوم السبت، سقطت على أرض باحة منزلها وهي تلفظ اسم تلك التي لم تغادر قلبها قطّ، والتي لم ترَها منذ ثمانية عشر عاماً. نقلها الجيران المذعورون من الباحة إلى غرفة نومها، لكنها لم تصل إلى سريرها إلا مفارقةً للحياة. حلَّ حزنٌ كبير على حيّ قناة «فاتابل». غطّى الجيران المرايا في منازلهم بقطعة من قماش بنفسجية، ووضعوا غصينات مباركة تحت صور القديسين. توافد الناس لمدة أربعة أيام بلياليها إلى المنزل للجلوس بجانب التابوت ذي الغطاء الزجاجي الذي سُجّيت فيه. تذكّروا وأعينهم مبلّلة بالدموع كرمها، وكلامها المطمئن للناس الذين حاوطتهم المصائب، ومائدتها العامرة دائماً بالطعام والشراب. تحوّل جيراردو بوليوس إلى عجوز فجأة، فقد دفن زوجته في السنة الماضية، وبات الآن أرمل مرّتين. لا يكنّ لماري نويل أي مشاعر حنونة، وذلك لأنها طفلة رينالدا التي كافأت رانليز بشكل جدّ سيّئ على طيبتها معها، ولأن الطفلة لم تبدُ أفضل من والدتها. منذ سنوات، فصلاً بعد فصل، وهي تعِد رانليز بالمجيء لتهوّن عليها شيخوختها دون أن تفي بوعدها. لذلك أُرسل إليها تحذير أخير عبر البريد: انتهت التسويفات وعليها أن تفي بوعدها للمتوفّاة. استجابت وأعلنت قدومها بأسرع ما استطاعت. ذهب كل من جيراردو ومانو، زوج كلير ألتا، ليقلّاها من المطار، ولم يخفيا قطّ دهشتهما لدى استقبالهما لها. لا تشبه البتّة الصورة التي في مخيلتهما عن الناس الذي يعيشون ويكسبون رزقهم في الولايات المتحدة الأميركية، بلد الأحلام الكبيرة.

صارت ماري نويل أطول إلى حدٍّ ما وأسمن مما كانت عليه لدى

سفرها. لم تكن مرتّبة الملابس ولا مصفّفة الشعر. عيناها لا تزالان حزينتين وذابلتين، وتحيط بهما هالتان بدتا وكأن بودرة مكياج قد زادت من حجمهما. لباسها المؤلّف من بنطال جينز أزرق وقميص مزهّر لا يختلف عما يرتديه الزنوج المقيمون في فرنسا، أو البيض المنبوذون في فرنسا الذين يأتون بحثاً عن قيمة اجتماعية ما في غوادلوب، والذين كثيراً ما تراهم يؤشّرون للسيارات على قارعات الطرق. إنها خرقاء وتتكلّم باستخدام كلمات أحادية المقطع. لم تذرف الدموع لدى ركوعها أمام تابوت رانليز، الأمر الذي لاحظه جميع الحاضرين. بقيت ممسكة رأسها بيديها دون أن تنظر حولها، ثم انعزلت بنفسها في إحدى الغرف المبنية في صدر الباحة. لم ترغب كلير ألتا قطّ في ترك أختها الكبيرة التي ربّتها كما لو أنها أمها، لكنها منذ أن أصبح لها زوجٌ وصبيّان، غدت شقة رانليز المؤلّفة من أربع غرف صغيرةً عليهم. لذلك، بنى مانو، أحد الرجال النادرين الذين ما زالوا يعلمون كيف يعملون بأيديهم، غرفتين مع حمّام كامل تحت أشجار البابايا. كان الناس في الماضي يستحمّون كيفما اتفق في غرف من التوتياء، أما الآن فقد أصبحوا يعرفون المياه الساخنة وحوض الاستحمام والدوش والشطّاف. نامت ماري نويل خلف شيش الشباك طويلاً، طويلاً للدرجة التي بدأ فيها الموجودون حول سرير رانليز بالتأفّف. علّق البعض بصوتٍ عالٍ على جحود الأطفال الذي يشبه بحراً لا قاع له. أما كان على رينالدا الحضور إلى هذه المناسبة؟ هي أيضاً جرى إخطارها برقياً، لكنها اكتفت بإرسال كمية كبيرة من ورود بيضاء تكفي لملء جِرار ومزهريات. لكن ذلك لم يرضِ أحداً. زهور؟ أتكفي الزهور حين تبدأ المرأة التي أنقذتها من الغرق وآوتها على الرغم من فقرها رحلتها الأطول؟ أثار ذلك

امتعاض الجميع، فأين كانت لتكون اليوم لولا رانليز؟ استنتج الجميع من عدم تناول ماري نويل للطعام أنها أسرفت في الشراب: كؤوس من اليانسون النجمي والكثير من «البانش». لم تصلِّ ولم ترتّل كما لو أنها لم تعد تحترم أقوال الأناشيد والمزامير. بقيت جالسة وعيناها مغلقتان، تلفّ يديها حول ركبتيها، جامدة كتمثال. لم تُظهر أيّ مشاعر أثناء الجنازة في الكنيسة، ومن ظنّ أنها ستذرف دمعة واحدة على الأقل خلال العظة خاب أمله. هذه العيون نفسها شاهدت التابوت وهو ينزل في الحفرة ليأخذ مكانه الأبدي ويُغطّى بالتراب. هي الآن عائدة إلى المنزل بخُطا تعبة، تلفّ نفسها بالثوب الأسود غير الأنيق الذي ارتدته البارحة. أعارتها كلير ألتا قبّعة وضعتها كيفما اتفق على رأسها، وبعثت في نفس من يراها إحساساً يشبه الخوف لم يفهموه. شعروا بأنها غريبة، قادمة من مكان غريب وعميق وغامض كالغابة الكثيفة بالنسبة لهم. لقد عرفوا أنهم لن يستوعبوا القصص التي يمكن أن تحكيها لهم إن رغبت في ذلك ولا الألعاب التي تفرحها. لذلك تحاشوا التكلّم معها وبقوا على مسافة بعيدة منها.

تحسّن فجأةً جوّ شهر أيلول الذي كان كئيباً منذ عدة أيام. العديد من البواخر الكبيرة اتجهت نحو جزيرة دومينيك متيحةً لضياء الشمس أن يكشف عن كامل بهائه. كاد الظلام أن يحاصر لابوانت ببراثنه التي تشبه مخالب صقر المالفيني. عاد الضياء، أشرقت شمس نهار جديد، حلّ الغد مكان اليوم دون أن يعبأ بما إن كانت رانليز هنا أم لا لتتأمل انبلاجه.

وصل جمع الحزانى إلى المنزل الذي وشّحه منظّمو الجنازات بالأسود، وحيث، تحت رائحة مسك الروم والزنبق الكبير، أخفى الموت رائحته التي لا تختلط بأي رائحة أخرى. أدرك كلٌّ من جيراردو وكلير ألتا

لدى تخطّيهم العتبة أن حياتهم مع رانليز قد انتهت. لن يرياها مجدداً وهي تحتسي القهوة أمام نافذتها، ولن يسمعا قهقهة ضحكها ولا فوران غضبها، لن يرياها مجدداً تنهض وهي تشتكي من أوجاعها. أخذا في البكاء وضمّها مانو إلى صدره. لم يحدث أن اشتكى مانو من أخت زوجته أو جادلها بحدّة أو تبادل معها الشتائم. لكن كان يظنّ أحياناً أنها تشكّل جداراً يفصل بينه وبين زوجته وأولاده. نوع من الشعور بالتحرّر طفا على سطح حزنه. حالة كلير ألتا وجيراردو مختلفة تماماً، اسمها الحسرة. كل الحاضرين وخصوصاً النساء شعروا بمصابهم، تعاطفوا معهم وردّدوا على مسامعهم جملة التعاطف هذه من ترتيلة قديمة: لا تبكوا، تحلّوا بالصبر![*]. تمالكت كلير ألتا فجأة نفسها ونشقت، وجفّفت عينيها واتجهت إلى المطبخ. وضعت عدة سكبات من اليانسون النجمي على صينية، وسخّنت الحساء الدهني. تلك وصفة أخذتها عن رانليز تستخدم فيها نقيّ عظم الثور والجيرومون واللفت والقرنفل وفصوص ثوم. رائحة هذا الطبق العائلي الذي لطالما تشاركته مع المرحومة أعاد الدمع بغزارة إلى عينيها.

لم تعد ماري نويل تفهم ما أصابها. منذ عودتها وهي تحاول أن تذكّر نفسها بأنها عاشت أجمل لحظات حياتها في هذا المكان. لسنوات، كانت ذاكرتها، كي تشعر بالحرارة، تُبرز لها صور بطاقات بريدية، المنازل الخفيضة ذات الخشب الملوّن، الأشجار التي تصل إلى قبّة السماء، أجمات الزهور البرية، وجوه مألوفة وضاحكة. رغم كل هذه التخيّلات إلا أنها لم تكن ترى حولها سوى الفقر والبشاعة. لدى مغادرتها للمطار، صُدمت بشكل واجهات البيوت عديمة اللون أو الباهتة، الشوارع المزفّتة

(*) بالكريولية في النص. [م].

على نحوٍ سيّئ، أو التي تملؤها الحفر، وحاويات القمامة المحمّلة أكثر من طاقتها، الواقفة عند نواصي تقاطعات الطرق كالحرس. لولا الشمس التي تغدق على المدينة ببريقها، لما اختلف هذا المكان ببؤسه بشيء عن «كامدن تاون» أو «روكسبيري» التي تُعلّم فيها. في ذاكرتها، فإنّ المنزل الذي ترعرعت فيه يشبه قصص الجنّيات، أما اليوم فإنه يبدو لها كوخاً حقيراً مثيراً للضحك، مزدحماً بأثاث حجمه كبير لا يتلاءم وحجم الغرف الصغيرة، وبكلّ منتجات المجتمع الاستهلاكي الرخيصة من تلفاز ومشغّل فيديو ومشغّل أقراص موسيقية وهاتف محمول. ضحكتها المخلّدة في صورة ضمن إطار مذهّب موضوع على الخزانة لم تليّن مشاعرها، رائحة الحساء المسخّن، وقرقعة المعالق، وصوت مصّ نقيّ العظام كأسنان مجوّفة، كل شيء أثار قرفها. نعم، لقد أحبّت رانليز لكن الحب يتبخّر بعد زمن كالعطر، وهذا شيء لم تكن تعلمه من قبل. في أثناء إفراغهم ما في صحونهم، أخذ الأصدقاء يعدّدون مناقب المتوفّاة، ويلفّون بكفن المومياء هذه المخلوقة ذات الدم الحار التي أحبّت الحياة والرجال. شعروا بأنها دخلت عالماً لا مرئياً، وأنها قد خرجت من الواقع. غدا الواقع الآن بالنسبة لهم ماري نويل التي رغبوا بقوّة في التقرّب منها، إلا أنهم لم يخاطروا بذلك، واكتفوا بمراقبتها صامتين. مع انتهاء التأبين وامتلاء المعدات، نهض الجميع معاً، واستأذنوا في الانصراف ضمن تبادل قُبل صاخب. اصطحب مانو جيراردو بوليوس بسيارته التويوتا الجديدة، وبقيت ماري نويل وكلير ألتا وحيدتين. وضعتا الأطباق في المطبخ حيث لم يكن ينقص أيّ جهاز منزلي، ثم جلستا على طرفي الطاولة التي يغطيها شرشف مطرّز يدوياً. أشعلت كلير ألتا التلفاز، ولعدة لحظات امتلأت الشاشة بصور سريالية لمجازر في الشرق الأوسط. نساء وأطفال يصرخون وقذائف تسقط على

الناس وتحصد أرواحهم. إلا أنهما لم تعيرا ذلك أيّ انتباه، وسألت كلير ألتا بنبرة متكلّفة: «ألديك أيّ أخبار عن أمك؟».

شعرت ماري نويل منذ عودتها بأن على كاهلها يقبع ثقل الاستهجان الذي تستحقّه رينالدا على عدم اكترائها وجحودها، ولم تعلم كيف تتخلّص منه. أجابت مغمغمة: «إنها لا تكتب لي بتاتاً. تصلني أخبار العائلة عن طريق لودوفيك. يقول لي إن كل شيء على ما يرام».

لم تقل الحقيقة. لم يخفِ لودوفيك في رسائله أن غارفي الذي أصبح مراهقاً يسبّب له الكثير من الهموم. بعد سنوات من قلة الانضباط والكسل، طُرد من الإعدادية. أراد لودوفيك إدخاله في التعليم المهني، لكنه لا يرغب سوى في التسكّع مع عصابته وفعل أعمال سيئة. لقد حصل مرّة أن اضطرّ لودوفيك لإخراجه من قسم الشرطة. حين تفكّر ماري نويل بأخيها الصغير المتمرّد والجلف والمتألم مثل ما كانت هي قبله، وللأسباب نفسها، فإن ذلك يذكي نار حقدها اتجاه أمها من جديد. قريباً سيحلّ دور أنجيلا لا محالة. لا تؤدي الطبيعة واجباتها على أكمل وجه. النساء اللواتي عشن تجربة رينالدا يتحوّلن من ضحايا إلى جلّادات. لذلك يصبحن كالأشجار الضعيفة في السافانا، تلك الأشجار النحيلة التي لا تزهر أغصانها ولا تثمر.

– أتعملين في مدرسة إذاً؟

جفلت ماري نويل. تساءلت لبرهة: هل السؤال موجّهٌ لها. توحي الجملة بأساتذة يقظين وأطفال مجتهدين يصطفّون بهدوء تحت أشجار دلب باحة المدرسة. ذلك لا يشبه بشيء عملها. المدرسة التي تدرّس فيها منذ حصولها على الإجازة تقع في وسط «روكسبيري»، وهو حيّ يشبه في بؤسه «كامدن تاون» ومأهول مثله بأغلبية سوداء وأميركيين لاتينيين.

أولئك الذين يرتادونها بغية الحصول على شهادة شِيبٌ ولديهم من العمر ما يؤهّلهم ليكونوا أجداداً. إنهم يودّون تحضير إجازة جامعية لن تقدّم لهم شيئاً إلا الاعتداد بالنفس أنهم لم يبقوا على جهلهم بعد عقود أمضوها في الطاعة في أعمال تبعث على السأم. الآخرون ممن هم في عمر المدرسة غاضبون ولا يأتون إلى المدرسة إلا ليجتمعوا ويفضحوا نظاماً يدمّرهم بعد أن دمّر أهاليهم. هؤلاء الأولاد يرغبون لأشكالهم أن تكون مرعبة، طوال القامة وضخام الجثة، شعورهم إما مجدّلة على الطريقة الإفريقية ومهملة أو محلوقة تماماً، وحلق في الأذن. الصبيان والبنات على حدٍّ سواء يحشون جيوبهم بأسلحة نارية أو بسكاكين ذات نصول حادة، ويتشاركون الكحول والمخدّرات. أما كلامهم فهو متبّلٌ دائماً بأقذع أنواع السباب وأفحشه. لكن ماري نويل لاحظت بسرعة أن كل هذا ليس إلا مظاهر خدّاعة. في قرارة نفوسهم، فإنّ هؤلاء الشباب يرتعدون خوفاً، ولا يعلمون كيف يحافظون على أنفسهم من ضراوة الحياة. محاولة فهم أو كلام يعبّر عن اهتمام أو ابتسامة تعاطف تفاجئهم جداً إلى درجة أنهم يتحوّلون من ثيران هائجة إلى حملان مسالمة. ماري نويل التي لم تنسَ مراهقتها اهتمّت بالاستماع إليهم وبإرضاء أذواقهم قدر المستطاع. لذلك كان برنامجها المدرسي يثير الدهشة. كُلِّفت بتدريس الآداب الفرنسية في مكان لا أحد يكترث فيه بها، إلا أنها لم تحاول فرض قصص لافونتين ولا التراجيديات الكلاسيكية ولا الأخلاقيين ولا فلاسفة القرن الثامن عشر، لا شيء مما يُدرّس عادة. الكاتب الذي تعود إليه سنة بعد سنة هو جان جينيه. إنه يغوي. عموماً تسامح الطلاب معه في كلّ شيء إلا مثليّته الجنسية. كان يثير نقاشات حادّة لا تنتهي حول الإقصاء والكولونيالية والسرقة والسجن والحب والجنس والذكورية التي اعتقدوا أن الآداب لا تتطرّق لها. على

ماري نويل شكر طلابها، فبفضلهم استطاعت إيجاد موضوع أطروحة الدكتوراه خاصتها، وبمساعدة أنثيا استطاعت أن تنشر عدة مقالات في مجلّات جامعية، حتى أصبح لها اسم في هذا المجال.

- ألديك أولاد؟

هزّت ماري نويل رأسها بحيوية. لا، الحمد لله!

بالطبع هناك مولارا التي تتسلّى أمام أنثيا باعتبارها ملكاً لها. كانت مولارا تزداد حكمة وفضيلة. وضعتها أمها في مدرسة متميّزين، وفي عمر التاسعة باتت تتقن أربع لغات أوروبية: الفرنسية والإسبانية والألمانية والروسية. قريباً سيجيء دور اللغات الإفريقية. أيضاً تعزف على البيانو وعلى الفلوت وتسحر الآذان بمعزوفاتها. حين ترافق ماري نويل وأنثيا في زياراتهما إلى المتحف تُدهشهما بأسئلتها. مع كل هذا لم تكن متكبّرة، بل بهيجة وليّنة ومصدر سعادة في المنزل. عدا هذه الطفلة التي اختارتها لنفسها، لم تكن الأمومة متاحة لماري نويل. في حالتها، كانت الطبيعة الأم متبصّرة فجعلتها عقيمة. أصرّت كلير ألتا: «كيف هذا؟ أأنت عزباء؟!».

كانت نبرتها تدلّ على الشفقة، وهذا أمرٌ طبيعيّ. فماذا يمكن للمرء أن يتوقّع من امرأة تمتلك مع زوجها وابنيها بيتاً لا ينقصه شيء؟ وافقت ماري نويل. هي تعيش في شقة لا تحتوي على وسائل الراحة، ولكن لحسن الحظ لا تبعد سوى بضع خطوات عن منزل أنثيا. حين انفرط عقد فرقة «M.N.A» لم يطاوعها قلبها أن تهجر «كامدن تاون» التي كانت عزيزة عليها ومألوفة في بشاعتها وفوضاها كوجه مسخ. لقد تعلّقت بواجهات المنازل المهترئة، المتفحّمة كما لو أنها تعرّضت لحريق، بالنوافذ المغلقة بألواح

خشبية، بأكياس البلاستيك المتراكمة على الأرصفة. نعم، لقد كانت وحيدة إذا استثنينا قطّة الجيران التي ورثتها عنهم، والتي تلد بطوناً من ستة بشكلٍ منتظم، والطالبة الهاربة التي تنام على فرشة في مكتبها، والرجال الذين تتعرّف عليهم هنا وهناك ويشاركونها مضجعها. لقد هجرها ستانلي وتيري، كلّ واحد في وقته وعلى طريقته.

يا للغرابة! الآن، حين لم يبقَ من ستانلي سوى بضع أسطوانات غير مبيعة في المتاجر، بدا لها أنها أمست تفهم موسيقاه أفضل. باتت تستمع إلى سيمفونية العالم الجديد وعيناها تدمعان من شدة التأثّر، ذلك أن تعقيد التآلف الموسيقي فيها لم يعد ينفّرها. تغلق عينيها وتطلق العنان لمخيّلتها أن تحلّق من تآلف إلى آخر، وتعود إلى الوراء في الزمن. لقد أصبحت أفكار ستانلي أكثر عقائدية بعد مهرجان سان دومينغو. في بداية كل حفل، كان يلقي خطابات لا تنتهي حول الموضوع المملّ نفسه: جمال الهجرات حاملة ثقافات المستقبل وإبداعها. في بعض الأمسيات، يترك الجمهور المغتاظ القاعةَ قبل حتى أن يعزف علامة واحدة. لكن ذلك لم يخدع ماري نويل التي تعلم أنه لا يتوقّف عن الكلام، ولكن شعلةً ما قد انطفأت في داخله. في الأيام الأخيرة عاش بالقرب منها مثل زومبي. منكبّاً على تأليف ما سمّاه «أوراتوريو» في الوقت نفسه الذي ينظُم فيه قصائد سيمفونية. كل هذا بقي غير منتهٍ عند مماته. أوراق مكتظّة بعلامات مخطوطة باليد وضعتها لترقد في الدروج. وصلت إلى مسامعهما أصوات أطفال رقيقة حادة. إنه مانو الذي عاد ومعه راندي وكيفن، اللذان أُبعِدا عن جوّ الموت.

.2

استيقظت ماري نويل في عزّ الظهيرة. فيما ضوء النهار يغرس سكاكينه في درف الشبابيك التي تتوهّج شفراتها المعدنية بصمت. لقد مضت سنوات لم تنَم فيها مثل هذه المدة الطويلة. لكنها مع ذلك حلمت حلماً مزعجاً ما زال يثير الاضطراب في نفسها بعنف مثل كابوس.

لا تعلم أين كانت موجودة. الوقت ليل. القمر هلالٌ مقلوب في كبد سماء مضيئة لا تعكّر صفوها أيُّ غيمة. أشعّته تنير هضبة كلسية محفرة، دوديّة الأخاديد، تنخسف نحو البحر الذي يُسمع وهو يصرخ كامرأة مجنونة. ما من مسكن على مدّ النظر سوى دار صغيرة تغطّ في ضياء القمر. كانت لتبدو مهجورة لولا وجود كلب من جنس الكلاب الكريولية العابسة والهزيلة التي يحب الأطفال ملاحقتها ورميها بالأحجار. علمت ماري نويل أن عليها الاقتراب والدخول، لكن رجليها الثقيلتين كما لو أنهما مُصابتان بالحمرة ترفضان التجاوب. انفتح الباب فجأة. لم يخرج أحد وبقي الباب موارباً يخفي خلفه طيفاً رهيباً رهابة الفراغ الفلكي. ثمّ انغلق الباب مُصدراً صريراً ومبيّناً للناظر سطحه الخشبي القاسي.

هرعت ماري نويل لترفع الستائر وترى ما في الخارج. لقد نسيت

هذه الألوان: لون أوراق شجرة البابايا الخضراء، الأخضر الغامق والمائل للذهبي للثمار في أعلى الجذع، الأزرق الواسع لون السماء في الأعلى. كلير ألتا تنشر الغسيل وصغيرها الأخير متشبّث بتنّورتها. ألبسة أطفال وملابس داخلية رجالية ونسائية تصفق فيها الريح كطائرات ورقية. دبّت الغيرة في ماري نويل من هذه الحياة التي تخيّلتها خالية من المشكلات، تزخر بأحداث بسيطة كالزواج والولادة ودخول الصبيان المدرسة. لقد أتت إلى غوادلوب في مهمة محددة وهي إحقاق العدالة لرينالدا، لكنها خافت فجأة وتراجعت، فلم تكن تعرف كيف ستقدّم نفسها في «إيل لاغو دي كومو» ولا ما ستقول حين يجري استقبالها. ولِتُؤخِّر موعد المباشرة بمهمتها، كادت أن تعود وتحشر رأسها في المخدّة المعطّرة برائحة النجيلية الممزوجة برائحة أخرى يصعب تحديدها تذكّرها بطفولتها. لكنها نجحت أخيراً في أن تسبّب السوء لنفسها.

عصَّ قلبها لمّا وصلت إلى شارع «نوزييه». لقد حذّرتها كلير ألتا، وأخبرتها بأن «إيل لاغو دي كومو» لم يعد موجوداً، المنزل العالي والخفيض حافظ الأسرار قد حلَّ محلّه بناءٌ أسمنتي مع شرفات ودرفات شبابيك مزيّنة. حلَّ محلّ متجر المجوهرات صيدلية حديثة جداً، حيث أشكال المتسوّقين تنعكس على الواجهات وخزانات الأدوية الخشبية الملمّعة. لا ينقصها شيء، من حليب الأطفال حتى بسكويت الكلاب مروراً بالخلطات المنحّفة المضمونة. يحب السيّد تيودور الصيدلي النساء، بدا لها ذلك جليّاً مباشرة. «إيل لاغو دي كومو؟ عائلة كوبيني؟ كان ذلك ماضياً ولّى، الزمن الذي مات ودُفن. لم يعد هناك من جواهريين إيطاليين ولا باعة متجوّلين لبنانيين. مهاجرو اليوم هم من جيراننا الهايتيين،

وسكّان جزيرة «دومينيك» أو «سان دومينغ». فضلاً عن المتشرّدين مدمني المخدّرات الذين أتوا بنقائصهم وقيافتهم المضحكة من المتروبول. السيّد تيودور متأكّدٌ من أن السيّد كوبيني قد توفي منذ زمن. حين اشترى أهله هذا الطابق الأرضي كانت تشغله صيدلية أيضاً، صيدلية «دوليتانغ». طرحت ماري نويل بصعوبة بضعة أسئلة أخرى، إذ ودّت أن تعرف ماذا حلَّ بباقي العائلة بعد وفاة الأب. لم يستطع السيّد تيودور الجواب على أيٍّ منها، لكنه وعدها بأن يستعلم بعد أن رأى خيبة الأمل بادية على وجهها. هل بإمكانه أن يأخذ رقم هاتفها؟

خرجت ماري نويل إلى الشارع حيث الناس إما في عجلة للّحاق بأعمالهم من دون تأخير، أو يتسكّعون. أصابها ضجيج السيارات والدرّاجات النارية بالصداع. لم تكن ترى شيئاً مما يدور حولها، وتولّد لديها الانطباع بأنها قد تعرّضت لعملية سرقة من القَدَر الذي وضع يده على طفولتها، وجرّدها مرّة أخرى من حبّ أمها لها. في الحقيقة لم تكن تتوقّع من جيان كارلو أي شيء يمكن أن يتوقّعه أحدٌ من أبيه، لا العاطفة ولا الدعم ولا المساعدة المادية، ولا حتى الاعتراف بأبوّتها بشكل يشبه تحوّلاً مفاجئاً في أحداث روايةٍ ما. أرادت بكلّ بساطة أن ترى ملامحه، أن تعرف صوته. لم تكن في حضرته سوى مرة واحدة في الثامنة أو التاسعة من عمرها. لذا حاولت أن تنبش في ذاكرتها وتستخرج منها أكبر قدر من المعلومات عن ذلك اللقاء القصير. لقد كان وسيماً، ما زالت تذكر. لا تدلّ هيئته على قسوة أو شرّ، سمينٌ قليلاً وحسب. تذكّرت شعره الرمادي اللون كالفضة، المتجعّد عند نقرته، عينيه الواسعتين. لا تعرف ما إن كان طويلاً أم قصيراً. ربما كان يلبس طقماً وقميصاً أبيض منشّى وقبّعة كولونيالية مثل

كل الرجال في ذلك الزمن. لديها انطباعٌ مبهم بأن المتجر كان مليئاً بنساء ذوات بشرة شاحبة وهندام فقير، يعتمرن مانتيلا بيضاء. فتيات صغيرات كنّ يؤدّين واجباتهن المدرسية في إحدى الزوايا، لا بدّ أنهن أخواتها غير الشقيقات اللواتي لا تعرف عنهن شيئاً. لا أحد يعلم عنها شيئاً في هذه العائلة التي كانت عائلتها. إنها الفسيلة المنسيّة.

فجأة أرخت الحرارة بكلّ ثقلها على نقرتها. كادت تسقط، فدخلت إلى مقهى لا يبعد سوى بضع خطوات عن ثانوية، نظراً لوجود عدد كبير من اليافعين، صبيان وبنات. مع كل هذه الحقائب المدرسية المحمولة على الظهر والأحذية من نوع «نايكي» والقمصان القطنية وبناطيل الجينز، كانوا لا يختلفون بشيء عن الطلاب في «روكسبيري». لكن التشابه يتوقّف هنا، فهم يتكلّمون ويتبادلون المزاح بالكريولية. الكريولية؟ إنها بالنسبة لها اللغة المنسية، تلك التي تشكّل عالماً لم تعد تنتمي إليه، ولكن تشعر بالحنين له أحياناً. كما جرت العادة في طفولتها، طلبت عصير قصب السكر، فأتاها جواب جاف بأنهم لا يقدّمون هذه العصائر هنا، فاختارت، كما يفعل جيرانها، شرب الكوكا كولا. شربت منها جرعتها الأولى حين دعاها أحدهم للانضمام إلى طاولته. لم يكن شخصاً مجهولاً. جود أنوزي. قد عرّفوها عليه البارحة وحفظت اسمه لأنه يذكّرها بعض الشيء بتيري. لم يكن هذا اللقاء محض مصادفة، لا بدّ أنه سأل كلير ألتا ولحقها. تساءلت عما يبغي منها. ألا يشعر بأنها تجلب الحظّ السيّئ؟

تيري شعر بذلك حقاً، وهو أول من هجرها دون أن ينبس بكلمة. لم يترك شيئاً ظاهراً على طاولة غرفة السفرة سوى رسالة طويلة موجّهة إلى ستانلي طلب فيها ألّا يفهمه خطأً. إنه يعشق موسيقا «M.N.A» ويحترم

جداً عبقريته، لكنه ملّ هذه الحياة القذرة. ذهب إلى تورونتو لينضم إلى أوركسترا صديق من هاييتي. لا ضير في نهاية الأمر أن يعزف المقطوعات الراقصة لجمعيات المهاجرين.

مع رحيل تيري، عاد ستانلي ليشغل مكانه في سرير ماري نويل. كما لو أن كل هذه الشهور الماضية عبارة عن وقت مستقطع ليس ذا أهمية إلا لها. كما لو أن ماري نويل ليست بالنسبة لتيري ولستانلي سوى جسد راضٍ تتبادله الأيادي. رحل ستانلي بعد ذلك، دون أيّ كلمة هو الآخر. على الرغم من جهودهم، لم يستطع رجال الشرطة الوصول إلى نتيجة نهائية. كان «ذا لاست ريسورت»، نادي الجاز المحبّب لستانلي، حيث يعزف أحياناً وحيداً بعد أن تركه موسيقيّوه، وبقي وحيداً مع ماري نويل في «كامدن تاون»، يتمتّع بترّاسٍ كبير يطلّ على نهر «شارلز». في الصيف تستقرّ طيور البيقويقة السلطانية في المستنقع حيث تتشابك مناقيرها وأعشاب الضفاف. في الشتاء، يتجمّد النهر على مدّ النظر ويعكس ضوء القمر على سطحه القاسي والأملس. من الممكن أن ستانلي الذي انجرف يوماً بعد يوم في بخار الكحول قد ذهب بعيداً، وأن الجليد الخائن انكسر تحت وزنه، أو أنه قد تعمّد أن يمشي متجاوزاً الحد الآمن. استُخرِج جسده المتصلّب من البرد على بعد عدة أمتار داخل النهر. الفرضية الثانية هي تلك التي اعتمدتها ماري نويل لأنها تحقّقت منها، فستانلي لم يعد لديه من كلام في فمه أو من أحلام في رأسه يجمّل بها واقعه. لمَ العيش إذاً؟ حين يستلقي فوقها، يبثّ برودة جسده الميت في جسدها. كلّ ذلك خطؤُها، ولم تستطع طبيبة أنثيا النفسية أن تقنعها بالعكس.

نظرت إلى جود أنوزي الجالس قبالتها بهيئته الخرقاء. لو أنه أكثر

حكمةً لهرب منها على الفور. عوضاً عن ذلك أخذ يتكلّم كلاماً لا قافية له ولا منطق فيه:

- لا بدّ أنك تعلمين أنه في هذه الديار على المرأة أن تكون بصحبة رجل دوماً وإلا ستُحتقر. سأعطيك يدي وأرافقك أينما ذهبت. سأساعدك في اكتشاف كل ما ترغبين. اعتباراً من الغد سأصحبك لعند أمي. هي لا تعرف القراءة والكتابة، لكن كل ما حدث في هذه البلاد محفور داخلها، في ذاكرتها إلى الأبد.

لم تكن كلير ألتا مسرورة من ماري نويل، فهذه الأخيرة رفضت لها طلبات عدة. رفضت أن ترافقها إلى قدّاس الأحد الكبير متذرّعةً بأن ليس لديها شيء ترتديه. رفضت أن تزور صديقات رانليز اللواتي عرفنها رضيعةً ثم فتاةً صغيرة، بحجّة أنها لم تعد تتذكّرهن. رفضت أن تذهب معها إلى السوق لأنها لا تحب ذلك. لم يكن لديهما أي شيء تتحدّثان به. حين تتناولان طعام الفطور معاً لا تتبادلان أيّ أحاديث، في الوقت الذي تفقد القهوة فيه طعمها وحرارتها في الفناجين. عند الظهيرة، لا تكمل ماري نويل صحنها، ثم تغلق على نفسها باب غرفتها من أجل القيلولة دون أن تنتظر نشرة الجنازات على الراديو. في المساء، يلعب مانو دور الشخص الممتع كما يفعل دائماً مع النساء. يضع لها آخر الصرعات الموسيقية في المسجّلة، ويعتذر لأنهم في حالة حداد تمنعه من أخذها للرقص، ويصف نوادي البلد الليلية لها. لكن من الواضح أن لا شيء من كلّ هذا يستحوذ على اهتمامها. لم تكن تهتم بالذهاب في رحلات. في أحد أيام السبت، صحبها إلى شاطئ «دي هي»، لكنها لم تسبح وبقيت على الرمل تتأمل بملل خطّ الشاطئ المنحني الذي يندهش السيّاح من العالم أجمع لرؤيته.

رغم كل شيء فإنّ كلير ألتا مسرورة من المنحى الذي تأخذه حياتها. لم تجد ماري نويل والدها، وما الغضاضة في ذلك! لقد وجدت رجلاً. هذه العودة إلى الديار التي لطالما تمنّتها رانليز حتى يوم مماتها أصبح من الممكن أن تتحقق. من المؤكّد أن جود أنوزي ليس الأفضل بين الرجال. لقد كان أستاذ رياضيات، أخبل قليلاً، يرأس جمعية تُعنى بالدفاع عن البيئة. غدت غوادلوب مشوّهة حسب رأيه، قبّحتها أساطيل السيّارات وأفواج السيّاح المستمرة، حرثته الأبنية الأسمنتية، والطرقات، والطرقات السريعة، والمستديرات، والعقد، والمخارج، دنّستها القذارة بكلّ أشكالها. كثيراً ما تراه يرمي اللعنات من على شاشة التلفزيون كلّما أُتيحت له الفرصة، دون أن يكترث الناس لما يسمعونه منه. ماذا يريد هذا؟ كان حالماً يريدنا أن نعود إلى زمن العربات التي تجرّها الثيران والبيوت المبنية من صناديق الصابون على أربعة حجارة. لقد ماتت غوادلوب الجيل السابق. إنها تتطوّر مثل بقية العالم حتى وإن كان الأمر لا يعجب البعض.

لا حاجة لجود وماري نويل بالذهاب إلى البلدية أو الكنيسة. أصبح الجميع هذه الأيام يحتفلون بالفصح قبل شهر الصوم الكبير. في الكنيسة لم يعد هناك من سبت مخصّص لأولاد الحرام. حتى البرجوازيون يعيشون معاً بلا زواج، ولم يعد أحد يهتمّ لمعرفة ما إن سال دم على فخذي العروس ليلة الزواج. كانت كلير ألتا مستعدّة لأن تقدّم أيّ شيء بغية معرفة الحديث الذي تبادلته ماري نويل مع جود أنوزي حين التقيا بعد الظهر. لكن مظهر ماري نويل غير المهتمّة ثبّط عزيمتها، فلم ترد طرح أيّ سؤال. دون أن تقول لها شيئاً، شاهدتها وهي تخلع ملابسها أمامها كاشفة عن جسد فيه من العظام أكثر مما فيه من لحم، ومن الأخاديد أكثر من النتوءات. وما إن

وضعت رأسها على المخدّة وغطّت نفسها بالشرشف حتى الذقن غير عابئة بالحرارة الخانقة، حتى طلبت بنبرة طفولية خاشعة: «حدّثيني عن أمي!».

عن رينالدا؟

فاجأ السؤال كلير ألتا. ماذا يمكن القول عنها؟ لقد شغلتا الغرفة الصغيرة المتموضعة خلف غرفة رانليز، ونامتا في السرير نفسه. رينالدا كانت صموتة وشخصية. لكنهما غدتا قريبتين أكثر من أختين. تشاركتا كل شيء: الأثواب، وأثواب يوم الأحد، والصنادل البلاستيكية والجلدية، وأحذية للذهاب إلى القداس، وسبحات. هنالك كنزٌ واحد لا تتشاركه رينالدا مع أحد: كتاب صلاة مرسومٌ على غلافه الأبيض وجه الطفل يسوع، سميك كقاموس، حوافه مذهّبة. يحتوي على صورة مقدّسة كل صفحتين من قبيل ملاك جناحاه مفتوحان، أو القديسة العذراء أو المسيح المصلوب. كانت رينالدا تبكي دوماً وهي تتصفّحه، ولكنها لم تبُح قطّ باسم الشخص الذي أهداها إياه. لم يُبدِ قاطنو قناة «فاتابل» أيَّ لطافة تجاه رينالدا. الكثير من الحكايات حول الحمل. ظنّوا أن صمتها يخفي سرّاً رهيباً، سرّاً يسبّب لها الكوابيس. كانت تبكي ليلاً كطفل صغير وتصرخ: «لا، لا!» حين ولدت طفلتها، من الواضح أن والدها ذو بشرة فاتحة اللون. فالصغيرة بيضاء كالحليب. لكن الرجال فاتحي البشرة كثرٌ في غوادلوب، خصوصاً أنه في ذلك الوقت، بسبب مؤيّدي الاستقلال، عجّت الشوارع بقوات حفظ النظام مع هراواتهم.

شعرت كلير ألتا بالكثير من الحزن لمّا ذهبت رينالدا إلى المتروبول، وخصوصاً أن الأمر قد تقرّر فجأة. في أحد الصباحات، استيقظت وهي تهدس بقصة مكتب تحفيز الهجرات هذه. قالت إنها ذهبت إلى مكاتبهم

دون أن تخبر أحداً. حضّرت ملفاً كاملاً، وجرى تشغيلها عاملة منزل بكلّ سهولة. ادّعى جيراردو بوليوس أن ذلك مستحيل، لأن كل متقدّم يخضع لدراسة سلوكية في البلدية، فالمتروبول ليس بحاجة إلى مجرمين ومشرّدين. كل العائلة أملت بالحصول على أخبار من رينالدا، وترقّبت رانليز ساعي البريد يومياً دون جدوى، لا شيء، ولا حتى رسالة أو بطاقة بريدية واحدة. مع ذلك لم تنزعج كلير ألتا، ولم تظن أن رينالدا جاحدة كما فعل محيطها. لقد فهمت أنها جزء من حلم سيّئ تحاول الأخرى بشدّة محوه من ذاكرتها. ما تزال حتى اليوم تذكرها في صلواتها. في تلك اللحظة لاحظت كلير ألتا أن النعاس غالب ماري نويل، مثل طفل في منتصف القصة التي طلب أن تُحكى له. أخفضت الستائر وخرجت من الغرفة. كان المنزل يغرق في الظلام والأولاد في النوم. خرج مانو بعد العشاء لينضمّ إلى رفاقه -ربما إلى خليلته؟- الذين لا يتركهم حتى ساعات الصباح الأولى. ردّدت كلير ألتا وهي تعبر باحة المنزل الحكمة التي أصبحت شعار حياتها: «لا عين ترى ولا قلب يحزن». في أسفل الحيّ، إحدى المناطق التي لم تهدمها البلدية لتبني محلّها سكناً اجتماعياً أو سكناً اجتماعياً جداً، كانت لابوانت تغطّ في النوم. نسيم الليل يحمل في حناياه حرارة موسيقا الزوك(*). كلير ألتا ما زالت تحمل في قلبها الموسيقا الهاييتية التي أشعلت الأجواء في الحفلات الراقصة أيام بداية حبّها مع مانو، فلقد تعانقا والحب يجمعهما على أنغام موسيقا «شلو شلو». انهارت فجأةً باكية دون أن تعرف لِمَ.

داهم ماري نويل تلك الليلة الكابوس نفسه: الدار العارية على الهضبة الكلسية المدمّرة.

(*) موسيقا منتشرة في جزر الأنتيل، تتميّز بإيقاع سريع. [م].

.3

لا أحد يعلم من أين أتى هذا الحظ السيّئ الذي أصاب العائلة، كما لو أنها تكفّر عن إثم كبير اقترفه أحد أفرادها في الخفاء. بعد وفاة زوجة أخيهم المحبوبة أركانيا، لم تمضِ ستة أشهر حتى أتى دور العمّتين زيتا وليا لسلوك درب مقبرة «بريسكاي». توفّيت الاثنتان في الأسبوع نفسه، بسبب جائحة تيفوئيد رهيبة لم يُرَ مثلها منذ جائحة عام 1937 التي جلبتها ثيران «بورتوريكو» معها، تلك الحيوانات الضخمة ذات الخطوم الخفيضة التي كانت تُضرَب بالسياط لإنزالها من القوارب الراسية. دُفنتا تحت حجر واحد، جنباً إلى جنب كما عاشتا. كل يوم أحد، تأتي بنات أخيهما لنزع الأعشاب من محيط القبر وزرع أزهار زنبق ومسك الروم مكانها. بعد فترة جاء دور جيان كارلو في الوفاة بطريقة انحفرت في كلّ المخيّلات. ترمّله المزدوج لم يجعله سوداوياً، راح يتأمّر على خادمته وشغيلته الجواهريين وبناته كطاغية. صوته يصل إلى ساحة «لافيكتوار» حين يغضب. يقال إن أطفاله أصيبوا بالتأتأة التي جعلت من كلامهم غير مفهوم من شدّة الرعب الذي يثيره في نفوسهم. في أحد الأيام عند الظهيرة، أنهى تناول طعامه بتذوّق مانغا «ديليس»، ومن تأثير الغضب الذي شعر به بلا شك نتيجة

انجذاب الذباب إلى العصير الحلو الذي يملأ فمه ووجنتيه، أتى بحركة سريعة جداً وحمقاء، وغرس السكين في محجره الأيسر، فنفر الدم على الشرشف الأبيض. أُسعِف إلى المستشفى العام حيث اعتنى به الأطباء أفضل عناية. إلا أنه فقد عينه وأصبح يضع واقية جلدية كانت، الحق يُقال، تلائمه جيّداً وتعطيه هيئة قرصان. تخيّلوا.. جواهري أعور! لم يعد بإمكانه تمييز الأحجار عن بعضها، ولا لوي خيوط الذهب ولا تركيب الأحجار. انهارت سمعته وبدأ الزبائن بهجره، الأمر الذي نتج عنه أنه أخذ في شرب الروم أكثر مما يجب. في أحد المساءات التي ثمل فيها، أشعل النار في شراشفه ومات حرقاً. المسافة بين هذه النار ونار جهنم قصيرةٌ بالنسبة لأهل لابوانت، الذين كان اسم جيان كارلو كوبيني مرادفاً للشيطان المتجسّد في نظرهم. بين ليلة وضحاها، غدت بناته يتيمات، دون أب ولا أم، والأنكى من ذلك، دون موارد، لأن جيان كارلو ترك خلفه العديد من الفواتير الوهمية والديون التي سبّبتها استثماراته النزوية الخطرة. لتسديدها اضطرّوا إلى بيع منزل شارع «نوزييه» والمجوهرات في المزاد العلني. جذب المزاد أعداداً غفيرة من الناس تسابقوا على اقتناء القلائد ودبابيس الزينة والأحجار والمينا. لحسن الحظ كان في ميلان أقرباء محبّون لم ينسوا فرع العائلة الموجود في غوادلوب. ركبت الفتيات الطائرة المتجهة إلى إيطاليا وهنّ يبكين بحسرة على هجر قبور اللواتي أحببن، التي لم يعد هنالك من يزيّنها بالأزهار لدى حلول عيد جميع القديسين. وحدها البنت البكر، فيوريلا، بقيت في غوادلوب. حين قرّرت عدم الكلام مع أبيها وطلبت أن تلتحق بأخوات الرحمة في «باس تير»، وجدت لها المطرانية عائلة بديلة، آل ديمونيكو. رغم اسمهم إلا أنهم ليسوا إيطاليين، بل خلاسيين بشرتهم سوداء إلى حدٍّ ما، على الرغم من مظاهر الرقي التي

يُبدون. كانوا يربّون أخوية من سبعة أطفال أو ثمانية في ڤيلا في شارع الخندق أسموها اسماً يفتقر للأصالة: ڤيلا ميلودي، حديقتها عبارة عن غابة من أشجار الليتشي. السيّد ديمونيكو قاضي تحقيق في محكمة بداية «باس تير». وزوجته تعطي دروساً لأطفال الحضانة. الاثنان علما أن فيوريلا تتكتّم في قلبها على سرٍّ رهيب بالنسبة لها. سألوها مرّاتٍ عدّة، وانتهى بها الأمر أن باحت بنتفٍ منه. اختفاء رينالدا كان خطأ نينا. لقد عاملتها معاملة سيئة منذ صغرها، ورغبت في أن تُخرجها من مدرسة «دوبوشاج» لتشغّلها خادمة تعمل كلّ شيء، الأمر الذي خشيته رينالدا أكثر من الموت. استغلّ السيّد ديمونيكو سلطته ليفتح تحقيقاً لم يُفضِ إلى شيء. في اليوم الذي اختفت رينالدا فيه، لم تسجّل الشرطة أيّ أحداث مهمة. ما من انتحارات وما من أطفال هاربين. لم يكن في سجلّاتهم سوى الأشياء الاعتيادية مثل النساء المعنّفات والمطرودات من قبل أزواجهن الغاضبين، والعراكات في بارات الريجي حول كأس من الروم، والجيران غير المتفاهمين الذين يقطعون أجزاء من أجساد بعضهم البعض باستخدام الساطور. هنالك أطفال ثمانية احترقوا في كوخ حقير على ضفة القناة أثناء غياب أمهم، لكن ذلك لا يمتّ لقضية رينالدا بأيّ صلة. بالطبع هنالك سجلّات عن اثنين أو ثلاثة من حديثي الولادة تُركوا ليتعفّنوا في دلاء للفضلات، لكن رينالدا لم تكن حاملاً، وإن كانت حاملاً فإن فيوريلا واثقة بأن رينالدا لن تعمل عملاً وحشياً كهذا. تحت إلحاح السيّد ديمونيكو، استُدعيت نينا مرة جديدة إلى قسم شرطة الحيّ الرابع. حضرت هذه الأخيرة دون أن تلقي التحية على أحد، وشرعت تنظر إلى الشرطة مثل حصان رمى الفارس من على صهوته. ثم هزّت كتفيها:

– لغز وعلكة! ليس لديّ أدنى فكرة عمّا كان يدور في خلدها. لم

تتشارك رينالدا معي أمور حياتها، لقد كانت منغلقة على نفسها، بل ذات وجهين. لا تتكلّم إلا مع فيوريلا، الفاجرة مثلها. كل ما أعرف هو أنها عاشرت الكثير من الرجال منذ وقت طويل. لا بدّ أنها هربت مع أحدهم. لا بدّ أنها الآن تلعب دور السيّدة الراقية في جزيرة دومينيك...

عندما علمت بحجم الشرور التي قالتها نينا، شرعت فيوريلا بالبكاء كمريم المجدلية، ثم دخلت في نوبة غضب كبير، وباحت بكلّ ما تكتم في صدرها، القصة كلّها. دُهش كلٌّ من السيّد والسيّدة ديمونيكو دهشة كبيرة. خوفاً على براءة بناته، جعلها السيّد ديمونيكو تحلف أنها لن تحكي هذه القصة الرهيبة لأحد. السيّد ديمونيكو واعٍ لخطورة الاتهامات التي تسوقها، إذ إنها كفيلة بإدخال المذنبين إلى السجن لسنوات. هل هي واثقة تمام الثقة من صحة أقوالها؟ تنهّدت فيوريلا بقوّة وأضافت تفاصيل إلى القصة قالت إن رينالدا حكتها لها. ذهب السيّد ديمونيكو في اليوم التالي إلى لابوانت، الأمر الذي كان نادر الحدوث. مثله في ذلك مثل أغلب سكّان «باس تير» لا يحبّذ هذه المدينة الصغيرة المحمومة والصاخبة التي تخطف النشاط التجاري من مدينته. وصل إلى «إيل لاغو دي كومو» ساعة الذروة. المتجر يعجّ بالزبونات القادمات من أبعد بقاع البلد، اللواتي يتدافعن على طاولة العرض. لم تكن العمّتان تعرفان بأيّ زبون تهتمّان، وكان جيان كارلو يسود فوق هذه الفوضى كيسوع المسيح أكثر من أيّ وقت مضى. خرج السيّد ديمونيكو كما دخل. ماذا ينوي؟ أن يدفع الجسد القضائي إلى التدخّل؟ فتح تحقيق؟ أن يشوّه سمعة حرفيّ مشهور بالاستناد على أقوال مراهقة؟ رغم أنه مقتنعٌ بأن فيوريلا قالت له الحقيقة، لكنه ليس قادراً على اتخاذ قرار. ذهب يمشي حول منزل الكهنة حيث علم أن الأب مونديشيلي، الكاهن الذي تعترف له أركانيا وصديق العائلة، قد ذهب ليعمل كاهناً في

مشفى الجذام الجديد في «بوانت نوار». تناول الطعام في «لابيل كريول» مزعوجاً من نفسه، وقرابة منتصف فترة ما بعد الظهر عاد إلى «باس تير». بقيت الأمور عند هذا الحدّ.

بعد موت والدها وعودة أخواتها الصغار إلى إيطاليا، تبنّت عائلة ديمونيكو فيوريلا بشكلٍ نهائي. انتقلت للعيش مع أولادهم، وانتهى بها الأمر أن حملت وتزوّجت ولدهم الثالث، أريستيد. لم يكن الأخير متميّزاً في المدرسة، وأصبح موظّفاً في مديرية الشرطة. لم يكن ذلك بالزواج الناجح، إذ إنّ لأريستيد كثيرٌ من الخليلات، ويحب كثيراً الخروج ليلاً. لم تهجره فيوريلا ولكنها أمضت إجازات طويلة في فرنسا عند ابنتها الشابة التي بقيت تحت جناحها رغم زواجها. لم تكن تعيش أكثر من ستة أشهر سنوياً في «باس تير».

ونينا؟

حاولت نينا أن تجد مكاناً آخر، ولكن إشاعات مشوّشة وأخباراً مشوّهة سرت عنها. كان أهالي لابوانت يخافون منها ويعتبرونها روح جيان كارلو الملعونة. لم تستمرّ لمدة طويلة في العمل لدى اللبناني الذي شغّلها مربّية لأطفاله، فقد اشتكوا أنها في موجات غضبها تقرصهم حتى يخرج الدم من أعضائهم. ولتأكيد كلامهم يبرزون أذرعهم المنقّطة بالأحمر. كما أنها لم تستمرّ طويلاً لدى المتقاعد على الكرسي المتحرّك الذي شغّلها لتحضّر له الطعام. لقد كانت تترك الطناجر عمداً على النار طويلاً، وتقدّم له أطباق «جيرونوماد» محروقة. لم يبقَ لديها من خيار سوى العودة إلى ديزيراد، جزيرتها التي ولدت عليها، والتي لم تزرها منذ أكثر من عشر سنوات.

هل ما زالت دارها صامدة؟

شعرت ماري نويل بالإحباط حتى كادت أن تعاود البكاء من جديد، هي التي كانت لا تبكي مطلقاً. كما لو أنها تعيش كابوساً مزعجاً، راحت تتخيّل نفسها في ظلام حالك تقطع أراضي ديزيراد الصخرية، وبيدها قنديل، باحثةً عن نينا تيتان في كلّ مكان، وينتهي بها الأمر أن تتعثّر بقبرٍ وحيد في مقبرة بحرية. أجرت حسبة سريعة. لا يمكن لنينا، التي أنجبت رينالدا، قبل أن تبلغ العشرين من عمرها، أن تكون قد تجاوزت الخامسة والستين، فرينالدا أنجبتها لمّا كانت في الخامسة عشرة. لا بدّ أنها ما زالت حيّة، قادرة على الحركة والرؤية...

مثل أمّ جود.

هذه الأخيرة عجوزٌ، طولها لا يتجاوز طول نجيل الهند المزروع أمام دارها ولا أضخم منه، ولكنّها صلبة، ومن الجليّ أنها ستعيش حتى المئة. بدأت قصّتها بالكريولية، لكنها سرعان ما لاحظت أن ماري نويل ضاعت، وأصبح من الصعب عليها المتابعة. لذلك استخدمت فرنسيّتها التي تعلّمتها في المدرسة، والتي غدت صدئة يتخللها هنا أو هناك أخطاء ثقيلة في تراكيب الجمل. في كلتا اللغتين لم تشعر بالتردّد ولا لحظة. مثل كلير ألتا، خامرتها شكوك حول العلاقة بين ماري نويل وجود. كان ذلك واضحاً من خلال الاهتمامات الأمومية التي تحيطها بها. يجدر القول إنه في هذه البلد لا يمكن تصوّر رجل وامرأة معاً دون تخيّلهما في الفراش نفسه. لكن ماري نويل التي مارست الجنس لفترة طويلة، خصوصاً بعد وفاة ستانلي، ليس لديها الرغبة في أن تتشارك السرير مع أحد.

إنها موجودة في المكان الذي هي فيه. لم يكن نواس الساعة يتحرّك، الوقت توقّف. بدا لها أن بوسطن حلم، وعذابها الأخير وكل شهور الحداد التي عرفت. تساءل قلبها ما إن شعر حقّاً بكلّ هذه الآلام.

أمطرت في اليوم الذي دُفن فيه ستانلي. مطر شتائي بارد كالثلج الذائب يلسع وجوه الأصدقاء القلّة الذين كانوا موجودين:ناندو وأمانديو، آوا، وعددٌ من معجبي «M.N.A». أما تيري فلقد أرسل باقة زهور من تورنتو. الأرض الموحلة تحوّلت إلى مصائد شرهة تغرق فيها الأرجل. الأفق مسدودٌ من كثافة الغيوم. والدا ستانلي وأخوه الذين لا يتحدّث عنهم بتاتاً والذين أخطرتهم ماري نويل، هرعوا للحضور من ويمبلدون، الأب والأم والأخ الأكبر. لم تستطع ماري نويل فهم الرابط الذي يجمع هؤلاء الأشخاص ذوي الأصول الكاريبية، حسني الهندام والمثقفين، مع هذا الموسيقي الملعون الذي شاركها حياتها. لا بدّ من وجود سبب. ستانلي ينتمي إلى عائلة برجوازية، ولسبب ربما لن تعرفه أبداً، انحرف إلى الطريق الخاطئ الذي التقته عليه. من أفراد عائلة «واتس» الثلاثة، كان الأب هو الأكثر تأثّراً. من شدة حزنه، طلب خدمات شركة جنائزية مكلفة لا تساوم مطلقاً في التراتيل، ولا في موسيقا موزارت الجنائزية، ولا في التابوت الضخم المصنوع من خشب الجوز، ولا في الشموع التي ظلّت مشتعلة لثلاثة أيام بلياليها. حاولت الأم ألّا تُظهر أي مشاعر سوى حزنها العميق، ولكن خلف الدموع قرأت ماري نويل العداء الذي تكنّه لكنّتها الغريبة والشكوك التي تراودها تجاهها. شكوك مستحقة جدّاً لأن كل ما حصل لستانلي هو خطؤها. لم تعرف يوماً كيف تُشعره بأنها تحبه وأنها بحاجة إليه. لم تفهم أنه عبقري، وسمحت لنفسها في قرارة نفسها ألّا تقدّر موسيقاه. في الليلة التي انحرف فيها على النهر، كقارب فاقد البوصلة، فكّرت هي برينالدا أيضاً وأيضاً. بكلمة أخرى، لا يشغل بالها سوى نفسها هي.

أم جود تسكن «غراند فون» في «غراند تير». ليس لمنزلها من إطلالة

خلّابة على البحر أو البركان. تمتد خلف كوخ القصب سافانا ناعمة تشبه العشب الإنكليزي، انتصبت في منتصف المستنقع حيث يورد الهنود حيواناتهم. الدار متواضعة. الستائر مصنوعة من القطن السميك المنقوش عليه ورود صغيرة. رسومات على شكل نصف شمس تزيّن الجدران الفاصلة بين الغرف. صور الطفل يسوع والعذراء مريم المبتسمين تتجاور وصور إعلانات الكوكا كولا وسجائر لوكي سترايك الأقل قداسة. بصوتها العذب، حكت الجدة، التي انتهت من بؤس عائلة كوبيني، ما حصل يوم الإعصار في عام 1928 الذي كان أيضاً، بكلّ فخر، يوم ولادتها. احتفظت بعناية في خزانتها بجريدة مصفرّة اسمها «لونوفيليست». حين عادت تُطبع بعد عدة أسابيع، نشرت قائمة بحديثي الولادة الذين من أجل أن يروا النور اضطرّوا أن يواجهوا غضب الطبيعة. أناستازيا، سيفوكل، هنا، ها هي ذي. بعد أن وصفت بالتفصيل البيوت التي مسحها الإعصار عن الخارطة، الأوراق والسقوف المنزوعة وأمواج البحر التي لامست السماء، انتقلت للحديث عن طفولتها المحرومة من الأحذية وأثواب الدانتيل، ولكن الغنية بالحب. في ذلك الزمن كان أهالي غوادلوب يعيشون ونوافذهم وأبوابهم مفتوحة، والحياة تمضي صافية كمياه النهر. ثم، ودون أن تلتقط أنفاسها، ذكرت الجدة بيتين من قصيدة عن الحرب العالمية الثانية: آن تان سورين(*)، كما كانت تقول، العصر الذهبي الذي صنع فيه أهالي غوادلوب صابونهم بأنفسهم. لدى سماعها تنسى اللحظات الفارقة في تاريخ الغرب. عاد ستة ملايين يهودي إلى أعمالهم وأشغالهم. لا نازيين ولا ضحايا. باريس لم تحترق. استنتجت ماري نويل من الهيئة المتخمة

(*) في زمن سورين: تشير إلى الأعوام 1940–1943، التي حكم فيها أرخبيل غوادلوب الحاكم كونستانت سورين. [م].

لجود أنوزي أنه يعرف هذه القصص عن ظهر قلب كما لو أنها كتابُ صور ملَّ من كثرة ما قلّب صفحاته. بالنسبة لها، تمتّعت بسحر القصة، وفهمت أن قيمة غوادلوب ليست بحاضرها المهدّد بل بماضيها، الأسطورة المعادة والمعدّة لاستهلاك الصغار والكبار بغية تخفيض منسوب القلق لديهم. جفلت حين عادت الأم إلى الحاضر دون تمهيد، وراحت تطرح عليها الأسئلة حول الولايات المتحدة الأميركية. دون أن تخرج من منزلها -ولا حتى للذهاب إلى القداس، فالربّ موجود في كلّ الأمكنة، ويفضّل منازل أولئك الذين احترموه طوال حياتهم- تتابع الأخبار الأميركية على شاشة تلفازها الملوّنة. أحد أحفادها أهداها الاشتراك بالكابل، وكانت تحفظ أسماء المطربين ومشاهير السينما الرئيسيين والوزراء ورئيس الجمهورية. لا تعرف ماري نويل ماذا تقول عن أميركا غير الأساطير التي تنتجها: العلاقات بين البيض والسود، التزمّت، الجنس والعنف. لا تعرف كيف تتكلّم عن حياتها، ولا أن تبرّر تعلّقها ببلد انتقلت إليه بالمصادفة كأجدادها المجيدين، ولكنه مستحوذٌ عليها. ليس لديها النيّة في أن تقضي جلّ حياتها هناك، ولكنها مع ذلك لا ترى نفسها تعيش في مكان آخر، مع العلم بأنه ليس لها من زوج أو عشيق أو طفل هناك. باختصار ليس لديها من عائلة إلا أنثيا ومولارا، وما من أشخاص غالين على قلبها إلا تلامذتها. دعتها آوا التي تعيش قصة حبّها الكبيرة في مكسيكو مراراً لتنضمّ إليها هناك، ولكنها لا تفكّر في الرحيل عن بوسطن. الولايات المتحدة مناسبة للناس من جنسها، المقهورين، الذين لم يعودوا يملكون شيئاً ولا حتى مسقط رأس ولا ديناً. ربما كان ذلك عرقاً يسير مجهولاً في حناياها المظلمة الواسعة. لن تشعر بالأمان في مكان آخر غير «روكسبيري».

دون أن ينتبهوا للوقت، شغلت أحاديث الجدّة كلّ فترة بعد الظهر.

بدأت العلاجيم العملاقة فترة راحتها، وبدأت جواميس الهنود مسيرها نحو المستنقع وهي تهزّ خطومها. حان وقت العودة إلى لابوانت. في طريق العودة كانت ماري نويل مهمومة. قرّرت أن تتابع تحقيقها في «باس تير» عن طريق فيوريلا، ولكن إحساسها يقول لها إن نينا هي من يملك مفتاح نسبها. إن أخّرت موعد التواصل معها، فذلك لأنها خائفة من نينا المرعبة، المنعزلة على صخرتها. لا تعرف ماري نويل أيّ نبرة يجب استخدامها لقول اسم رينالدا واسمها. لا تعرف ما إن كانت نينا ستفتح لها ذراعيها، أم سترفضها وتكون مستبعدة مرة أخرى.

فوجئت كلير ألتا لرؤيتهم عائدين باكراً. فمع مضيّ الأيام يتضاءل فهمها لماري نويل، وانتهى بها الأمر أن أخذت تتساءل عن سبب عودة ماري نويل إلى البلد. لم يكن ذلك تكفيراً عن سنوات من اللامبالاة، ولا لطلب مغفرة رانليز ودفنها كما تخيّلوا. بل للعدْو خلف خرافات شخصية. ها هي ذي قد منحت نفسها أباً إيطالياً مناسباً. بحثت كلير ألتا طويلاً في ذاكرتها، ولكنها لم تسمع رينالدا تأتي على ذكر جيان كارلو كوبيني ولا مرّة. صحيح أنه كلّما ذُكر «إيل لاغو دي كومو» أمامها كانت تنهار باكية، كما لو ذُكِّرت بمكان تعذيب وممارسات وحشية.

أكثر ما أثار حنق كلير ألتا هي تصرّفات ماري نويل مع جود أنوزي. لقد كان بالنسبة لها مثل عكاز أو كلب مساعدة فاقدي البصر. ليست تلك بطريقة للتعامل مع رجل. ليس لديها أيّ اعتبار لشخصه.

.4

مرّةً أخرى أخذت ماري نويل تنظر من خلال خصاص النافذة.

في الأعلى، ما زال هناك بضع قطع متناثرة من قمر ونجوم في حقل السماء. السواد، الذي أرخى بكلّ ثقله على لابوانت لساعات، ولفّها بشدّة حتى كادت تختنق، بدأ يرخي قبضته. لقد صمد إلى الآن، ولكنه فجأة بدأ التقهقر أمام بزوغ الشمس التي لا يمكنه مواجهتها. تقلّبت ماري نويل مراراً على مخدّتها المبتلّة من عرقها. راودها من جديد ذلك الحلم المزعج: الدار البيضاء ذات الباب الموارب المنتصبة وحيدة على الهضبة الكلسية، والتي تحاول جاهدة إيجاد مفتاحها. ما الذي يتقدّم نحوها آتياً من عتمة المستقبل؟ انتبهت أيضاً إلى أن ثمة فصولاً ناقصة من القصّة التي تحاول جمع أجزائها في داخلها. تلك فصول المنتصف، وذلك مردّه إلى أن رينالدا لم تحدّثها سوى عن البدايات، عن طفولتها كما لو أنها الفترة الوحيدة التي تهمّها، كما لو أن السنوات التي تبعت رحيلها عن غوادلوب حتى لقائها بماري نويل ليست ذات أهمية تذكر. على كل حال، تلك سنوات خالية من النور والدفء. باريس التي استقرّت فيها رينالدا نهاية الخمسينيات لا تشبه بشيء باريس اليوم، باريس، عاصمة الألوان، باريس

أجيال المهاجرين الثانية من زنوج وحركيين وعرب. باريس البيضاء عاشقة كاكاو «بانانيا»(*) الذي إعلاناته، التي تصوّر زنجيّاً مبتسماً يعتمر طربوشاً أحمر، تملأ جدران المترو بكلّ وقاحة. كنت ترى في وسائل النقل العامة دائرة من مقاعد فارغة تحيط بالزنجية الجالسة صاحبة اللون غير المناسب. كان الأطفال الصغار يؤشّرون بأصابعهم إلى تلك المعزولة في زاوية، في الوقت الذي يطلق فيه البالغون تعليقاتهم بصوتٍ عالٍ. بعد رحلة غير مريحة من عشرة أيام تمايلت فيها مع أمواج المحيط، ركبت رينالدا القطار البحري المسمّى «قطار الزنوج»، الذي يحمل المهاجرين القادمين من محافظات خلف البحار، من «ديبب» إلى محطة «سان لازار» في وسط باريس. في كل مرّة هنالك جمعٌ غفير من أهلٍ ومعارف وأصدقاء لم يلتقوا منذ سنوات. يتعانقون وهم يبكون ويتبادلون القبلات وأسماك الديك والعناوين وآخر أخبار غوادلوب ولامارتينيك وغويانا الفرنسية. يترافقون ويَعِدُ كلٌّ منهم الآخرين أن يتقابلوا من جديد قريباً.

ليس هنالك من أحد في هذا الجمع ينتظر رينالدا. أخرجت رسالة من حقيبتها، وأخذت تتبع الإرشادات حتى وصلت دون عناء إلى بولڤار «مالزيرب». لم تنظر يمنةً أو يسرة وإنما إلى الأعلى فقط، إلى الأرقام على الواجهات الحجرية الحزينة.

جان رينيه دوبارك جرّاح فمٍ تجميليّ مشهور، يعمل في تجميل ابتسامات رجال السياسة ونجوم السينما. وزوجته ماري قد بدأت ممارسة مهنة، ولكنها اضطرّت لتركها لكثرة ما كانت مشغولة مع أولادها الثلاثة، ولأن جان رينيه يحبّ استضافة الناس في منزله. على الرغم من هيئتهم

(*) في الأصل: «Y a bon Banania!». إشارة إلى الحملات الإعلانية للعلامة التجارية الفرنسية لمسحوق الكاكاو Banania، التي تعتبر اليوم عنصرية. [م].

المتحرّرة والبسيطة إلا أن جان رينيه وماري كانا كاثوليكيين مؤمنين وقريبين من مؤسسة الإغاثة الكاثوليكية. يدعون أحياناً ملتقطي الألبسة العاملين لدى «إيمايوس» لتناول الطعام معهم. لهذا السبب، يهتمّون كثيراً بمستقبل الخدم العاملين لديهم. إضافةً إلى رينالدا التي كُلِّفت بالاعتناء بالأطفال الثلاثة، استعان الزوجان بخدمات طبّاخة وعاملة تنظيف وسائق. خصّوا رينالدا بغرفة من دون حمّام في الطابق السادس والأخير، ولكنهم سمحوا لها باستخدام الحمّام الخاص بالأطفال. تدعها ماري تغادر العمل عند الخامسة ثلاثة أيام أسبوعياً لتتابع دروسها المسائية، وسمحت لها، بين كل زجاجة حليب وأخرى تحضّرها للأطفال، أن تكتب وظائفها. لتثقيفها، اشترت لها روايات، الروايات نفسها التي قرأتها هي لمّا كانت في العمر نفسه: مولن الكبير، غاتسبي العظيم، النزهة عند المنارة، زبد النهار. أحياناً تصحبها إلى السينما مع نتالي التي تكبرها بتسعة أعوام. تدفعها للخروج وحيدةً نصف يوم كلّ شهر، بعد أن تكون قد اطّلعت على دليل «أسبوع باريس» وأخبرتها عن المعارض الفنية القيّمة المقامة، والأمور الشيّقة التي يمكن رؤيتها.

كانت رينالدا تدوّن ملاحظات، ولكن تفعل ما يمليه عليها مزاجها في نهاية الأمر. تسلك طريقاً واحداً، تكرّره دائماً. تنطلق من بولفار «مالزيرب» حتى نهر السين، ومن هناك تتمشّى بخطوات قصيرة، بمحاذاة أرصفة النهر، إلى الحيّ اللاتيني. لا تقترب من السوربون الجميلة ولا تدخل المكتبات والمقاهي، بل تكتفي بشمّ رائحة الحرية وسعادة الطلاب من بعيد. كم رغبت أن تكون واحدةً منهم بدلاً من الخدمة أيضاً وأيضاً! «نعم سيّدتي. نعم سيّدي. شكراً سيّدتي. شكراً سيّدي!». «حاضر!»، بدلاً من لبس قناع الخادمة هذا في الصباح كما في المساء.

كانوا يقضون الصيف في مقاطعة الدوردوني حيث يرمّم جان رينيه منزلاً ريفياً بنفسه.

باختصار رأت عائلة دوبارك أن معاملتهم لها لا تشوبها شائبة. لذلك كانت خيبة أملهم كبيرة حين، بعد أربع سنوات، طرقت مستشارة دراسية باب بيتهم لتأنيبهم. عاملتهم كاستغلاليين سوقيين، وطلبت منهم أن يبحثوا عن خادمة أخرى لتعتني بأطفالهم، لأن رينالدا مقبلة على الاستفادة من منحة دراسية لدخول مدرسة المساعدات الاجتماعيات الموجودة في بولڤار B. غضب جان رينيه غضباً شديداً، وبكت ماري وهي تنصت لهذا الاعتداء اللفظي غير المستحقّ. استدعيا رينالدا. لماذا أخفت عنهم رغبتها في الرحيل؟ ألا تحبّ أطفالهم الأعزاء؟ لكن رينالدا بقيت مطأطئة الرأس أمامهم، ولم تقل شيئاً لتدافع عن نفسها. يجدر القول إن جان رينيه وماري كانا سيّدين طيّبين، ومن المعروف منذ أيام العبودية أن الأسياد من هذا النوع هم المكروهون، وأنه خلال الثورات هم من يجري نحرهم في البداية. دمهم المسفوك هو ميرون معمودية الحرية.

تركت رينالدا بولڤار «مالزيرب» بحقيبة فارغة أقلّ مما كانت عليه حين أتت، ملأتها بكنزات صوفية وأوشحة باهتة قديمة أعطتها إياها ماري. لم يتحسّر الخدم الآخرون على رحيلها، فقد اعتبروها متعجرفة. ولا حتى الأطفال الذين لم يروها تضحك أو تبتسم ولا مرة. في المساء، تأخذهم للاستحمام بوجه بارد تتجمّد له المياه من حولهم.

تخيّلت ماري نويل رينالدا وسط باريس، تسكن في بنسيون عائلي متواضع يقع في شارع «الوهمون»، تديره راهبات الروح القدس. ثلاثة سلالم مهترئة في وسطها لها درابزين حديدي مدهون بالأسود على

الجانبين، تؤدي إلى الباب الخفيض. في المطعم كل شيء مشبعٌ برائحة القرنبيط. هنالك مدفأة صغيرة غير قادرة على قهر برودة الشتاء. النزلاء من كلّ الأعمار، وريناالدا لم تكن أصغرهم عمراً ولا أكثرهم سنّاً. هنالك بائعة في مكتبة، وصبيّ يتعلّم مهنة تجليد الكتب. هي السوداء الوحيدة، والوحيدة التي تتابع دراستها. في غيابها، ودون أن يقصدوا أيّ سوء بذلك، يسمّونها تارة «بياض الثلج» بسبب لونها، وتارة «مازيل»(*) الدكتورة لهيئتها الطلابية. كانت الراهبة الرئيسة، الأخت تارسيسيوس، ذات الوجه الأجعد الذي يشبه تفاحة تحت قبّعتها المنشّاة، تواجه صعوبة في الردّ على سيل الأسئلة التي تُطرح حول هذه الشابة السوداء. لا شيء يُذكر. تحت سقف البنسيون في شارع «لوهمون» لا يلتقي إلا من هم مقطوعون من شجرة أو دون شريك في الحياة. مرّت ريناالدا مرور الكرام في البنسيون، فمنذ نهاية السنة الأولى نجحت في امتحان القبول في مدرسة المساعدات الاجتماعيات. فكّرت الأخت تارسيسيوس كثيراً، لكنها لم تجد سوى تفصيلين اثنين يستحقّان أن يجري الإخبار عنهما. عندما يكون لديها وقت، تهرع ريناالدا إلى الحمّام العمومي في شارع «موفتار»، وتبقى هناك لساعات في الكبين الخشبي الضيّق لحد الاختناق بالبخار. تحرق جسدها بالماء المغلي، ثم ترتجف تحت لسعات المياه شديدة البرودة. تقول إنها لا تشعر بأنها نظيفة كفاية. في الليل، تدهمها كوابيس وتزعج شركاءها في الغرفة، الأمر الذي جعلهم يضعونها في غرفة أخرى تتشاركها مع يهودية عاشت الهولوكوست. عدا ذلك، ريناالدا لا تخرج بتاتاً في المساء، ليس لديها أصدقاء لا نساء ولا رجال. لن نتكلّم طويلاً عن السنوات الثلاث

(*) تهكّم على طريقة لفظ سكّان المستعمرات القديمة لكلمة آنسة في الفرنسية. [م].

التي قضتها رينالدا في بولڤار «B»، فليس فيها ما هو مهمّ. تعطي الصورة الفوتوغرافية للدفعة التي تخرّجت عام 1967 -ثلاثة صفوف لفتيات يلبسن البلوزات البيضاء- فكرة عن جسدها الذي كان كما لو أنه ليس موجوداً إطلاقاً. القليل جداً من اللحم، تقف في الصف الأول لقصر قامتها، العيون مخفّضة، الشعر مسبل نوعاً ما. مصفّف على شكل كعكة مثبّتة بدبّوس شعر. مهنة المساعدة الاجتماعية التي كانت قد اختُرعت مؤخراً لم تكن طبيعتها محدّدة بشكل دقيق. ممرّضة أطفال ومرشدة قانونية وأخت كبيرة مع الكثير من الحزم. من الغريب أن رينالدا نجحت في هذه المهنة وكان أول تعيين لها، وعمرها ثلاثة وعشرون عاماً، في بلدية «سافيني سور أورج». لقد توقّعوا لها في المدرسة أن تنجح نجاحاً باهراً.

السرّ الأول الذي أرادت ماري نويل أن تكشفه يتعلّق بطبيعة العلاقات بين رينالدا ولودوفيك. هذا الحب غير المتوقّع مثل فسحة في غابة كثيفة، مثل نور مشعّ بعد ساعاتٍ من ظلمة حالكة. في قرارة نفسها غارت ماري نويل بشدّة منها. ما الذي ينقصها حتى يحبّها أحدهم كما أحبّ لودوفيك أمها؟ لا ستانلي ولا تيري، ولا أحد من الذين تقاطروا فرادى إلى سريرها.

لن تعرف أبداً كيف التقت رينالدا بلودوفيك، كيف استطاع التقرّب منها وهي التي لا تدع أحداً يقترب منها، كيف حلَّ عقدها الواحدة تلو الأخرى وبلسم جراحها المفتوحة. كانا يمشيان شابكين أيديهما في جادة «غابرييل بيري»، دون أن ينظرا إلى محلّات الحلويات الرخيصة ولا محلّات الساعات. يجلسان تحت أشجار الكستناء في حديقة دانييل كازانوفا محاطين بالأطفال العرب ذوي الشعور الجعداء، ويحكي لها عن طفولته. بالنسبة لي، لا رائحة سكر أو قرفة، ما من قصص كريولية ولا

من موسيقا «شوڤال بوا»(*). هذا السبب الذي لأجله أصبحت ما أنا عليه.
أخذ يحدّثها في لحظة ما عن «مونتو»، الجمعية التي يرتاد. أخذها إلى الاجتماعات التي يحضر. في أحد الأيام صعدا إلى غرفته، وتحت نظرات آلهته: مالكولم إكس، وبوب مارلي، أمسك بها بذراعيه كطفل مريض. شدّها إلى صدره. مدَّ يده ثم فمه إلى عضوها المعذّب فلم تمانعه. دبّت اللذّة في جسدها المتعب.

لم تكن ماري نويل قد ذهبت إلى «باس تير» من قبل، وذلك لأنه في طفولتها، كان الذهاب هناك يحتاج إلى أسباب وجيهة، وليس لرانليز أيٌّ منها.

بعد قطعها «بوتي بورغ»، دخلت في مملكة الخضار وأشجار الموز. من على جانبي الطريق، مرَّ المنظر أمام عينيها مثل صور بطاقات بريدية متلاحقة، متوقّعة ولكن مدهشة. أدركت ماري نويل خطورة إما الاستسلام لسحر المنظر أو رفضه بالمطلق، بسبب الرجل الرعديد والضعيف الجالس في الخلف، القاطن في بيت من أسمنت وتوتياء. كان هذا الجمال يستحقّ الانتباه.

لم تجد ماري نويل وجود أنوزي أيّ صعوبة في إيجاد ڤيلا أريستيد وفيوريلا ديمونيكو تحت أشجار المانغا في شارع الخندق. كانت لأهله قبل أن تكون لهما، ولكنهما غيّرا اسمها إلى ڤيلا أركانيا. ڤيلا أركانيا. بفضل هذه الأحرف البيضاء المخطوطة بعناية على مستطيل الخشب المدهون بالأسود، لم يعد أعضاء عائلة كوبيني أشباحاً وأطيافاً تلاحقهم

(*) موسيقا فولكلورية للعبيد تعود أصولها إلى جزيرة المارتينيك في الكاريبي. [م].

من خلال الذاكرة، بل باتوا أشخاصاً من لحم ودم، وها هي ذي قصة الأصول هذه، قصة الأصول القائمة فقط على أقوال من هنا وهناك تلج حيّز الواقع. لم تعد القصة تنتظر الآن سوى يد كاتب لتوثّقها كتابةً وتجعلها حقيقة دامغة. ولكن، لمّا حان الوقت أن تقوم بذلك الدور، الذي تحضّرت له منذ بداية حياتها من دون أن تعلم ربما، تردّدت ماري نويل. فهي على وشك إيقاظ زومبي ورشّ الملح على رؤوس ألسنتهم، علماً بأنها لا تملك أيّ حقوق في هذه القصة. ليس لها علاقة بها إلا من خلال رينالدا التي التحفت بالصمت وقطعت روابطها بالجزيرة. ألا تكون الكتابة في هذا السياق خيانة لها وجرحاً آخر؟

حديقة الفيلا التي يبدو أنه لم يكن يُعتنى بها عنايةً كافية مليئةٌ بأكوام من الدبال الذي تشتهر به هذه المنطقة الماطرة. ثمة نباتات متعرّشة تتدلّى من أغصان أشجار يلمع فيها لاف الكاكاو الذهبي. كان أريستيد ديمونيكو ينتظر ضيوفه بملل على تّراس منزل أسمنتي. بالنسبة لماري نويل، فإنّ بيوت البلد كلّها متشابهة، تحوي أروقة، وغرف خدم، وغرف إضافية هي عبارة عن توسّعات أضيفت إلى دارٍ كدار الجدّة لتشكّل النواة الأساسية لها. تعكس ڤيلا أركانيا الأهمية التي يتمتّع بها صاحبها أريستيد ديمونيكو، الخلاسي المربوع ذو الشعر الأجعد رمادي اللون. بوقوفه هنا لابساً طقمه القطني الذي لم يعد يُخاط مثله، يشبه شخصاً ينتظر المصوّر ليلتقط له صورة. تقدّمه في العمر لم يؤثّر في شبقه، فقد تمعّن طويلاً بتفاصيل جسد ماري نويل. يبدو أن ما رآه قد أعجبه إلى حدٍّ ما، فأساريره انفرجت وارتسمت ابتسامة على وجهه. يتكلّم دون توقّف مثل الجدة، دون أن يفسح مجالاً للآخرين في قول كلمة واحدة. لكن أساطيره تختلف عن

أساطيرهم. يعشق إلى حدّ الجنون منطقته، ولم يكن ليعيش في أيّ مكان آخر. يتذكّر ككابوس أحداث 1976 حين ثار بركان «سوفريير»، الأمر الذي أجبره على الالتجاء عند ابن عمه في «غراند تير». تكلّم بإسهاب عن ازدحام الطرقات ومواكب الشاحنات التي لا تنتهي، المحمّلة بالفرشات والأطفال وبضع الممتلكات التي كُوِّمت بسرعة عند الإخلاء. كان شابّاً وموظّفاً وقتئذٍ، واضطرّ أن يبقى لمدّة ستّة أشهر في مركز شرطة هذه المدينة الخانقة والمكتظّة المسمّاة لابوانت. على الرغم من كل جهود المتروبول الرامية لوضع حدّ لثنائية رأس الجزيرة، إلا أن «باس تير» بقيت، بل إنها ازدهرت أيضاً. في صباه كان لنهر الأعشاب الذي يشطر المدينة إلى نصفين لقب، كان يُسمّى نهر الكاكا. مع مغيب الشمس وحتى بزوغها في اليوم التالي، كان الناس يأتون إلى هنا كي يفرغوا محتوى دلاء الفضلات، فتحمل مياه النهر الطينية حملها من الخراء نحو البحر. تتكوّم الدور فوق بعضها في أحياء «سان فرانسوا» و«كرمل». ولا يدخل المرفأ إلّا السفنُ التي تنقل مواد تغليف الموز. كانت «باس تير» تعتبر من أكثر مدن البحر الكاريبي حداثة، وكل غوادلوب كانت في طور التحديث. هل سلكت طريق «ترافيرسي» الذي يمرّ في منتصف السلسلة الجبلية؟

هكذا هي أتت للبحث عن عائلتها؟ (راح يضحك). باحثة عن هويتها؟ (ضحك بقوة أكبر). الهوية ليست ملابس ضائعة نجدها ونلبسها من جديد؟ لن تصبح غوادلوبية مهما فعلت. في تلك اللحظة استطاع جود أنوزي الذي بقي صامتاً في زاويته على الترّاس أن يقول كلمة. ماذا يعني أن تكون غوادلوبياً؟ لم يعجب السؤال أريستيد ديمونيكو الذي لم يتكلّف عناء الإجابة عنه. أدار ببساطة ظهره باحتقار إلى جود أنوزي، وعاد ليكمل

حديثه مع ماري نويل. للأسف لم يكن هو ولا فيوريلا يستطيعان مساعدتها. وكما شرح لها على الهاتف، زوجته في رحلة بحرية مع ابنتهم الوسطى. هي من لا تتوقّف عن الكلام عن هذا الأمر، وتحشو رؤوس الناس بهذه الأسئلة المملّة التي لا جواب لها. لا أحد سيصدّقه إن قال إنّ هوس فيوريلا هذا قد خرّب زواجهما بشكلٍ أو بآخر. حين يقترب ليضمّها، تتمتم باسم رينالدا. لقد حوّلت سريرهما الزوجي إلى أريكة محلّل نفسي، مع الكثير من نوبات عصبية وبكاء. كلّ جملها تبدأ بالشكل نفسه: «عندما كنّا صغاراً فعلنا هذا وذاك». كم من المرّات سمعها تتكلّم بصخب عن أبيها الذي كان وفقاً لكلامها مغتصباً وساديّاً، وعن نينا الخادمة صاحبة القلب الشرير التي سلّمته ابنتها. كان ذلك سهل الفهم. تكرههما لأنهما تضاجعا وخانا أمّها المحبوبة أركانيا، المريضة المستلقية في الطابق الأول. قصة غيرة سخيفة. القاضي ديمونيكو تلقّى الأمر بصورة تراجيدية، واستعلم عن جيان كارلو، هذا الحرفيّ الذي لم يعد هناك مثله اليوم. أراد أن يفتح تحقيقاً حوله، علماً أنه لم يكن بحوزته ولا حتى بداية دليل ضده، لا شيء سوى أقوال بنت مراهقة.

حين اختفت رينالدا، حاولت فيوريلا كلّ ما في وسعها أن تجدها. في إحدى السنوات، سرت إشاعة تقول إنها تعيش في «لادومينيك» مع زنجي إنكليزي. في الحال، سافرت فيوريلا إلى «روزو»، وقد استفادت من الأمر لقضاء أسابيع بعيدة عن واجباتها كزوجة وأمّ إلى درجة أن الناس بدؤوا يتهامسون حول غيابها. في سنة أخرى، ادّعى أحدهم أنه رأى رينالدا في سوق خضار «فور دو فرانس»، فركبت فيوريلا القارب متجهة إلى المارتينيك، لكنها لم تجد أثراً لصديقتها المحبوبة. توقّعت دائماً أن يظهر

اسمها أمامها بأحرف كبيرة كمغنّية أوبرا. لم يحصل شيء من كل هذا. لو أنّ لرينالدا القليل من المشاعر، أتعتقدين بأنها كانت لتبقى دون مكاتبتها؟! حين تعود فيوريلا في نهاية الصيف، وتعلم بأن رينالدا تعيش في باريس، وأن ابنتها جاءت بنفسها لتبحث عنها في «باس تير»، فسوف تغيب عن الوعي. هل ستبقى ماري نويل في غوادلوب؟

أثار كلامه حزناً تملّك قلب ماري نويل كاملاً. أحسّت بأنها غدت محشورة في زاوية. شخصيات هذه الدراما الرئيسيون ماتوا، ولا يمكن الوصول إلى فيوريلا. إن أرادت أن تعرف جغرافيتها وخريطة هويّتها، فما عليها سوى أن تواجه جدّتها.

هذه الجدة التي ليس بإمكانها معرفة ما إن كانت ملاكاً أو شيطاناً، أو ساحرة، أو رامية لعنات، أو أم الماء[*] تحمل الهدايا.

(*) ماما ديلو (l'ló) هي شخصية أسطورية في الفولكلور الكاريبي. [م].

.5



هي صخرة منعزلة بعيداً في البحر، أرض مهجورة، مقبرة على الهامش، منفى، سجن أشغال شاقة، ومحجر صحي. يقال إن رعايا الملك المنفيين الذين كانوا يُحملون في السفن في ميناء «روشفور» كانوا يبكون من شدّة يأسهم حين يصلون إليها ويتعرّفون على ضيق مساحة سجنهم. العديد منهم غافلوا حرّاسهم وألقوا بأنفسهم رأسياً من أعلى المنحدر المطلّ على البحر. أصاب الجنونُ آخرين، فباتوا يرغون ويزبدون كحيوانات مسعورة، وماتوا في غضون عدة أيام. المقبرة البحرية في «غراند آنس» تحوي قبوراً متواضعة تحمل أسماء تستحقّ فخامة أكبر. تلاشت هذه الذكريات مع اقتراب الطوف من الشاطئ. بدا، على العكس، أن هذه الجزيرة المقفرة تتلوّن تحت نور الشمس وتبتسم. تُخرج رأسها من الماء لترقب القادم صوبها، وتحيّيه بشيء من الملامة كما لو أنه من أقربائها الجحودين: «أخيراً أتيت، أنتظرك منذ زمن طويل!». لم تلحظ ماري نويل شيئاً من شدّة زرقة المحيط الذي أعمى عيونها. أحسّت بثقل على صدرها وهي ترى ملامح هذه الجزيرة غير الودودة، التي انطلق منها عِرقها، ترتسم في الأفق. لقد تردّدت حتى اللحظة الأخيرة. تخامرها الآن الرغبة في

الاستدارة والعودة بسرعة إلى «سان فرانسوا»، التي بإمكانها رؤيتها تقبع بعيداً في «غراند تير». كما لو أنه يعلم ما سيكون عليه شعورها، أمسكها جود أنوزي من ذراعها وأجبرها على الوقوف. حين رسا القارب ورُبط بالقلس ضمن فوضى من صراخ وزعيق لا معنى له، استسلمت وقرّرت اللحاق ببقية المسافرين. راح يتفحّصهم بفضول كلٌّ مَن بائعي الحلي البائسة على الرصيف البحري، والمتعطّلين بكلّ أشكالهم ممن يتسكّعون هناك. يمسك كلٌّ منهما بيد شريكه، ولكن هيئتها تعطي الانطباع بأنها غارقة في أفكارها، وأنها لا تكترث له. يعطيان الانطباع بأنهما ليسا عاشقين ولا سائحين مثل الآخرين الذين كانوا مهتاجين وبريئين وقد بدؤوا في إخراج آلات تصويرهم. لرحلتهما دوافع شخصية، أكثر سرّية وأكثر خصوصية. لم يكونا يبحثان عما لم يُدمّر بعدُ في هذا البلد حيث كلّ شيء يباع لمن يدفع السعر الأعلى. ما الذي يمكن أن يكون ما يبحثان عنه؟ تشكّل موكبٌ صغير راح يتابعهما من بعيد من خلال ساحة «لو موان مانديان» ليعرفوا أين يتوجّهان.

جميع أهل غوادلوب يرتبطون في ما بينهم بروابط قربى. أولاً، لأن معظمهم أتوا على ظهر قارب تجارة العبيد نفسه، ووُضعوا في الوقت نفسه برسم البيع في أسواق النخاسة. ثانياً، لأنه في المزارع، تشكّلت روابط بين هؤلاء والآخرين المختلطين، الأقرباء لدرجة السفاح. لم يجد جود عناءً في أن يجد ابن عمٍّ له من عائلة أنوزي هو أيضاً واسمه الأول سيريل، ويعمل في الطبّ العام وفي السياسة، وقد كان يأمل أن يضع يده على رئاسة البلدية يوماً. لام سيريل جود لعدم زيارته بانتظام. الأمور تغيّرت عن السابق، وأصبح هناك خطّ جوّي يصل بين «لابوانت» و«غراند

آنس». إن كان المرء يحب البحر يمكنه ركوب القارب الذي يقوم بجولتين مكوكيتين في اليوم. تحدّث سيريل مع ماري نويل أيضاً حول الولايات المتحدة التي زارها عدة مرات في الماضي. ومثل كل الرجال العصريين، لم يُضع وقته بهذه المقدّمات اللطيفة على الطريقة القديمة، وتطرّق سريعاً إلى سبب الزيارة. مثل كل أهل ديزيراد يعرف أنتونين تيتان المشهورة بيننا. لقد كانت شخصية معروفة تسكن على «الجبل». كلّ شهر، بعد أن تستلم راتبها التقاعدي، كانت تأتي لتتموّن من سوبر ماركت «غراند آنس». ليس بالشيء الكثير، بضع علب عدس، سمك قدّ مملّح، بازلاء حمراء وبازلاء خضراء مقسومة. أحياناً، حين ترغب بذلك، تعالج آلام العصب النسوي وانتفاخ الرئة. ما حصل في الماضي يبقى في الماضي. ولكن مع ذلك هنالك سمعة حامت حولها، عنيدة مثل رائحة كريهة تأبى أن تتلاشى كلياً. الأطفال يخافون منها ويسمّونها «الروح الشريرة»(*). البعض كانوا يتهامسون القصة التي عاشتها مع طفلتها التي اختفت في أحد الأيام دون أي أمل في عودتها. مع ذلك، أشفق الناس عليها لأنها تعيش وحيدة في دارها، لا يؤنس وحدتها سوى كلب كريولي ذي رأس أصفر. رفضت لدى مرور الإعصار الأخير الالتجاء إلى مباني البلدية، وأمضت الليل وهي تصارع مع غضب السماء. ولكونه يعلم أنها فريدة من نوعها، حريصة وطويلة لسان، لم يخبرها سيريل بأن هنالك من يرغب في اللقاء معها. من الأفضل أن يكون الأمر مفاجأة لها.

ما يُسمّى «جبل» في ديزيراد ليس في الحقيقة جبلاً رغم اسمه، بل عبارة عن هضبة مركزية عالية يحدّها منحدر عميق تتكسّر في أسفله أمواج

(*) بالكريولية في النص. [م].

البحر من جهة، وينحدر بلطف من الجهة الأخرى حتى يتصل بسهل ساحلي تفيئه أشجار جوز الهند. للجبل قصة، فإليه التجأ في الماضي من هربوا خوفاً من إصابتهم بعدوى الجذام التي حملها هؤلاء الذين قد أُسكِنوا في أكواخ القشّ في «بي ماهو». يقول المؤرّخون أيضاً إن مستعمرة من الزنوج الهاربين من العبودية انطلقت ليلاً من «غريبيير غريبون»، انتهى الأمر بها أن استقرّت هناك، لقناعتهم بأن لا أحد سيأتي ليبحث عنهم هنا في آخر العالم. لكن ذلك كان خطأً قاتلاً. فالقوات التي أُرسلت للّحاق بهم وصلت إليهم وقطعتهم إرباً إرباً. هؤلاء الزنوج الهاربون لا يرقدون في أيّ مقبرة، وسيكون من العبث البحث عن قبورهم في أيّ مكان.

انطلقت سيارة سيريل ذات الدفع الرباعي من «غراند آنس»، التي تعطي الإيحاء المدّعى بأنها عاصمة، على الطريق الذي يمرّ بمحاذاة البحر. صفوف من بيوت أسمنتية متشابهة، ألوانها موحّدة تشكّل فخر البلدية لأنها حلّت محلّ الأكواخ القديمة. ثم انعطف يميناً وقطع سلسلة من البساتين المزروعة بالمانغو والإجاص، قبل أن يصل إلى سطح كما لو أنه يقبع متوازناً فوق البحر. هنالك كان الأسى. يُسمع لطم الأمواج الفوضوي في المحيط، الذي يختلط بصوت الريح وصراخ الطيور البحرية. قطع مفروشة بالحجارة الناعمة محاطة بأسوار من الشبرق الشائك. لم يعد هنالك مساكن مع معروضاتها من غسيل معلّق على الحبال وأطفال يلعبون بالكرة. وحيدةً، تحت شجرة قابوق رمادية، دارٌ لونها مائل للأسود، جدرانها غير منتظمة وسقفها مرقّع ومائل من جهة. يزنّر الدار سورٌ من شجر الكوديم المتباين الأصفر يُحدّد نطاقاً من قطع حجرية كلسية تتصارع للنمو، بينها الكسافا والقلقاس المأكول. ثلاثة خرفان تثغو بصوت يفطر

القلب، في الوقت الذي ينبح فيه كلب كريولي أمام الباب كما لو أنه مصابٌ بالكَلَب. تعرّفت ماري نويل على المنزل الذي يراودها في حلمها. نعم، إنه المنزل نفسه، كل شيء موجود هنا. لا ينقص سوى ضياء القمر الهادئ الذي يصبغه باللاواقعية. كما في الحلم، لم تستطع رجلاها حملها وكانت على وشك السقوط هذه المرّة أيضاً. استندت على جود أنوزي الذي أمسكها من ذراعها. تبعا سيريل الذي يقترب أكثر وأكثر من المنزل، على الرغم من اشتداد نباح الكلب وفكّيه الجاهزين للعضّ. كشخص يودّ تقديم اعتذار، كرّر سيريل على مسامعهم أن نينا ليست بشخص يرحّب بالزوّار، وطرق على الباب. بعد برهة مرّت كأنها زمن طويل، طويل جداً، فُتح الباب مصدراً صريراً من مفاصله التي يشبه صوتها صوت الإنذار. امرأة حافية القدمين لا تربط رأسها، تلبس ثوباً باهت اللون، خرجت إلى العتبة وراحت تتمعّنهم دون احترام. توقّعت ماري نويل في مخيّلتها أنها ستكون شبيهة برينالدا، قصيرة وهزيلة البنيان.

لكن نينا مستقيمة الظهر رغم آلام عصبها النسائي وأوجاعها الأخرى الشديدة. ضخمة الجثة، ثدياها مترهلان وثقيلان يصلان إلى بطنها، ذراعاها وكتفاها مكتنزان. وجهها صادم يوحي بالكبرياء على الرغم من عمرها وفقرها. ما من شك أنها كانت في ما مضى زنجية جميلة، مروّضة رجال. لمّا تعرّفت على سيريل، جعلت تبتسم كاشفة عن أسنانٍ قوية وبيضاء وسليمة. أفسحت بعدئذٍ المجال لهم للدخول. بعد الصدمة التي خلّفها منظر المنزل الخارجي، لم يكن في الإمكان تمييز أي شيء في الداخل. لكن رائحة كريهة تسبّب الغثيان، رائحة حظيرة خنازير تعمّ المنزل. بعد أن اعتادت عيناها على الظلمة، لاحظت ماري نويل أن الدار

تتألّف من غرفة واحدة فقط، وُضع في إحدى زواياها على الأرض ثيابٌ بالية. فضلات وجبة طعام لا تزال على الطاولة. في ما يمكن اعتباره زاوية مخصصة للطبخ، توجد أوانٍ من الألمنيوم معلّقة فوق المجلى. لا تصل الكهرباء إلى المنزل، وهنالك سراج عواصف موضوع على الطاولة بجانبه علبة ثقاب. حدّقت نينا في زوّارها باهتمامٍ قلّص عينيها الواسعتين اللتين اكتسبتا لوناً أزرق بسبب مرض الساد. تعابير وجهها تنمّ بوضوح عما يجول في خاطرها: ماذا يريد هؤلاء الناس؟ لم تطلب شيئاً من أحد. ما الذي أتوا يبحثون عنه في منزلها؟ نظرت في البداية إلى الرجلين ثم إلى ماري نويل. بعد أن حطّ نظرها عليها، بدا لماري نويل أنه تشبّث بها بعناد ولم يعد يفارقها. فقدت ماري نويل، التي كانت قد حضّرت تفسيرات وسلسلة من جمل منمّقة، السيطرة تماماً. طارت الكلمات كلها وحامت في دوائر حولها. أخذت تتمتم بصوت أشبه بالبكاء: «انا ابنة رينالدا و.. وجيان كارلو!».

تمتمت وصوتها يرتجف كصوت طفل. شعرت مع ذلك بعودة الثقة في داخلها. تلك هي المرة الأولى التي تفصح بها عن نسبها وتقول علناً أسماء الذين أنجبوها. كان ذلك كما لو أنها أخيراً امتلكت نفسها وحفرت أثرها على الأرض.

لم تكن ردّة فعل نينا ما توقّعته منها. إحراج. ندم. غضب. بدأت نينا بأن تمعّنت فيها كما لو أنها لم تكن متأكّدة مما سمعت أذناها. ثم دفعت برأسها إلى الخلف وأخذت تضحك، تضحك ضحكة لا نهاية لها، ضحكة جعلتها تباعد شفاهها وتكشف عن صدر حلقها، وعن لسانها الأفعواني البنفسجي. ضحكة قضت على كل ما تعتقده ماري نويل، ضحكة رمت بها في نطاق الشك والقلق بعدما ظنّت أنها تركته للأبد.

القصة بحسب نينا

لا أعلم ما روت لك من سخافات أنا متأكّدة أنها اخترعتها مع فيوريلا، أني أجبرتها، وأني حتى أمسكت يدها في المرة الأولى. لا بدّ أنها أخبرتك بأنها فعلت ذلك لأنها كانت خائفة ولأني هدّدتها. ماذا أيضاً؟ لطالما كانت هكذا: كذّابة، تكذب كثيراً وذات وجهين. مصيبة أني أنجبت ابنة مثلها إلى هذا العالم. أما بالنسبة لك، فالمصيبة هي أنك ابنتها. أتقيم حالياً في باريس كما أخبرتني؟ مع زوجها وولديها تنعم بحياة دون عذاب، الحياة التي لطالما رغبَتْ بها؟ أنا مسرورة لأجلها! أنا لست بحاجة إليها ولم يبقَ لي الكثير في الحياة. أسمع الموت ليلاً وهو يشحذ سكاكينه الكبيرة. بدأت حياتي في زمن لا يختلف كثيراً عن زمن العبودية. كانت أمي تزرع القطن لحساب «سوسييتيه» التي أنشأت مزرعتي قطن ليُستخدم في الصناعة. التفت الناس في ديزيراد إلى زراعة القطن، لأنهم تعبوا من العمل في زراعة الذرة والكسافا والبازلاء التي لا تحقّق مردوداً يكفي لسدّ رمقهم. سعيد حظّ يُعتبَر من يملك شجرة موز، حتى ولو كانت ضعيفة صغيرة، بجانب داره وقادراً على إطعام معزاة. أكلّمك عن زمن بعيد يسبق إعصار عام 1928. اندثرت «سوسييتيه» في الوقت الحالي. إن تنزّهت من جهة

«بي ماهو»، سترين ما تبقّى من جدرانها. سترين أيضاً ما كان يسمّى درب الجرّارات، وهو طريق يصل بين شاطئ «سوفلور» و«لا مونتان». كانت الجرّارات تسكب البنزين، ثم يجري إشعاله ليحرق نباتات الصبارة التي اجتاحت المكان. كنت طفلة رضيعة حين أخذتني أمي معها إلى مزارع القطن. وكنت أنام إلى جانبها في سلّة. جعلتني أعمل معها منذ أن استطعت الوقوف على قدمي دون أن أسقط. تعلّمت قطاف لوز القطن، الجيّدة منها، تلك التي لا تحوي دود القطن الوردي، قبل أن أتعلّم الكلام. أملأ كل يوم، تحت الشمس الحارقة، أكياس العشرين كيلوغرام التي يحملها الرجال على ظهورهم مثل الثيران إلى طاحونة الحلج. في المساء، نصل إلى درجة من الإنهاك لا نكون معها قادرين على تناول أيّ طعام.

أشبه جدّتي، ديزيليا تيتان. ما زال الناس يتكلّمون عنها في ديزيراد. يبدو أنها كانت متطلّبة جدّاً إلى حدّ الموت من الرجال. هذا ما جعلهم يخافون منها. يأتون، يقضون حاجتهم بسرعة ويرحلون بعد ذلك. لذلك لم تستطع معرفة من جعلها تحمل بأطفالها الستة. أمي، تراسي، هي الأخيرة. بما أنها كانت حمراء، اعتقد الناس أن والدها هو أحد كهنة «بي ماهو» الذين عملت عندهم جدّتي، لأنها رفضت العمل في القطن. لقد كانت راقصة ماهرة. يجلبونها لإحياء الأمسيات الموسيقية التي تُنظَّم في الإدارة. توفّيت في إحدى هذه الأمسيات. كانت تؤدي حركة معقّدة حين سقطت فجأة ولم تنهض بعدها. أمي كانت شيئاً آخر، دائمة الحزن. أظن أن ذلك بسبب والدي الصيّاد. في أحد أشهر تشرين الأول، ذهب كعادته للصيد في منطقة «بانك دي فيسو» من جهة «بوتيت تير»، لأن شهر تشرين الأول هو شهر عبور الأسماك المهاجرة. في تلك الفترة كانت تمتلئ الشباك، وتمتلئ معها صحون الجميع باللحم. فاجأته صخرة وانقلب

مركبه، ولحين ما هرعت المراكب الأخرى لنجدته كان قد غرق عميقاً. وقتئذٍ، كنت قد بدأت أتحرّك في بطن أمي. في ذلك الزمن لم يكن هنالك من ضمان اجتماعي ولا مساعدات للعوائل أو للعاطلين عن العمل أو للعجزة، كل تلك المساعدات التي ترينها اليوم. كما أن أمي لم تكن امرأة متزوّجة، ولم يكن لديها أيٌّ من الحقوق ولا أنا. لذا، فإنّ الملجأ الوحيد هو العمل بالقطن، القطن. أظن أن أبي ما كان ليسرّ لرؤية أمي تدمّر شبابها بتلك الطريقة. ولكن من المكان الذي كان هو فيه، لا يستطيع منع ذلك من الحدوث.

حين أفكّر فيها، لا أظن أن تلك السنوات هي الأقسى في حياتي على الرغم من العمل والجوع. كان لديّ جدّتي بلحمها وعظمها إلى جانبي. لم تكن جدتي تتكلّم كثيراً، لكن لديها دائماً شيءٌ حلو لي مخبّأ في بدن ثوبها: نوغا بالفستق، قلقاس رومي، أو حلوى جوز الهند. كما قلت لك، أصبح البؤس شديداً بعد إعصار عام 1928. دمّر الإعصار كلّ ما واجهه في طريقه، وسوّى بالأرض كل ما استطاع تسويته. لم يصمد شيء في وجهه. فضّلت شركة «سوسييتيه» الانتقال إلى منطقة سان فرانسوا وديزيراد، بعد أن دُمّر محصول القطن.

لحقت أمي بجدّتي بعد وفاتها بفترة.

تركتني هي أيضاً. رحلت في إحدى أمسيات شهر كانون الثاني، فيما الريح تعصف عصفاً شديداً. في هذه الفوضى، لم يسمع أحدٌ صوت حشرجتها الخفيف الذي كان بمنزلة صوت وداع للحياة على الأرض. ربّتني إحدى أخواتها اللواتي يكبرنها سنّاً، تيرتوليل، مع أولادها الكثر، وانتقلتُ من حيّ «غالي» الذي سكنت فيه مع أمي. لم يكن لخالتي بنات،

كان لديها سبعة صبيان، كلّ واحد منهم من أب مختلف، تلك هي العادة في ذلك الوقت. أكبرهم، المفضّل عندها لأنه صغير البنية وكاد أن يموت بسبب الاختلاجات، اسمه غابن. هو الوحيد الذي تكترث لأمره؛ الآخرون لم يكونوا يمثّلون شيئاً بالنسبة لها. أما أنا فكنت أقلَّ من لا شيء. لدى خالتي عملٌ جيّد وجده لها الآباء في «بي ماهو» لدى الراهبات الدومينيكان اللواتي كنّ يعتنين بالمصابين بالجذام. وكانت تسكن في ما يُسمّى المخيّم، في أحد المنازل الحجرية التي حلّت محلّ الأكواخ القديمة. على الرغم من كونه ملجأً للمصابين بالجذام يبعث على الخوف في نفوس الناس، إلا أن المكان كان جميلاً. أهل المخيّم هم الوحيدون من يتمتّعون بالكهرباء والمياه النظيفة، في الوقت الذي تجلب فيه كل نساء ديزيراد الماءَ في دلاء على رؤوسهن من وادي «سيبيل». تتحلّق المنازل في المخيّم حول كنيسة زجاج نوافذها ملوّن بمختلف الألوان. ويقوم بالقداس صباح كل يوم الأب ستاينر، الذي تعود أصوله إلى منطقة الألزاس. لقد كان لطيفاً جداً معي، الأب ستاينر. أحياناً، في وقت القيلولة، يُدخلني إلى غرفته ويقبّلني كما لم تقبّلني جدتي وأمي قطّ. كنت أجد ذلك لطيفاً ولا أقول شيئاً لأحد. لم أستسغ رائحته ولا أستطيع القول لماذا. الجميع كانوا لطفاء في المخيّم. الطبيب والممرّضات وجميع الميتروبوليين وكذلك الكاهن والراهبات، جميعهم يعهدون إليّ بأحذيتهم لأنظّفها، وفي المقابل يعطونني قروشاً جديدة. عدا ذلك لم يكن لدينا أيّ اتصال مع مرضى المخيّم من بيض وسود، الذين لديهم مدرستهم وصالة السينما الخاصة بهم وملعب لكرة القدم. طوال اليوم، يلعب أبناء خالتي بالمضارب، ويتعاركون، ويلحقون بالطيور، ويصوّبون على السحالي بمضاربهم، ويختلسون كل ما تقع أيديهم عليه. أنا كنت فتاةً وأعمل مثل حيوان. أساعد خالتي في غسل

بياضات أهل المخيّم وكيّها، من شراشف وأكياس مخدّات ومناشف وقمصان الأطباء والممرّضات، وأغراض الراهبات، التي يتركونها منقوعة ليومين أو ثلاثة في مياه الجافيل لتطهيرها. لم أكن أحظى بدقيقة لنفسي. لهذا السبب لم ألتحق قطّ بالمدرسة، وبقيت لا أعرف القراءة والكتابة ولا حتى كتابة اسمي. أحياناً أمسك بصفحة من جريدة وأقول في نفسي إن حياتي كان سيصبح لها معنى آخر لو أنني أستطيع فكّ حروفها. بدا لي أني سأفهم العالم، معناه، غموضه، وأن حياتي سيكون لها طعمٌ أفضل.

كان أهالي حيّ «بي ماهو» المجاورين للمصحّ يغارون منا، لأن بطوننا ممتلئة ولأننا ننعم بالنظافة. لذلك تظاهروا بأننا نثير خوفهم، لأننا نحن أيضاً كنا مصابين بالجذام، نحن الذين لم نعرف شخصاً مريضاً واحداً في عائلتنا. ماتت جدتي وهي ترقص، وإن رحلت أمي قبل وقتها، فذلك نتيجة لكلّ الحزن الذي كدّسته في قلبها. يجدر القول إن الاحتقار الذي يكنّه أهل «بي ماهو» لنا لم يؤثّر علينا البتّة. ما الجدوى من مصاحبة أشخاص سود مثلنا لم يكونوا حتى يتكلّمون الفرنسية ولا يجدون ما يسدّون به رمقهم؟ ليس لديهم أيّ شيء يعطوننا إياه. هذا ما تكرّره خالتي على مسامعنا، وفي هذه النقطة مع خالتي كلّ الحقّ.

حين غدوت في الرابعة عشرة، حين بدأت أضع القطن بين فخذي، أجلستني خالتي قبالتها وقالت لي ألّا أسمح أبداً، أبداً، لزنجي بأن يطأني لأنجب طفلاً من بؤسه. الأفضل أن أعاشر البيض أو الخلاسيين أو حتى الكولي(*). الزنوج مسؤولون حسب ما قالت عن كل مصائب النساء وكل

(*) هنود من ساحل مالابار في جنوب غرب الهند، جاؤوا بأعداد كبيرة إلى جزر الأنتيل بعد إلغاء الرق، بحثاً عن العمل. [م].

تعاسة العالم، الزنوج هم كالأعاصير والهزّات الأرضية. شعرت بالإحراج وأنا أستمع إلى كلامها لأني لم أستطع أن أقول لها إن ابنها، غابن، أراد أن يضع يده عليّ مهما كلّفه الأمر. رغم تهديدي له، إلا أنه كان يتابع دون اكتراث. يتجسّس عليّ في كلّ مكان أذهب إليه، ويلاحقني مطلقاً أنواع الحماقات: «عزيزتي، يا حلوتي، أعطني إيّاه أرجوك!». أظن أنه كان مصمّماً بعناد، لأن ما من امرأة تحترم نفسها يمكن أن تقبل به. كان في السابعة عشرة ولكنه يبدو كما لو أنه في العاشرة من عمره فقط. ما من شك في أن ذلك يعود إلى الاختلاجات التي أصابته في صغره، والتي أدت إلى توقّف نموّه. لقد كان قزماً، وجهه يشبه وجه الصرصار مع أسنان صفراء وعينين لزجتين كعيون الضفادع. أما خالتي، فلم تكن تراه إطلاقاً على هذا الشكل. تنصت إليه كما ينصت الله لابنه المحبوب سيّدنا يسوع المسيح. لم تكن تعاتبه على أي شيء يفعله، كلامه مُنزلٌ مثل كلام الإنجيل. من كثرة ما بكت لأجله لدى الأب ستاينر، استطاعت خالتي أن تجد له عملاً كمتدرّب نجارة لدى السيّد أرناتوس في لابوانت. لم يكن قد تعلّم المهنة بعد لكنه راح يتبختر ويعامل إخوته كعبيد عنده.

لن أتوقّف مطولاً عند هذه التفاصيل التي، اليوم بعد أربعين عاماً، ما زالت تثير القشعريرة في جسدي. انتهى الأمر بغابن أن حصل عليّ.

في أحد الأيام بعد الظهر، نزلت إلى وادي «ريفيير». كان عليّ المشي للوصول إلى هذا المكان رغم بعده عن المخيّم. يعطي المكان الانطباع بأنك لست في ديزيراد لكثرة الأشجار من كلّ الأنواع التي تنمو بالقرب من المياه. أشجار مثمرة مثل جوز الهند والمانغو والبرتقال، وأشجار غابات أيضاً كالكمثرى البرية والقابوق. زقزقة الطيور التي لا ترينها ولكنّك

تسمعينها تنتقل من غصن إلى آخر تجعلك تظنين نفسك في الفردوس الأرضي. كنت أستلقي على الأرض وأحلم بأني قد متّ وصعدت إلى السماء إلى جانب جدتي وأمي وأبي. اختبأ غابن خلف شجرة، وحين رآني رمى بنفسه عليّ وهدّدني بحجرة يحملها في يده.

عدت إلى المخيّم باكية ورويت لخالتي ما حصل لي. على سبيل المواساة، صفعتني صفعة قوية. ثم رمتني على الأرض، وراحت تركلني على أضلاعي وتصرخ كمجنونة بأني أدّعي كذباً على ابنها. من سيصدّق مثل هذه القصة؟ من سيصدّق أن بنتاً مثلي، طويلة، قوية البنية، يظنها جميع الناس أكبر من عمرها، تعرّضت لما تعرّضت له على يد شخص بحجم غابن؟ الحقيقة هي أني تحرّشت به وأنه فعل ما طلبت منه.

لا أعلم ما روى لها عند عودته إلى المخيّم ولكننا لم نتكلّم، ولم يتوقّف هو عن أن يتحدّاني. لم تسنح له الفرصة أن يعاود الكرّة لأنه بعد أسبوع رحل إلى لابوانت لعند السيّد أرانتس فخوراً مثل المجوسيّ أرتابان. صحبته خالتي وهي تذرف الدمع السخي إلى مرسى «غراند آنس». أمّن الأب ستاينر العبور له عن طريق بحّار صيّاد، لأنه في ذلك الوقت لم يكن هناك رحلات منتظمة بالقارب، ولا بالطائرة بكلّ تأكيد. هنالك عدالة في هذا العالم رغم كل شيء. بعد عدة أشهر توفي غابن ككلب من مضاعفات حمّى أصابته في الأحشاء. كان لإسهاله وإقيائه رائحةٌ عفنة. حين بدأ بطني يكبر، طردتني خالتي من منزلها. لم يكن بإمكانها أن تُبقي على شخصٍ منحلٍّ مثلي في منزلها. الراهبات والأب ستاينر أشفقوا عليّ. أعطتني الراهبات درساً حول خطيئة الجسد دون كثير من القناعة، فهذه الخطيئة يرتكبها الجميع في غوادلوب. لم أكن أول من حمل بابن زنى، ولن أكون

الأخيرة. لم يقل الأب ستاينر شيئاً. كان جليّاً أنه ندم لأنه لم يفعل ما رغب بفعله. وجد الأب والراهبات لي عملاً كخادمة لدى كهنة رعية «غراند آنس». رغب الكهنة في أن أنام في المنزل المخصّص لهم حتى يستطيعوا الوصول إليّ بسهولة، هذا ما أظن. رفضت، وبنيت وحيدة، رغم كوني في الشهر الخامس من حملي، داراً لي في «لامونتان»، حيث الأرض مشاع، متاحة لكلّ من يملك يدين قادرتين على حمل معول ورفش. لا أحد يملك صكوك ملكية بهذه الأرض، ولا حتى البيض المولودون على الجزيرة. لم أخبر أحداً أني حبلى بطفل ابن خالتي غابن، لخجلي من ذلك. حين بدأت رينالدا في ما بعد تلحّ لمعرفة اسم والدها، اخترعت لها قصة من بنات أفكاري.

لا يمكنك أن تحملي جنيناً في بطنك الضيّق لمدة تسعة أشهر دون أن تتعلّقي به، ودون أن تتحدّثي إليه وتعدينه بحياة أفضل من تلك التي تعيشين، ودون أن تتخيّلي ما ستكون عليه هيئته. لكن حين وضعت الراهبة رينالدا بين ذراعيّ بعد الولادة، وجدتها بشعة جداً، تشبه غابن إلى حدٍّ كبير، سوداء سوداء مثله مع عينين جاحظتين، الأمر الذي جعل كل مشاعري تجاهها تتبخّر دفعة واحدة. أخذت تزقزق كجرذ وتزنّ مثله. مع أنها وُلدت مع تمام مدة الحمل إلا أنها كانت تشبه الخدّج. لا يمكنك أن تتحكّمي بمشاعر القلب. لمَ الكذب؟ لم أحب هذه الطفلة قطّ، الطفلة الوحيدة التي خرجت من رحمي. لم أحبها قطّ لكني لم أرفع يدي عليها يوماً، لا صفعاً ولا ضرباً بالحزام. أرسلتها إلى المدرسة حيث تفوّقت خلافاً لكلّ التوقّعات. أطعمتها قدر استطاعتي. لم يكن لديها حذاء مثلها في ذلك مثل كلّ ساكني ديزيراد عدا البيض القادمين من المتروبول. لكنها كانت تذهب إلى قدّاس يوم الأحد بثياب نظيفة ومكويّة.

لم أحبّها وهي في الحقيقة لم تحبني. لم تقم بأي حركة ودّ تجاهي تشبه تلك الحركات اللطيفة التي يبرع الأطفال الصغار في القيام بها: مداعبة، ابتسامة، كلمة رقيقة. حين لا تكون غارقة في كتبها، لا تهتم إلا بالطيور التي تصطادها حيّةً بالغراء وتضعها في قفص. أراها في الصباح قبل الذهاب إلى المدرسة تتكلّم إليها وتغنّي وترسل القبلات لها. أما أنا فتنظر إليّ كحصان رمى الفارس من على صهوته. عيناها باردتان وثابتتان كعينَي شخص مهمّ تلتقط له صورةً فوتوغرافية. كنت أشعر أنها تنظر إلى ثيابي المرقّعة ورجليّ الحافيتين وبشاعتي الناتجة عن فقري الشديد بخجل.

حين اقترح مطران غوادلوب عليّ، بعد زيارة ديزيراد، العمل في لابوانت، قبلتُ من أجلها فقط، فأنا لم أكن راغبة في الرحيل. لم أرغب بشيء بتاتاً لنفسي. لكن في لابوانت ستحصل هي على التعليم، الشيء الذي لم أحصل عليه أنا.

عليّ القول إنه منذ وضع غابن يده عليّ وأنا أشعر بقرف كبير تجاه الرجال، الزنوج على وجه التحديد. يبدو لي أنه في هذا الأمر أيضاً لم تقل خالتي سوى الحقيقة المحزنة. أصول الزنوج تعود إلى جهنم. ما زلت أذكر رائحة غابن وتكشيرته وزمجرته حين قذف حليبه في جسدي، وتملّكتني الرغبة في الإقياء. أحيانا يتملّكني الغضب وأشعر بأنني مجنونة. أشعر أنه لو كان بيدي قطلس(*) لركضت حتى لابوانت وقطعته به إرباً إرباً. لذلك صرت أردّ بعنف كل أولئك الذين يحومون حولي، ولقد كان هنالك الكثير منهم. شباب، مراهقون، كبار في السن، زنوج حمر، زنوج سود، هايتيون. ينتظرون خروجي من منزل الكهنة يومياً، يترقّبونني على الطريق ويمشون

(*) سيف قصير ثقيل مقوّس. [م].

خلفي لمسافة كيلومترات. أستطيع أن أحلف إنه خلال عشر سنوات ما من رجل شاركني مضجعي أو لمسني.

لكلّ هذه الأسباب بالتأكيد أحببت جيان كارلو بالطريقة التي أحببته فيها. من النظرة الأولى. صرت له عبدة كما في الزمن الذي عملت فيه الزنجيات في البيوت. قال الناس إنه وضع في روحي لعنة، وهم في ذلك محقّون. لو طلب مني النزول إلى الجحيم من أجله لفعلت. جيان كارلو أبيض جميل، عيناه زرقاوان، شعر رأسه ولحيته أجعد، ملمسه كالحرير. يشبه كاهناً أو قديساً من أولئك الذين تجدينهم مرسومين على زجاج نوافذ الكنائس، أو الله نفسه. أعلم أنه لم يحبّني قطّ. كلّ ما كان يهمّه هو المتعة التي حُرم منها بسبب مرض زوجته القابعة في سريرها منذ سنوات، كما أنه لم يرغب في تبديد نقوده على مومسات منطقة «كاي». كان يقول ضاحكاً إنه يكسب عيشه بصعوبة ولا يرغب أن يرمي بنقوده في الهواء. ثم من هذا الذي يحب خادمة؟ من تبقى مؤخّرتها أعلى من رأسها وهي تفرك وتكشط الأرضيات؟ من تغسل الثياب المتسخة وتشتري الحاجات وتحضّر الطعام وتغسل الصحون؟ عيب جيان كارلو الكبير بخلُه. يقول إن السبب في ذلك هو أنه كان ينقصه كل شيء في شبابه. عليّ أن أتجادل معه كل يوم حول مصروف المنزل. أضيفي إلى ذلك أنه كان مهووساً بمحبّة الناس له وإعجابهم به. لذا لم يُقِم اعتباراً للواقع وللأشياء غير السارّة، ولكي يرضي كلّ الناس دفعة واحدة، يضع نفسه في مواقف محرجة، ويسبّب لهم السوء في نهاية المطاف. عندما كان في العشرين من عمره، تزوّج من امرأتين حملتا منه في الأسبوع نفسه، لأنه لم يستطع أن يقول: لا، لأيٍّ منهما. دخل السجن لهذا السبب.

مع ذلك كلّه، لم يكن شخصاً مؤذياً بإرادته، وخصوصاً تجاه الأطفال. كل الحكايات التي اخترعتها رينالدا وفيوريلا هي محض جنون، لا حقيقة فيها. الحقيقة هي ما سأرويه لك الآن.

كنت أنام في سقيفة الخدم. مرقدي مفصولٌ عن مرقد رينالدا بستارة، ولكن بإمكانها سماعنا. لا يجد جيان كارلو حرجاً في الأمر. لم يكن يعبأ لرينالدا ويقول إنه في الليل ليس لطفلة بريئة من عمل سوى النوم. ولكنها لم تكن بريئة تماماً. كنت أرى في عيونها المضطربة مثل ماء المستنقع أنها تراقبنا وتنصت إلينا، ولم أكن أخاف سوى من أن تخبر هي وفيوريلا السيّدة أركانيا، الأمر الذي أظنّه كان ليودي بحياتها.

فيوريلا كالطاعون، خبيثة حقيقية. منعها أبوها من أن تضع رجلها في «إيل لاغو دي كومو» لأنها تغوي الزبائن بلا حرج تحت أعين زوجاتهم. ظاهرياً توحي بالرزانة. كانت أجمل الفتيات وأكثرهنّ ملائكية. تختارها الراهبات كل سنة لتتويج العذراء بمناسبة عيد الخامس عشر من آب. لقد كانت على تناقض واضح مع صديقتها رينالدا. منذ يومنا الأول أصبحت رينالدا وفيوريلا صديقتين حميمتين. لماذا؟ في الحقيقة بدا ذلك غريباً. الأولى سوداء والثانية بيضاء؛ الأولى بشعة كالخطيئة والأخرى أشبه بطفلة ربّانية. السبب أن كلتيهما فاسدتان. تتهامسان دوماً في كلّ أركان البيت، تنفجران ضحكاً، وتنظران بوقاحة مباشرة في عيون الناس. تتشاركان دفتراً تسجّلان فيه كل قصصهما الخاوية ووساخاتهما وشرورهما. كانت رينالدا تتركه عمداً ظاهراً في غرفتها كنوع من التحدّي لي، لأني لا أعرف القراءة. تلك طريقتها في السخرية مني، كما لو أنها تقول لي: «احزري، احزري ما أقول عنك!». لم تكن فيوريلا تطيقني، وذلك ليس لأنها تحب أمها،

بل لأنها تحب أباها بشدّة وهو لا يهتمّ لأمرها. لو استطاعت قتلي لفعلت دون تردّد. أقرأ أفكارها في عينيها، فهي لا تتوجّه بالكلام إليّ مباشرة إلا لإعطاء الأوامر، كما لو أني كلبٌ أمامها. «نينا، أتسمعينني؟ ثيابي الداخلية متسخة، اغسليها!». «نينا لقد تقيّأت، اذهبي ونظّفي!». جيان كارلو، الذي لا يأخذ شيئاً على محمل الجدّ، صار يردّد إنها وإن باحت لأمها بكلّ ما تعرفه، فلن يكون لذلك أيّ أهمية. كانت السيّدة أركانيا تعشق زوجها كما لو أنه خبز المناولة المقدّس، ولذلك تسامحه على كل أفعاله. راح يقول إنه متيقّن من ذلك، فالسيّدة أركانيا ليست بنت البارحة، هي على علم بالعلاقة التي تجمعنا، لكنها لا تكترث على الإطلاق. لم تكن مهتمّة بالجنس حتى عندما كانا شابّين، ووجبَ عليه إجبارها.

كنت خائفة على الرغم من ذلك. خفت من الجميع. وصرت أظن أن كل من يدخل غرفة أركانيا ينوي إخبارها. خفت من «القوّادتين» كما يسمّيهما جيان كارلو، العمّة زيتا والعمّة ليا. لم تكونا تتحمّلان وجودي. لا بدّ أنهما حسدتاني، فهما لم تعرفا رجلاً في حياتهما. تخيّلي بنتين ناضجتين لا يلهج فميهما إلا بذكر الله، وتسيطر على أفكارهما رغبة تذوّق طعم الخطيئة الحلو. تذهبان إلى قداس الفجر في الساعة الرابعة، تتناولان، وحين تعودان من المذبح تبدوان وكأنهما على وشك الغياب عن الوعي من شدة التأثّر. ظنّ جيان كارلو أنه بجلبهما إلى المتجر ستجذبان الرجال وتجدان زوجين، وتؤمّنان بهذا الشكل من يساعده في إدارة أعماله. للأسف لم يكن هنالك من رجل يصل إلى مستواهما. فهما تنزعجان كل مرة ينظر فيها زنجي إليهما، كذلك الأمر أيضاً بالنسبة للخلاسيين. أما البيض من أهل الجزيرة فتظنّان أنهما أكثر بياضاً منهم، إذ، بحسبهما، فإنهم قد تخالطوا والزنوج منذ زمن العبودية، ومن المستحيل أن تسمحا لهم

بتدنيس فراشهما. لا تحبّان سوى الكهنة المتروبوليين الذين يخدمون في رعية القديسين بطرس وبولس، وبالأخصّ الأب مونديشيلي، الفاسد هو أيضاً. في البداية كان يأتي للمنزل ليحمل مواساة الدين لأركانيا في مرضها الطويل. يأتي ويذهب حاملاً كتاب صلواته تحت ذراعه، ثم أصبح يأتي وحيداً. كان حاضراً طوال النهار، يعترف له الجميع حتى زورا ودوناتيلا اللتين بدأتا تقريباً اكتساب اللغة. يوم الأحد، يتناول طعام الغداء معنا. يأكل ويشرب عن أربعة أشخاص. آه لو بإمكانك أن تري كلّ تلك الإناث من حوله وهنّ يقلن له: «يا أبتِ»، ويتسابقن لملء كأسه وصحنه. كنّ يعاملنه كديك. قرابة الساعة الخامسة، يعزف على البيانو وترافقه العائلة بالغناء. كان دائم المجاملة للجميع وخصوصاً رينالدا على صوتها، وهذه الفقيرة المسكينة تصدّق وتتبختر. يردّد ويعيد إن لديها هبةً من الربّ العلي، وإن عليها أن تستغلّها في المستقبل. أما أنا فلا يفتأ ينظر إليّ. حين أقدّم الطعام له على الطاولة ألاحظ أنه يرتجف مثل الأب ستاينر. يرغب في وضع يده عليّ لكنه لا يجرؤ، وما كنت، في كل الأحوال، لأسمح بذلك. حين تجالس العمّة زيتا والعمّة ليا أركانيا، ترويان لها الإشاعات والثرثرات المنتشرة في لابوانت، كل أشكال النميمة عن أشخاص لم تكن هي تعرفهم حتى. لم تكن ألسنتهما تنضب قطّ. تدّعي السيّدة أركانيا الاهتمام، ولكن من الجليّ أن هذه القصص سبّبت لها الملل والتعب. تصطبغ وجنتاها بالأحمر كالتفاح الفرنسي، وتغلق عينيها. أدخل كإعصار إلى الغرفة وآمر الجميع بالخروج. إلى الخارج! هيّا!

كنت خجلة من علاقتي بجيان كارلو، مع ذلك أعاود الكرّة كل ليلة. كان ذلك أقوى مني. ومع أن جيان كارلو يعتقد بأنها تعرف ولا تكترث، إلا أن ذلك لم يبعث في نفسي الراحة. كنت خجلة من نفسي، خجلة جداً،

لأن السيّدة أركانيا تحبني وإن بدا ذلك غريباً. أستطيع القول إنها الشخص الوحيد الذي أحبني في المنزل، وذلك لأنها تحب كل الناس بكلّ بساطة. ليس من مكان سوى للحب في قلبها. تحبني أنا التي لم يحبني أحد، ولا حتى طفلتي. حين أنتهي من غسلها وتعطيرها وإلباسها، أدعها تستلقي على سريرها. تقبّلني بعدئذٍ لتشكرني على الرعاية الطيّبة التي أحيطها بها، وتقول لي: «مسكينتي نينا، حياتك تشبه حقل قرّاص، ولكن لا تظنّي أن ذلك مردّه لون بشرتك. انظري إليّ، انظري إلى زيتا وليا. نحن من البيض ولكننا نتعذّب عذاباً مرّاً مثلك. حياتنا نحن النساء تقتصر على الحداد والخدمة، لافتقارنا إلى التعليم القادر وحده على تحريرنا. هذا ما أكرّره على مسامع أطفالي. عِديني أنك ستهتمّين بهم بعد رحيلي!».

كانت قلقة جدّاً أن تموت وتترك أطفالها خلفها، فهي تعرف جيّداً كم أن زوجها بخيل وأناني وممراح. لم تكن تجهل أن جيان كارلو لا يعبأ لبناته. حسرته الكبرى أنه لم ينجب ولداً ذكراً. لم يكن يخفي ذلك. بل يردّده طوال الوقت، الأمر الذي يفطر قلب السيّدة أركانيا. رغم مرضها، فإنّ السيّدة أركانيا قادرة أن تعيش على هذا الحال لمدة طويلة إذا اتخذت الاحتياطات اللازمة. «ما من مشكلة» كان الطبيب الذي تابع حالتها يردّد. توفّيت بهذه السرعة بسبب الأفكار السيئة التي حشوها في رأسها حين اختفت رينالدا في أحد الأيام. أرادت الشرطة التي أتت في البدء لطرح الأسئلة أن تلقي بالملامة عليّ، مدّعين أني أعاملها معاملة سيئة وأضربها أنا التي لم أرفع يدي عليها مطلقاً طوال كل تلك السنوات. ثم بدأت قصة فيوريلا، قصة الاغتصاب بالانتشار. كيف تمكّنت من اختراع قذارة كهذه؟! ما زلت أتساءل. هذا دليل على أنها لا تفكّر سوى بالشرّ. عادت الشرطة بسبب ذلك لتستجوبني، والغريب في الأمر أنهم لم يحقّقوا مع جيان كارلو

إطلاقاً. لا! لا أحد سواي. السور المنخفض(*)... لساعات طرحوا شتى الأسئلة الغبية عليّ، وطبعوا أجوبتي على الآلة الكاتبة. أسموني «الشخص المستجوَب»، كما لو أنهم لا يعرفون اسمي، وختموا تقريرهم بنبرة مهيبة لم تُثِرْ خوفي، فضميري كان مرتاحاً:

«لأن صاحبة العلاقة لا تعرف القراءة والكتابة، تمّت قراءة التصريح الوارد أعلاه، إلخ... إلخ...».

استمرّ الأمر لأسابيع. كلّما ظننت أن الأمر انتهى، يعاودون البدء من جديد. مرة قاطعنا أحد الفضوليين في منتصف وقت الغداء وراح يطرح أسئلته. في لابوانت الناس جاهزون دوماً لتصديق أي شيء بادر عن سوء نيّة. لم يكونوا يتهامسون إلا عن هذا الاغتصاب الذي أدّى إلى رحيل رينالدا عن المنزل. هم أيضاً، على غرار الشرطة، تعاملوا معي على أني المذنبة. في الشارع، رموا اتهاماتهم عليّ. في السوق، رفض الباعة التعامل معي. لم تسألني السيّدة أركانيا عن الموضوع إطلاقاً، ولا زوجها. لكني على يقين بأنها على علم بكلّ شيء يُقال في كلّ الأرجاء، وهو أني شريكة في الأمر، وأني أجبرت الطفلة عبر الإمساك بيديها ريثما ينتهي جيان كارلو من فعلته. أجهد الأمر فكرها وأنهك جسدها. في أحد الصباحات، وأنا أجلب القهوة لها، وجدتها جثة هامدة بكلّ بساطة. أغلقت درف الشبابيك لأمنع الشمس من الدخول، وجلست إلى جانب سريرها دون أن أفكّر في الصلاة. لم أبكِ. لم أشعر بالحزن حقاً. ما كان يحصل حولنا في ذلك الوقت بشعٌ وقذرٌ جدّاً، يفوق طاقة احتمالها. لطالما اعتبرت أنها طيّبة جداً وجميلة جداً أكثر مما تستحقّ الأرض. رحلت إلى المكان الوحيد الذي يليق بها:

(*) إشارة إلى مثل من الأنتيل: «الثيران تقفز حيث يكون السور منخفضاً». [م].

الفردوس. بكى جيان كارلو كطفلٍ صغير. استنتج أنه يحبها حباً جمّاً وأنها كل حياته. رغم محاولاتي كلّها إلا أني لم أفلح في مواساته. بقينا نحن الاثنين معاً لشهور. ذهبت رينالدا لتشنق نفسها في مكان آخر. أين؟ لم يعنِ الأمر لي الكثير. تركَتْ فيوريلا الملعونة المنزل وانتقلت للعيش في «باس تير». أما الأب مونديشيلي، فلم يكن يأتي لزيارتنا منذ مدة. انتهت الاعترافات وولائم يوم الأحد. انتهى الكورال وحفلات الموسيقا. لم يعد يلمس البيانو. في المرات النادرة التي أتى بها لم يكن يهتمّ بالعمّتين زيتا وليا، بل يصعد بعجلة الدرج ليطمئن على أركانيا. لمّا توفّيت، اختفى كلياً. علمتُ بالمصادفة أنه انتقل للعمل في خدمة المصابين بالجذام. مع كلّ الشرّ الذي سبّبه كلام السوء، إلا أنّ ذلك الوقت يبدو لي اليوم وقت سعادة وسرور. رحت أنام في غرفة جيان كارلو في الطابق الأول. أستلقي على السرير الواسع المصنوع من خشب كورباريل، تحت الناموسية التي مثل سماء فوق رأسي. آه! شعرت أن للحب طعماً آخر على هذا السرير. شعرت وكأنّ ساحر فودو حوّلني بين ليلة وضحاها من عبدة وخادمة تقوم بكلّ شيء، إلى سيّدة حرّة التحكّم بجسدها. لم أعد نينا. لم أعد أجد حرجاً في الصراخ وإصدار مختلف أنواع الأصوات. للأسف، قرّر جيان كارلو أن يتزوّج من جديد، وعدت أنا إلى سقيفتي الحقيرة. ولكن ليس لمدة طويلة، انتبهي! لم أشعر بالحسد حقّاً. أشفقت على آنا ليفيا كارلوسيا. كان يحاول الحصول على ما لم يستطع الحصول عليه مع السيّدة أركانيا: إنجاب صبي. لقد كان ذلك هاجساً بالنسبة له. لم يفكّر إلا بذلك، ذكر. ذكر ينقل إليه إرثه وأمواله ومهنته واسمه. حين أعاود التفكير بهذا، لا أظن أن جيان كارلو يمثّل استثناء. في ذلك الوقت لم تكن الأمور مثل ما هي عليه اليوم، لم يكن للبنات أي أهمية في العائلة. الرجال، والنساء أيضاً،

لا يرغبون في إنجاب سوى الأولاد الذكور. حضّر جيان كارلو كل شيء مسبقاً. سيطلق على ابنه اسم والده: مارسيلو. صار يتخيّل نفسه يلعب كرة القدم معه، وعند بلوغه سيصحبه إلى الماخور في منطقة «كاي»، كي لا يلمس نفسه بيده ويسبّب لنفسه أمراضاً مختلفة. للأسف، الله، الذي لا أحد يعرف ماذا في رأسه، لم يحقّق له رغبته. توفّيت آنا ليفيا وابنه معها. سبّب ذلك له صدمة كبيرة.

أظن أننا في تلك المرحلة انتقلنا إلى الحزن والحداد من جديد. عادت الشرطة لتحوم من حولنا. سردت فيوريلا قذاراتها لأحد القضاة في «باس تير»، وبالطبع لم يُستدعَ أحدٌ سواي إلى قسم الشرطة. كان عازم الأمر، هذا القاضي. ما زالت صورته مطبوعة في مخيّلتي: خلاسي أسمر ممن يطلقون الريح أعلى من مؤخّراتهم. في أحد الأيام، قضى كل فترة قبل الظهر يراقب على الرصيف قبالة المتجر. أذكر أنه في لحظةٍ ما دخل ليرى البائس جيان كارلو الذي لم يكن يفكّر إلا بابنه مارسيلو، الذي وُضع ليتعفّن في بطن الأرض. الناس عديمو قلب. لم يستطع القاضي اكتشاف أي شيء، لا شيء، لأني لم أقم بأيّ شرّ ولا جيان كارلو أيضاً. أحياناً كنا نتساءل ماذا حلّ بريناالدا. أنا متأكّدة من أنها تختبئ في مكانٍ ما، حيّة ترزق، تفعل شرّاً ما. هو يشعر بالشفقة عليها. كان يقول إنّ الناس أشرار في هذه البلاد، ولا بدّ أن أحدهم آذاها، أمسكها لدى خروجها من المدرسة وضربها حتى الموت وألقى بجثتها في وادٍ.

نهاية قصتنا الحزينة أكثر حزناً. بعد أن كاد يفقد عينيه، جيان كارلو، الذي لم يكن يحبّذ الروم كثيراً، وكان يشرب منه قدحاً صغيراً يوم الأحد مع الأب مونديشيلي، بات مدمناً عليه كلياً. كم كان ذلك رهيباً حين يشرب! لا

يعود يتذكّر أيّ شيء أو أيّ شخص. ينظر إليّ كما لو أنها المرة الأولى التي يراني فيها. لا يفعل شيئاً إلا أن يذرف الدموع، ويذكر اسم السيّدة أركانيا. يتكلّم عن شبابهم في «ميلان»، عن بداية حبهم الذي أبقوه سرّاً خوفاً من والدها الغيور، باولو رينوشي، عن لجوئهم إلى إحدى ضواحي المدينة، عن رحلتهم في القارب التابع للشركة العامة لعبور الأطلسي، عن وصولهم إلى لابوانت في نهاية الحرب. يقول إنه ما كان عليه أن يصدّق الإعلانات التي رآها في المجلّة، ولا أن يأتي ليستقرّ في غوادلوب، هذه الأرض الملعونة. أيضاً، صار يائساً من الحياة بسبب القذارات التي اخترعتها ابنته عنه. هو لم يضرم النار في سريره. في تلك الليلة، كنت في سقيفتي ولم أسمع شيئاً. رحل دون أن يهتم لأمري ولا لأمر أي أحدٍ آخر. لم يترك لي سوى عينيّ لأبكيه بهما. لم يترك لأطفاله سوى الديون، لا منزل عطلات في «فيرنو» حيث يذهب الأرستقراطيون، ولا قطعة أرض، ولا قرشاً واحداً في المصرف. في يوم واحد بيعت كل أملاكه في مزاد علني ولم يبقَ شيء. حتى يوم رحيلهم عن الجزيرة، ظلّت البنات الأربع أودورا وماريا أديلايد وزورا ودوناتيلا يطلبن الإحسان من لويجي كارلوسيا، والد المرحومة آنا ليفيا. لم يفتأن يبكين على كل القبور التي سيتركنها خلفهن. أمّهنّ وأبوهنّ وعمّاتهنّ وأخواتهنّ اللواتي متن عند الولادة أو في عمر صغير. أتساءل أحياناً عن أحوالهن هناك في إيطاليا. لم يتواصلن معي على الإطلاق. حين كنّ صغيرات، أنا من اعتنى بهنّ، وكنّ يقبّلنني ويداعبنني بشتى أنواع الدعابات. مع تقدّمهنّ في العمر، بدأت فيوريلا وريناالدا ببثّ سمومهما في عقولهن وحثّهن على كراهيتي. لا ألومهن وآمل أنهن لسن تعيسات في المكان الذي هنّ فيه الآن. لقد عانين بما فيه الكفاية.

أترين؟! لقد أكملت الدائرة، عدت إلى المكان الذي ابتدأت فيه

حياتي. حين توفّي جيان كارلو، كان عمري خمسةً وثلاثين عاماً، ولديّ أسناني كلّها وشبابي كله. مع ذلك، لم أرغب بأيّ رجل. ما كنت أسمح لأيّ رجل أيّاً كان، زنجياً، خلاسياً، هندياً، أبيض من الجزيرة أو متروبولياً، أن يظفر بي. يشهد الله عليّ أنه منذ أن دُفن لم يشاركني أحد مضجعي. رفضت كل أولئك الذين يلهثون ورائي مهتاجين كالكلاب من الرائحة التي يشمّونها عليّ. لم أرغب أيضاً في العمل لدى أحد، وأن أطأطئ رأسي له: «نعم سيّدتي، نعم سيّدي»، أن أتحمّل ازدراء الناس وأوامرهم. عدت هنا إلى المكان الذي وُلدت فيه. على الرغم من سنوات الغياب إلا أن داري ما زالت صامدة في مكانها. احتجت فقط أن أضع المفتاح في القفل حتى انفتح الباب على العزلة التي تنتظرني. ما زلت حيّة أُرزق رغماً عني، وذلك لأن لا قدرة لنا على التحكّم بالموت. لا يسعنا سوى القول له: «ارأف بي! تعال الآن، أنا تعبة جداً، أنهِ عملك معي!»، أودّ أن ألتحق بالأشخاص القلّة الذين لديهم مشاعر صادقة تجاهي. جدتي وأمي. جيان كارلو؟ آه، لا! لم يعد لي! أتخيّل أنه يقضي وقته في الفردوس وهو يطلب الصفح من السيّدة أركانيا على ما اقترف بحقّها على الأرض. لا بدّ أنه لم يعد يذكر الآن أني كنت موجودة في حياته. أفكّر فيه دائماً. رغم تقدّمي في السن، ما زالت مياه جسدي تبقّع شراشفي كل ليلة أتذكّر فيها اللحظات الطيّبة التي قضيناها معاً. أحياناً أستيقظ وأظن أني سأجده هنا نائماً إلى جواري، ثقيلاً كجذع شجرة، فأهزّه قائلة: «يا معلّم، أشرقت الشمس وما زلت هنا»(*). أنا وحيدة، هذا صحيح، لكني لست محتاجة إلى أحد، لا أصدقاء ولا زوّار. لا أحد يأتي هنا ليتجسّس عليّ ويتكلّم عني بالسوء خلف ظهري. لديّ كل

(*) بالكريولية في النص. [م].

ما أحتاج إليه لأطبخ طعامي اليومي. الزمن قد تغيّر ولم يعد الناس يُتركون ليموتوا جوعاً. المساعدة الاجتماعية التي لم أطلبها توفّر لي كل ما أحتاج. يرسلون لي كل شهر حوالة نقدية، وصدّقيني أني أملك اليوم من النقود ما لم أملكه في كل حياتي البائسة، خصوصاً حين كان جيان كارلو ينسى دفع مستحقّاتي الشهرية، وأصبح غير قادرة على دفع ثمن الصندل وملابس المدرسة الخاصة برينالدا.

تبدين كمن خاب أمله، حزينة. ليست هذه القصة التي تودّين سماعها. أليس كذلك؟(*) تخيّلت كثيراً من الأشياء في ذهنك وأتيت إلى هنا، عبرت المحيط باحثةً عن مرتكز لتخيّلاتك. للأسف لا يمكنني أن أقدّم لك الأحداث التي تطرب أذنيك لها؛ لا أستطيع إعطاءك إلا الحقيقة. لا أستطيع أن أروي لك إلا ما حصل. لم يكن جيان كارلو يوماً أباك. من أبوك؟ وحدها رينالدا تعرف من هو وتستطيع إخبارك. لم يضع جيان كارلو يده عليها إطلاقاً. ماذا بإمكانه فعله مع بنت مثلها لا تملك مقدّمة ولا مؤخّرة، مسطّحة مثل لوح تقطيع الخبز. كان يحب النساء الجميلات والمكتنزات مثلي. لا أودّ التبجّح، ولكني كنت جميلة في شبابي. حين أمرّ أمام الزنوج والخلاسيين والبيض كانوا ينظرون إليّ وإن كنت حافية القدمين وأرتدي ثياباً رثّة. الجمال عديم الجدوى ولا يستمرّ، أدركت ذلك باكراً. لا يذهب جمالك للتسوّق عوضاً عنك، كما أنه يجعل الرجال استغلاليين. ما احتجته ولم أظفر به هو التعليم والقليل من الحظ. كان بإمكاني أن أقلب غوادلوب رأساً على عقب. للأسف لم أعرف سوى الحظ الرديء. إن كان لي من نصيحة أسديها لك، فستكون أن تنسي كل

(*) بالكريولية في النص. [م].

هذا وأن تعودي أدراجك من حيث أتيتِ. أميركا؟ مكانك ليس هنا. أنت من أرض غريبة. كل واحد هنا يعرف منذ الولادة الطريق الذي سيسلكه في الحياة، والمكان الذي سيرقد فيه في النهاية. لا تسألي أمك عن شيء، هي كاذبة من الطراز الأول. اتركيها مع قصصها المملّة. ولا تسألي أيّ أحد. أنت متعلّمة وبصحة جيّدة، عيشي حياتك!

ما الذي ينقصك؟!

.6

– إن بقيت معي هنا سترين أنّ بإمكاننا أن نعيش معاً.

وقع هذا الاقتراح على ماري نويل كما تحطّ ذبابة عنيدة على وجه شخص نائم. أبعدته بيدها بالطريقة نفسها التي كانت لتبعد الذبابة فيها. تمالكت نفسها وحاولت أن تجد إجابة. لامت نفسها، إذ كان عليها أن تعي أيّ نوع من الرجال هو. هو من النوع الذي لا يمكنه تخيّل امرأة تقضي عدّة ليالٍ بين ذراعي رجل لأنها متعبة وخائبة الأمل فقط، لأنها تتخذ من اللذة علاجاً لها. رجل رومانسي ومتأخّر! نظرت بانتباه متجدّد إلى الجسد العاري المتمدّد إلى جوارها. لا شيء يقال. جسد رياضي جميل، نحاسي اللون، عضلاته بارزة، فهو يمارس السباحة يومياً إلى جزيرة «غوزييه» ذهاباً وإياباً. رغم ذلك، لم تكن مشاعرها نحوه سوى تقدير مبهم للذّة الممزوجة بنوع من الشفقة التي منحها إياها. مع أنه أكبر منها سناً إلا أنه الأضعف. لم تخذله الحياة بعد وما زال ينتظر منها المسرّات. جلست على السرير وشدّت الشرشف حتى ذقنها، وبدأت تشرح له بتأنٍّ أنه يرتكب خطأ. لن يكون سعيداً معها. حكت له للمرة الأولى عن حياتها في أميركا، عن ستانلي، وعن رينالدا التي يمكن أن تكون السبب الرئيس في أنها باتت غير

قادرة على إيجاد هدف لحياتها. لكنها شعرت أن هذه الشروح، عوضاً عن تبريد همّته، زادت من عزمه توقّداً في أن يكون هو من يجلب لها السعادة التي، كما قالت، لم تعرفها يوماً. كان قد بدأ يحلم بها، ولا بدّ أنه سيحترق بنار الجوى كطالب إعدادية عاشق بعد رحيلها.

هي واعية للحميمية التي نشأت بينهما. بعد أن ذهب سيريل إلى «غراند آنس» ليهتمّ بمرضاه، بقيا جالسين على الطاولة يستمعان إلى رواية نينا. حلَّ ظلامٌ كثيف اضطرّت معه نينا إلى إشعال سراج الزيت الموضوع على الطاولة، لكن الفتيل كان في حالة يرثى لها، يطلق دخاناً أكثر مما يشعّ نوراً. لم تظن ماري نويل قطّ أنها ستستلطف نينا وتصبح قريبة منها. لكن هذا ما حصل. لم تكن نينا شخصاً كريهاً. خلف قناع الوحشية الذي تضع، يختبئ شخص ضعيف يستحق الشفقة. تتكلّم ببطء متكئة على الجدار ومتكوّرة على نفسها، دون أن تنظر إلى أحد كما لو أنها لا تكترث لمن كانا ينصتان لها، كما لو أنها لا تروي القصة لتقنع أحداً بها أو لتدفع تهمة عن نفسها، بل لتُخرج هذا الماضي المدفون في أعماقها. حين توقّفت عن الكلام، بقيت ماري نويل وجود أونزي في مكانيهما دون أن يجرؤا على الحراك، خوفاً من أن ينتهي سحر اللحظة. انتبهت نينا أنها ليست وحيدة، أدارت رأسها قليلاً ونظرت إلى ماري نويل نظرة غريبة. الضوء الذي يلمع في عينيها يعني أنها تتأمل هذه الحفيدة التي لم تكن تعلم بوجودها وأنها مسرورة للقائها. للأسف ماري نويل غير قادرة على الردّ على هذه المشاعر. لا تشعر بأيّ شيء سوى سأمٍ شديد، مثل سبّاح وصل إلى خطّ النهاية وشعر بأن كل جهوده باءت بالفشل، وبأنّ عليه أن يعاود الكرّة من جديد. ستظلّ تتذكّر حتى آخر لحظة في حياتها ذلك اليوم من تشرين الثاني، الليلة التي سبقت سفرها إلى بوسطن، عندما روت لها رينالدا عذاباتها. بعد كل هذه

السنوات، استعادت كل ملامح وجهها معدوم النور، واستعادت نبرة صوتها الرتيبة والرخيمة من كثرة ما كتمت من تنهّدات.

***

كان الجميع نائمين في الأسفل. من خلال نافذة غرفتي، يصلني صراخ السكارى الخارجين من الحانة في شارع «باربيس»، ممن يتعاركون حول كأس روم ويطلقون الشتائم.

اعتاد أن يأتي يومياً في الوقت نفسه. قرابة الساعة الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف، قبل أن يمضي ما تبقّى من الليل مع أمي كما لو أني صحن مقبلات يسبق الطبق الرئيس. لم يكن بإمكاني فعل أي شيء سوى الانتظار، انتظار تلك اللحظة المحتومة، أترقّب وأنا أرتجف في سريري من خوف يجمّد الدم في عروقي. يصعد الدرج دون عجلة، يتعثّر ببعض الدرجات لأنه يشرب كميات كبيرة من الروم، بعد أن يغلق جوزيه الصانع ستارة المتجر الحديدية حتى نهاية النهار. كان ذلك شبيهاً بإعصار يقترب مني لا أستطيع إيقافه سيخرّب كلّ ما أملك، أو بحيوان مفترس على وشك الانقضاض عليّ، أو سوكونيان(*) يودّ مصّ دمي. تستقبله أمي على العتبة، بعد أن تكون قد غسلت أرض المطبخ، ووضّبت غرفة الطعام، ووضعت الزبادي والمعالق على الطاولة تحضيراً لفطور صباح اليوم التالي. يتبادلان القبل كحيوانات، ثم يظهر وجهها الأبيض الشبحي تحت شعرها الكثيف الأجعد من فتحة ستائر قماش الكريتون التي تقسم الغرفة إلى قسمين. يبتسم ابتسامة خفيفة، ومن ثم يدخل الغرفة قائلاً: «كيف حالك يا دجاجتي

(*) سوكونيان: شخصية خيالية تمصّ الدماء، ويمكن أن تتخذ شكل كرة نارية أو طائر أسود. تتاجر بدماء ضحاياها مع الشيطان، وبهذا تكتسب القدرة على تجريد نفسها من جلدها، فيصبح الجسم مضيئاً وخفيفاً. [م].

الصغيرة؟». أمي تدخل أيضاً وتجلس بجانبي وتشاهد ما يحصل. أحياناً تمسك لي يدي أو رجلي. حين أبكي، تردّد: «أنت لا تعرفين ما ستقاسين لو أنّ زنجياً بالغاً من يضاجعك!».

بعد أن يفرغ من حاجته، يذهبان معاً. أنهض ببطء بعد برهة دون إشعال شمعة ودون إصدار ضجيج. في الواقع، يكونان مشغولين جداً لدرجة أنهما لا يسمعانني. يلعبان ألعابهما. يضحكان. يصرخان. أمي تئنّ كجرذ أو تصرخ كخنزير يُساق للنحر. هذا ما كان عليّ أن أتحمّله ليلةً بعد ليلة. في الليالي التي يكون فيها الطقس رديئاً، حين يرقص المطر كامرأة مجنونة على سقف التوتياء، وتتدافع أصوات الرعد للدخول من النافذة، كنت أصلّي أن يصيب برقٌ الغرفة ويموتا في الحال، أن يصبحا قطعتي خشب متفحّمتين. أنزل الدرج وأمشي على رؤوس أصابعي حين أصل إلى الطابق الأول. تكون أبواب الغرف مغلقة كلها. أقف أمام باب الغرفة التي تنام فيوريلا فيها إلى جوار أخواتها. أعلم أنها هي أيضاً ليست نائمة، فهي تعرف معاناتي ولكن ليس بمقدورها فعل أيّ شيء لأجلي. كنت أشعر بالوحدة، أني وحيدة تخلّى عنها الله، وأتساءل عن الذنب الذي اقترفت حتى أستحقّ مثل هذا العقاب. حين أصل إلى الطابق الأرضي، أنجح في فتح أحد الأبواب المؤدية إلى غرفة الطعام التي تصرّ أرضيتها تحت أقدامي، وأعبر الفسحة حتى الحمّام بالقرب من المطبخ. كان هنالك صنبور يقطر ماءً فوق حوض حجري صغير. الدموع تسيل على خديّ ولا أشعر بها. أملأ الحوض وأدخل في الماء البارد الذي يحرق لي فرجي. كان لديّ الانطباع بأني أنظّف نفسي قليلاً، أني أطهّر نفسي مما حصل للتوّ وما سيحصل في اليوم التالي والذي بعده، وكل ليالي حياتي حتى الموت.

***

مثل هذه القصة لا يمكن أن تُخترع. لا يمكن تخيّل تفاصيل كهذه. إحدى السيّدتين تكذب كذبة كبيرة. من منهما؟ أهي رينالدا؟ أهي نينا؟ ليس بوسعها أن تحزر وتحصل على جواب لسؤالها. بثّت هذه الخلاصة اليأس في نفسها. نهضت دون أن تقول شيئاً، واتجهت إلى الباب الذي كان الكلب الكريولي نائماً في وسطه. بعد أن تجاوزت العتبة، إحساس لا عقلاني وعنيف، يشبه الندم، تملّكها. التفتت إلى نينا الجامدة في مكانها تنتظر، وعادت لتطبع قبلة على وجنتها الدافئة، وجنة أحسّت بنضارتها تحت شفاهها.

لم تبكِ إلا بعد أن خرجت، هي التي لم تبكِ منذ سنوات، حتى لمّا تركها تيري ومن بعده ستانلي، ولمّا توفيت رانليز.

استغلّ جود أنوزي الفرصة مباشرة ليتقرّب منها، فوضع يده حول خصرها وهو يهمس لها بكلمات مواساة ليس باستطاعتها مواساتها، وأسندها طوال طريق العودة إلى «غراند آنس». كان الطريق طويلاً جداً. تارةً درباً ترابياً، وتارة طريقاً عريضاً، ولكنه مليء بالحفر ومتعرّج ويمرّ في منطقة تشبه روايات الخيال العلمي. في بعض المواضع يحلّ مكانَ أيكة الصبار شيءٌ يشبه غابة جافة، حيث الأشجار التي تأخذ أشكالاً مريبة كانت لتثير فزع أول رجل وضع قدمه على سطح القمر أكثر من القمر نفسه. هذا الأخير اتكأ على سحب نحيلة في كبد السماء، يسخر كعادته من قضايا الناس المعقّدة. كانت الريح الشديدة تدفع بالنجوم إلى الجانب الآخر من السماء، وبدا لماري نويل الضائعة في هذا الفضاء الكئيب والتي تمشي متعثرة، أنها تعيش إحدى هذه القصص التي قرأتها في طفولتها عن يتيمة مسكينة تبحث دون جدوى عن ملجأ يحميها من الليل والخوف. وصلا إلى «غراند آنس» أخيراً. كانت البلدة غارقة في الظلام باستثناء بعض

الأنوار القليلة القادمة من خلف درف الشبابيك وأعمدة إنارة الأرصفة. هنالك ظلمة ولكن لا سكون. الجوّ مفعمٌ بمختلف أنواع الأصوات، من نقيق ضفادع تتجه بصلواتها إلى السماء الجافة، إلى صرير حشرات مختبئة في الأعشاب، مروراً بنباح كلاب ضالة، وفوق هذا كلّه هدير البحر الغاضب لسببٍ ما.

دخل جود إلى أجمل غرفة على الإطلاق حُضّرت لاستقبال ماري نويل ليمارس الحبّ معها كسلطان.

- هكذا أنت راحلة!

لم يكن ذلك سؤالاً؛ بل استنتاجاً نُطق بنبرة آسفة. في الوقت الذي يلعب فيه كيفن وراندي بصوتٍ عالٍ في إحدى زوايا الغرفة، كانت كلير ألتا تطوي بعناية، مطأطئة الرأس، الكنزات وسراويل الجينز الخاصة بماري نويل. كانت قد غسلتها وكوتها في الأمس، قطعة قطعة، ونشرتها على السرير كما لو أنها تريد أن تظهر للجميع بساطة ملابسها. تطويها وبالعناية نفسها تضعها في الحقيبة، وتحاول ألّا يُظهر وجهها مشاعرها. لكن يكفي النظر إلى جفونها المغمضة بعناد وفمها المغلق لإدراك الملامات التي لم تنطق بها. لم تحاول ماري نويل أن تشرح أسبابها هذه المرة، ليقينها بأن هذا لن يفيد بشيء؛ اكتفت بالتمتمة بنبرة أرادت لها أن تكون مقنعة أنها ستعود. متى؟ في القريب العاجل. في الإجازة المقبلة إن كان ذلك ممكناً. ربما ستصبح واحدة من أولئك المصطافين الذين يسكنهم الحنين ويعودون سنوياً إلى بلد الطفولة بحثاً عن شجرة مشيمتهم(*). لم

(*) إشارة إلى تقليد شائع في جزر الأنتيل، إذ تدفن النساء مشيمة الطفل بعد الولادة تحت شجرة. [م].

تعارضها كلير ألتا، ولكنها عبّرت عن امتعاضها من هذا الكذب التقيّ بحركة من فمها، وتابعت طيّ الملابس وتوضيبها. فجأة، بدت وكأنّ قواها قد خارت، رمت بنفسها على السرير وأمسكت رأسها بيديها الاثنتين وأخذت تبكي. لماذا البكاء؟ ببساطة لأنها تنتمي لهؤلاء الناس الطبيعيين الذين يبكون في لحظات الوداع والدفن، ويمرحون في حفلات الخطبة والزواج، ويصفّقون في حفلات العماد. اقتربت ماري نويل منها، خجلة من نفسها لافتقارها إلى المشاعر. أمسكت بيدها كنوع من المواساة. تنهّدت كلير ألتا وقالت بين شهقتين: «من كثرة ما فكّرت في الأمر، تذكّرت قصة تتعلّق بأمك. لا أعلم ما إن كان لها أي أهمية».

رينالدا؟!

في إحدى الأمسيات، كتبت رينالدا رسالةً لشخصٍ ما. حدث هذا بعد أن انتهت من غسل صحون العشاء وشطفت المطبخ، وفركت ولمّعت الطناجر وعلّقتها الواحدة بجانب الأخرى على الجدار. جلست رينالدا على سريرها، وعلى ضوء مصباح «بوتوغاز» راحت تكتب بانفعال على الأوراق التي انتزعتها من دفتر كلير ألتا المدرسي. حين انتهت بعد ساعات لأنها كتبت صفحات عدة ومزّقتها وعاودت الكتابة من جديد، أعادت قراءة الرسالة وهي تبكي وتنتحب. حين اقتربت منها كلير ألتا لتواسيها دفعتها بقوّة، بعنف تقريباً، كما لو أنها خائفة أن تطّلع على محتواها. في صباح اليوم التالي، أرسلت الرسالة بالبريد بنفسها، فقد عرجت على مكتب البريد الذي كان في ذلك الزمن غير بعيد عن ملجأ «سان جول». أخذت بعد ذلك تترقّب مجيء ساعي البريد. لم يكن ساعي البريد، السيّد ديموستين، يتوقّف أمام منزل رانليز. آنذاك كان ساعي البريد يلبس طاقية كولونيالية فقط لحمايته من حرارة الشمس، ويتنقّل راجلاً حاملاً حقيبة

مليئة بمختلف أنواع المغلّفات على كتفه، ولا يستريح في سيارة صغيرة صفراء كسعاة بريد اليوم، ويطلق زموره ليدعو الناس للخروج والتوقيع على استلام بريدهم المضمون. كانت رانليز تدعوه أحياناً لشرب كأس ماء بارد كبير يفرغه دفعة واحدة، بينما كلير ألتا تتابع بنظرها حركة تفاحة آدم صعوداً ونزولاً في حنجرته. بعد بضعة أيام، ثمانية، سبعة، ربما أقل، وصل الجواب على مكتوب رينالدا. كان ذلك يوم أربعاء، اليوم المفضّل لكلير ألتا، لأنه لا دراسة فيه، ولأن رانليز تكون في إجازة من عملها في مطعم «تريبور بابور». بعد ذهاب رانليز مع جيراردو بوليوس، تظلّ الفتاتان في المنزل، وهكذا يتاح لهما العودة إلى النوم وتناول الشوكولا ولعب «خمسة تربح» والاستماع إلى الراديو. لا تحتاجان إلى إنهاك نفسيهما في تنظيف المنزل برمّته منذ الصباح الباكر، ومسح الغبار المعشّش في زوايا البيت المخفية. جفلت كلير ألتا حين طرق السيّد ديموستين الباب وهو يلوّح بمغلّف بنّي عادي لا يحمل علامة البريد الجوي ذي الأطراف الزرقاء والحمراء والبيضاء، وقال: «لديّ رسالة لكم. الرجاء التوقيع في الأسفل»(*).

أتت رينالدا الحامل في شهرها السابع من الغرفة الأخرى بخطوات مترددة صغيرة مثل طفل يخشى توبيخ والدته. ثم رمت نفسها على الرسالة وأخذتها إلى غرفتها. بقيت منعزلة بنفسها لمدة طويلة، الأمر الذي أثار قلق كلير ألتا التي وضعت أذنها على الباب وراحت تنادي لها بهدوء. فتحت رينالدا الباب أخيراً، عيناها كانتا جافتين وبرّاقتين، وتلبس حلّة كاملة. خرجت بسرعة دون أن تقول إلى أين هي متجهة، وغابت طوال فترة بعد الظهر دون شرح السبب.

(*) بالكريولية في النص. [م].

جلست ماري نويل على السرير إلى جوار كلير ألتا لأن قدميها كانتا ترتجفان. لا تعلم كلير ألتا الكثير، وليس باستطاعتها إضافة أي معلومة جديدة ترضي فضول ماري نويل. لم ترَ رينالدا تكتب سوى مرة واحدة، وبعدها لم تخرج مرة أخرى من دون أن تقول إلى أين هي ذاهبة. في الحال بدأت ماري نويل تعصر دماغها محاولة معرفة إلى من وجّهت رينالدا رسالتها. لا يمكن أن تكون أرسلتها إلى فيوريلا، فالأخيرة قلبت الأرض والسماء بحثاً عنها. إلى أركانيا؟ العمّة ليا؟ العمّة زيتا؟ كنّ لأعلمن الشرطة التي كانت لتجيء إلى القناة بحثاً عنها. لا، لا! لا بدّ أنها أرسلتها إلى جيان كارلو، كمحاولة أخيرة مع والد الطفل الذي تحمله في أحشائها. لكن جيان كارلو لم يقدّم لها أي عون. ربما أرسل لها القليل من النقود، القليل نظراً لبخله المعهود، كي يشتري به سكوتها. فكرة الذهاب إلى فرنسا ومخاطبة مركز تحفيز الهجرات كي تجد عملاً كانت فكرته وليست فكرة أي أحد آخر. لا يمكن لفكرة مماثلة أن تخطر على بال فتاة بريئة في الخامسة عشرة. نينا؟ دون شك، ولا بدّ أنها كانت تضحك من قلبها في داخلها، حين أقسمت أنها لا تعلم ما حلَّ بابنتها. لكنها عندما تستعيد هذا الوجه العتيق، المهترئ، المهزوم على الرغم من كل العدائية التي يُظهرها، وعندما تستعيد صوتها العجوز، الصخري ذا اللكنة الكريولية الواضحة، لم يكن بإمكان ماري نويل أن تشكّك في صحة رواية جدّتها. حدسها يقول لها إن نينا تقول الحقيقة. كانت تشكّك من ثم في حدسها أيضاً وتطرد هذه الأفكار. لم يكن لها سوى قضية واحدة: الحقد الذي يعتمل في قلبها تجاه رينالدا.

القسم الثالث

.1

حين تغلق عينيها، لا ترى سوى البياض كما لو أن الشمس ما زالت تبهرها، كما لو أنه ليس بإمكانها أن تنساها وتتسامح معها على الوحشية التي تلتهم بها كلّ ما يوجد حولها: الأزهار، الشجيرات، الأشجار، أسفلت الطرقات، الجسور فوق الأنهار، الوديان والجبال، والبحر برمّته، تاركةً محلّها هذا الإشعاع الرتيب الباهر. لطالما تولّد لديها الانطباع أنها حلمت بكلّ هذا: الحديث الباهت اليومي مع كلير ألتا، البحث دون جدوى عن أبيها، تعالي أريستيد دومينكو، هذر الجدة، قصة نينا، ممارسة الحب مع جود أنوزي على مرتبة موضوعة على الأرض، بالقرب من النافذة الكبيرة المفتوحة في شقّته الصغيرة في الطابق السابع من مجمّع أبنية «غليسين أوزابيم». بعد عودتها إلى «روكسبيري»، كل ما حصل في غوادلوب فقدَ واقعيته. تخامرها فجأة ذكرى عبور ديزيراد في نهاية رحلتها، حين تركض خلف الباص على الثلج القاسي، أو حين تدخل نفق المترو المفتوح على وسع. زرقة البحر الفاقعة، رقص الأطواف على رؤوس الأمواج، الأحجار المنحوتة خلف ظهرها في منطقة رأس القصور، كل شيء بات سوريالياً. كانت تتذكّر، بالدقة نفسها التي تتذكّر فيها الأحلام المزعجة، ما بقي من

جمال في وجه نينا الذي يشبه خرائب صرح عظيم مهجور. أحياناً تأكل دون شهية شطيرة، فتنبعث في منخريها روائح أطباق «كولومبو دو كابري». مع ذلك ترفض أن تجعل من رحلتها المؤلمة، التي كان محرّكها الرئيسي هو البحث عن طيف مفقود، رحلةً سياحية. حاولت في إحدى رسائلها إلى لودوفيك أن تشرح له ماذا عنت لها عودتها إلى مسقط رأسها. أجابها برسالة نبرتها مهدّئة وحكيمة كما يفعل دائماً، وحثّها على نزع كلّ هذه القصص القديمة من رأسها، وأن تتقدّم إلى الأمام في حياتها. من باستطاعتها أن تبوح له بمكنوناتها؟ أنثيا لا تكترث نهائياً لعالم جزر الأنتيل، وخصوصاً الفرانكوفونية منها التي لم تعطِ في القرن التاسع عشر وفقاً لها أيّ رواية مكتوبة من قبل عبدة. كما أنها كانت غارقة في عمل مضنٍ، جهد حياتها، حول تحقيق وتقديم نص نثري غير معروف لفيليس ويتلي. هنالك مولارا بنت السنوات العشر وفضولها، أو طلاب جامعة إعدادية «روكسبيري» وأسئلتهم شبه بالغة. كانت غوادلوب بالنسبة للجميع شبيهة بكاليفورنيا، ولكن على أحسن بألف مرة. مكان فردوسي حيث لا وجود لكلمة عاصفة ثلجية في المعجم المحلّيّ، حيث الزهور دائمة الإزهار، حيث الأشجار دائمة الخضرة وتحمل الفاكهة في كل الفصول، حيث تتكسّر على رمال الشاطئ الذهبية أمواج أعلى من ناطحات السحاب. لم يكن لماري نويل جَلَد في تبيان خطئهم هذا، في أن تقول لهم الحقيقة، وهي أنها جزيرة بركانية تقع في جانب المحيط، يتعلّق بها حفنة من رجال ونساء أشدّاء، شجعان، ومصمّمون على العيش فيها مهما اشتدت عليهم الظروف. من المؤكّد أن هنالك منهم من خارت عزيمته واستسلم من شدة البؤس، وقرّر البحث عن غدٍ أفضل في مكان آخر. لقد قرّروا البقاء رغم كلّ شيء في المكان الذي فيه تعب أجدادهم، وسئموا من كثرة ما تحايلوا على الموت.

كانوا يشعرون أنه رغم تعلّقهم بالغوكا خاصتهم، وبالمهرجانات والكريول وحصص الموز والروم الزراعي، إلا أنهم قد ملّوا. لن يستطيعوا الصمود في مواجهة الألفية الثالثة. لحسن الحظّ. والفضل في ذلك يعود إلى جود أونزي الذي كان لديه قراءات جيّدة، اكتشفت ماري نويل كتّاباً محلّيين، روائيين وشعراء، درّست مؤلّفاتهم في صفوف الآداب الفرنسية خاصتها، التي أصبحت تسمّيها الآن آداباً فرانكوفونية. وهكذا عهدت إليهم بناء ميثولوجيا معيّنة حول المكان تناسب الجميع.

بعد قضاء هذه الأسابيع في غوادلوب، عادت ماري نويل إلى حياتها الاعتيادية بنوع من السرور، مثل أن يجد المرء لباساً قديماً غير أنيق، ولكنه معتاد على ارتدائه. للأسف هنالك تغيُّرات كبيرة في المستقبل. كانت تتحضّر لترك إعدادية «روكسبيري»، ولكن ليس ذلك سبب حسرتها الأكبر. كان لديها الانطباع بأنها تترك خلفها أصدقاءها الوحيدين، أولئك الذين ساعدوها على تحمّل أسوأ لحظات حياتها في أميركا.

وجدت لها أنثيا عملاً أكثر احتراماً وأكثر مدخولاً معها في جامعة إنكلترا الجديدة، بشرط أن تنهي هذه السنة أطروحة الدكتوراه التي بدأتها منذ مدة طويلة. لم تجرؤ على الرفض رغم إحساسها بالذنب. هذا العمل سينهي الحرمان الذي تعيشه، والشقة الباردة شتاءً المفروشة كيفما اتفق في كل الفصول، والجوع في نهاية الشهر، والديون التي عليها للبقّال الكوريّ. لقد أصبحت في الثلاثين من عمرها. يظهر ذلك أكثر في وجهها كل يوم مع التجاعيد والتجاويف. لكنها لم تعرف هناءً في العيش مثل ذلك الذي عرفته في بداية شبابها في نيس. لذلك قرّرت أن تنكبّ على كتابة أطروحتها مع أنها لم تكن متحمّسة. لم تستطع إذكاء شعلة الحماسة الماضية في نفسها

من جديد، وكل أعمال جان جينيه باتت بالنسبة لها عديمة الأهمية. لكنها أصرّت وقضت ساعات في المكتبات الجامعية، تلك المقابر التي لا هواء ولا فرح فيها. حين تخرج منها ليلاً، تتذكّر ذلك المشهد السحري للبلاطات اللمّاعة، السوداء والبيضاء، تحت أشجار الكزوارينة في مدن الأموات في مسقط رأسها(*). يا له من تناقض مدهش! هذه الأخيرة على الأقل لم يكن ينقصها لا القوة والجمال. أتاحت الأطروحة المجال لها في أن تكبت رغبتها المشوّشة في أن تصبح كاتبة. لم تكن ساذجة. كيف لها أن تكتب؟ كيف لها أن تمسك بالقلم ما دامت لا تعرف من هي ولا من أين أتت؟ هي ابنة زنى، أبوها مجهول الهوية. يا لها من هوية جميلة! ما دام ليس لديها أي معلومات أخرى تضيفها إلى دفتر عائلتها، فلن يكون بمقدورها أن تنهي أي شيء. وجدت أيضاً حجّة أخرى. قبل عيد الميلاد بقليل، أرسل لودوفيك لها الأيام الغريبة، العمل الذي نشرته رينالدا مؤخّراً. على الرغم من عنوانه إلا أنه ليس رواية، ولا سرداً ذاتياً أو ذكريات أو اعترافات. لا تتحدّث رينالدا فيه لا عن نينا ولا عن جيان كارلو ولا عن نفسها. لقد كانت عبارة عن محاولة موثّقة بشكلٍ ممتاز وطويلة نوعاً ما حول المهاجرين القادمين من جزر الأنتيل وإفريقيا السوداء، وخصوصاً المهاجرات وأحوالهن العائلية والاجتماعية، وصدماتهن، وأيضاً تخيّلاتهنّ الجنسية. تلقّت ماري نويل العمل كلكْمة في منتصف وجهها. نظرت إلى الاسم على الغلاف:

(*) إشارة إلى مقبرة Morne-à-l'Eau، حيث تُحترم ثنائية اللونين الأسود والأبيض (حياة-موت) في تشكيلها المعماري. وتعتبر هذه المقبرة منطقة جذب سياحي، فوجود اللونين، إضافةً إلى ارتفاعات التضاريس المختلفة، يخلق تأثيراً بصرياً خاصاً للغاية، لا سيما خلال الاحتفالات الليلية لعيد جميع القديسين، عندما يُضاء المكان بمئات الشموع ويأتي الناس لزيارة أحبائهم. [م].

رينالدا تيتان، ستّة مقاطع صوتية غامضة، تبدو بلا أهمية، ليست بالأنيقة جداً ولا بالرخيمة، ولكن لديها القدرة على تسبيب السوء. بدا لها وكأنّ أمها تتعارك معها حتى الموت، وتتفنّن في إغلاق كلّ المخارج لها. لقد أغلقت لها في الماضي طريق الحبّ والأمومة، وها هي ذي الآن تغلق لها درب الكتابة. دون أن تقرأه، وضعت الكتاب في أحد رفوف مكتبتها. ولكن منظر الحروف البيضاء على حرف الكتاب الأسود كان يسبّب لها إحساساً بعدم الراحة، لدرجة أن انتهى الأمر بها أنها أخفته في مكان بعيد عنها. رغم ذلك، لم تفارق تفكيرها، وحاولت أن تتخيّل رينالدا في مهنتها الجديدة، التي سوف تتخلّى فيها عن تحفّظها وتبتسم وتشرح.

في شهر آذار، بعد شتاءٍ قاسٍ، جلبت العاصفة الأخيرة فيه أمتاراً من الثلج إلى الشوارع، وتركت ألفَي منزل من دون كهرباء، وقتلت خمسة مشرّدين، عادت آوا لتسكن عند ماري نويل، بعد أن انتهت علاقة الحب التي كانت تعيشها في مكسيكو. آرتورو، الموسيقي الذي ذهبت معه حتى المكسيك، كان عنيفاً وقاسياً ويضربها. رفعت تنّورتها وأظهرت فخذيها المشطّبين. اضطرّت إلى الهروب في منتصف الليل، ولو لم تهرب لكان نحرها. لقد تغيّرت آوا. لم يعد لديها سوى هاجس وحيد يشغل تفكيرها، ألا وهو العودة إلى غينيا. لقد راكمت شعوراً كبيراً بالندم، وكانت تلوم نفسها أنها تركت أمها المتقدّمة في السن في C حيث يفتقر الناس، كما قيل لها، إلى المواد الأساسية، فلا صابون يغتسلون به ولا حليب للأطفال ولا رزّ ولا زيت ولا معجون بندورة. كانت تتذكّر بحنين لحظات من طفولتها مدركةً الآن أنها لم تعرف كيف تمنح نتاشا التقدير الذي تستحقّ. ربما هي ضحية مثلها مثل كل النساء. استمعت ماري نويل إليها واستقبلتها عندها دون تردّد، تقاسمت معها كل شيء كما في الماضي. لكن التناغم بينهما

انتهى، وذلك لا يعني أنهما على خلاف، فآوا لم تكن تجد ستانلي جذّاباً ولا موهوباً، ولم تجد حرجاً في التصريح بذلك مراراً وتكراراً. الأمر هو أنها أصبحت تنظر إلى طفولتهم من منظار مختلف، الأمر الذي هزَّ ركائز صداقتهما. كلّ شيء كان يتفتّت. استغلت آوا فرصة وجود أرتورو في باريس للعزف في حفلة موسيقية، وزارت رينالدا ولودوفيك. منذ تلك الساعة وهي تكيل المديح لرينالدا، النشيطة والذكية، التي بقوّة ساعدها استطاعت أن تصبح شخصية مهمة في باريس. غريب. ففي صغرها كانت تظن أنها بشعة، ولكن تتمتّع بسحر خاص إلخ... إلخ. أما لودوفيك هذا المستنير فلم يكن يتمتّع إلا بطلّة بهيّة. بهيّة؟ اندهشت ماري نويل من هذا التقييم، فهي لم تظن قطّ أن لودوفيك حسن الطلعة. لا تذكر سوى قلبه الواسع الذي فتحه ملاذاً لها.

أضفت آوا كعادتها حيوية جديدة على حياة ماري نويل. راح ينبعث دخان مثير وموسيقا من الشقة في آخر الليل. بدأ رجال لا يوحون بالخير بالصعود إلى الشقة ليقضوا، دون أن يعبؤوا لشيء، أوقاتاً طويلة فيِّ سرير الأولى أو الثانية. الجيران الذين لم يبدوا أيّ اهتمام بالآنسة واتس من قبل، والذين يظنّون أنها إنسانة خلوقة، وينامون، في السنوات الأخيرة، مطمئنين من جانبها، أصبح لديهم الآن كلّ الحقّ في أن يشتكوا عليها.

- بدرجة مشرّف جداً.

صافحت ماري نويل أعضاء اللجنة الثلاثة، الذين بشكلٍ أو بآخر منحوها للتوّ جواز سفر ثميناً. اللجنة مؤلّفة من فرنسية وأميركيين أبيضين اثنين. كم تغيّرت الأفكار منذ زمن حركة «الفهود السوداء»! لم تعد أميركا السوداء تهتمّ بجان جينيه والتفتت عنه إلى القوقازيين. حاولت

ماري نويل جاهدة أن تجد أستاذاً من الإفريقيين الأميركيين ليشرف على أطروحتها، ولكن مسعاها لم يتكلّل بالنجاح. استطاعت رغم كلّ شيء أن تنهي أبحاثها ضمن المهل المحدّدة. في المكتبة، بين صفوف الكتب والمجلّات بالفرنسية والإسبانية والألمانية، كان هنالك مجموعة صغيرة من طلاب وأساتذة تنتظر. لقد أتوا للاحتفال بهذا الإنجاز وتناول الوجبات الخفيفة، غير الملائمة تماماً، التي قدّمها قسم الآداب الأجنبية: بسكويت جاف جداً، مكعّبات من جبن لا طعم له، فراولة ونبيذ أبيض كان من الشحوب بمكان أنه من الممكن الخلط بينه وبين الماء. قامت ماري نويل بمصافحات أخرى وببعض العناقات. اقتربت من أنثيا التي تشعّ فخراً وإلى جانبها مولارا. هذا النجاح حتى لو كان متواضعاً، هو نجاحها. وحدها ولا أحد غيرها استطاعت أن تحوّل مهاجرة مذعورة، متزوّجة من موسيقي مفلس إلى أستاذة جامعية محترمة. عرقها سيكون ممتناً لها، أما هؤلاء الذين يتشدّقون بأن الحلم الأميركي قد أصبح من الماضي، فهذا الدليل على أنهم يهذرون. الحلم الأميركي ما زال حيّاً، وها هو ذا يعطي، لمن لديه عينان ليرى بهما، الإشارات على حيويته. هندام أنثيا ومولارا كان على مستوى الحدث. الأم ترتدي بنطالاً من قماش «أشانتي»، عريضاً على الطريقة الإسلامية، وقميصاً واسعاً كالذي تلبسه نساء «غا» في منطقة «أكرا». وضعت على رأسها وشاحاً عريضاً يلتصق بشعرها في مواضع ومنفوخٌ في مواضع أخرى. لباس ابنتها شكلٌ مصغرٌ عمّا ترتديه والدتها. ضمّت أنثيا ماري نويل إلى صدرها ضمّةً تعبّر عن مشاعرها الصادقة. الأخيرة أيضاً ضمّتها بحرارة وضمّت وقبّلت مولارا. مع أنه يوم سعيد، لم تخالجها أحاسيس أنثيا نفسها. ليست مسرورة بهذا الإنجاز الذي يمكن له أن يكون مفتاح صعودها السلم الطبقي. لم تشعر بأيّ فخر أكاديمي

أيضاً. الإحساس المسيطر كان نوعاً من الانفراج، كما لو أنها تخلّصت من إجراء صوري مملّ. في الحقيقة كانت تشعر بالخوف، وتتساءل ما إن كان بإمكانها أن تصبح مثل أقرانها، مختصّة مشهورة، لها العديد من المؤلّفات الجامعية الهامة، تتكلّم برطانة ولا يجاريها أحد. تولّد الانطباع لديها بأنها، أمام خيارَي الحياة مثل أنثيا أو مثل آوا، قد اختارت دون أن تدري الخيار الثاني. حياتها ستكون مسكونة بالوحدة والفقر العاطفي إلى الأبد. ماذا كان ستانلي ليظن بهذا الإنجاز، هو الذي يفتخر بأنه لم يقلب صفحة في كتاب أو في مجلّة منذ تركه للمدرسة؟ ماري نويل مذنبة في أنها لم تعُد يوماً إلى «أبلدرون» حيث يرقد. هذا صحيح، لم تزره البتة في التواريخ التي تُزار بها القبور عادة. 2 تشرين الثاني. 1 تشرين الثاني. 1 كانون الثاني. في المقبرة التي يرقد فيها لم تضع زهوراً ولا ماءً عذباً على قبره. مع ذلك ظلّت تفكّر فيه باستمرار. تحدّثه عن نواياها وأعمالها وسهواتها كما لو أنها لم تستسلم بعد لفكرة أنه أصبح خارج حياتها. لم تترك له فسحة راحة منذ عودتها من غوادلوب. هو الذي عرفته منغلقاً على نفسه وغير مكترثٍ بشيءٍ لا يمسّ شخصه وموسيقاه، ها هو ذا الآن دائم اللحاق بها! يلومها على الطريقة السيئة التي تصرّفت بها مع كلير ألتا، والتي لم ترسل لها أي كلمة شكر في بطاقة بريدية حتى ولو مكتوبة بسرعة. على تصرّفها مع جود أنوزي. الحب صراع، وفي هذا الصراع لها اليد العليا. ما كان غير قادر على مسامحتها عليه هو أنها أدارت ظهرها لنينا دون أي اعتبار لسنّها ووحدتها. حين تحين ساعتها، ستستقبل الموت وحيدة، لا أحد بجوارها. بعد انقضاء عدة أيام أو حتى أسابيع، حين يأتي ساعي البريد حاملاً إليها حوالة المساعدة الاجتماعية، سيجدها متوفّاة. سيُخطر أهل «غراند آنس» الذين، مدفوعين بحسّ الواجب فقط، سيصعدون إلى «لامونتان» من

أجل تحضيرات الجنّاز الذي سيكون دون روم أو صلوات أو حساء دسم. في اليوم التالي سيسير الموكب باتجاه المقبرة البلدية. ستغيب الشمس من جهة «بوتيت تير»، وعلى مدّ النظر، ستتلطّخ السماء بالدم، وستنتظر النجوم الباهتة ساعتها قبل أن يوضع التابوت تحت الأرض دون أكاليل أو ورود.

«هنا ترقد أنتونين تيتان
التي لم يكن يحبها أحد»

أعلمها جود أنوزي الذي كان يراسلها أنه عاد إلى ديزيراد وزار نينا، لكن هذه الأخيرة استقبلته استقبالاً غير لائق، مؤكّدة أنها ليست بحاجة إلى شيء ولا إلى أحد. ما هذه الثرثرة؟! لم تصدّق ماري نويل إلا القسم الأول. هي تعرف في قرارة نفسها أن نظرتهما الأولى رسّخت عهداً بينهما. كانت نينا تأمل عودتها. تأمل عودتها في خضمّ رياح شهر أيلول القادمة من إفريقيا، والتي تتحوّل إلى أعاصير تقتلع الأشجار وتهدم البيوت. تأمل عودتها في عزّ حرّ شهر الصوم الكبير حين تشعّ الشمس بأقصى طاقاتها. نباح الكلب الكريوليّ يخدعها ليلاً أحياناً. تتخيّل أن زائراً قد وصل، فتركض لتفتح الباب وتجد نفسها وحيدة أمام ظلمة الليل. استسلمت الآن للأمر الواقع ولم تعد تنهض ليلاً. اعتصر قلب ماري نويل بسبب هذه الرؤى الميلودرامية. كلها جرائم كانت تتألم منها. كيف لها أن تتحرّر؟ كيف لها أن تفدي نفسها؟ كانت مفاجأة تنتظرها لدى عودتها إلى «روكسبيري». كان صوت الموسيقا الفوضوية يصل حتى مدخل البناء. في الطابق الرابع الأبواب مفتوحة والأضواء مشعّة. امتلأت الشقة بأناس كثر، منهم من لا تعرفه، يتكلّمون بصوت لغات مختلفة. آوا قرّرت هي أيضاً أن تحتفل بهذا

الإنجاز، ونظّمت حفلة على شرفها. عانقت ماري نويل البعض وصافحت البعض الآخر، وقبّلت وجنات لا تعرفها من قبل. في إحدى اللحظات، أسكتت آوا البَهِجة الموسيقيين، ورفعت نخب صديقتها الحاصلة للتوّ على الدكتوراه في الآداب. قالت إن إصرار ماري نويل وعزمها يدرجانها ضمن سلالة طويلة من نساء سوداوات، شجاعات وموهوبات، بدأت مع ولادة البشرية من إفريقيا حتى أميركا. سلالة الشجاعات هذه تميّزت بإنجاب والدة ماري نويل، رينالدا، قبل أن تتميّز بإنجازات ماري نويل نفسها. ولكي تبرهن على أقوالها، رفعت آوا نسخة من الأيام الغريبة. من أين حصلت عليها؟ دم واحد يجري في عروقهما. حيث هي الآن، لا يمكن لرينالدا سوى أن تكون فخورة بالبنت التي أنجبت. صفّق الجميع ووافقوا بصوتٍ عالٍ. قبلات وعناقات، من جديد. ولكن في هذه اللحظة تماماً، أدركت ماري نويل أن صداقتها مع آوا وصلت إلى نهايتها.

.2

انتقلت ماري نويل في الخريف للعيش في «نيو بيري»، وهو حيّ متواضع يقع على أطراف بوسطن، واحد من هذه الأحياء التي يسمّونها في الولايات المتحدة «أحياء اندماج»، لأن نسباً متساوية من بيض وسود وأميركيين لاتينيين، وأحياناً آسيويين أعلى بقليل من مستوى الفقر، تسكن فيه. حيّ ينعم بالأمان، إذ لا تسمع فيه صافرات سيّارات الشرطة في منتصف الليل، ولا ترى فيه جثثاً وبركاً مثيرة للشك على زوايا الطرقات، ولا متسكّعين مثيرين للريبة. حيّ محترم حيث لا تجد غسيلاً منشوراً يصفق على النوافذ، ولا أطفالاً يلعبون بالكرة خلف الأسلاك الشائكة في ملاعب رياضية مرتجلة، ولا باراتٍ تتقيّأ مواكب السكارى الصاخبة على مدار اليوم. هذا الرقيّ جعلها تتحسّر على البشاعة العدوانية لكلٍّ من «كامدن تاون» و«روكسبيري»، فقد كان مكان إقامتها الجديد عبارة عن صفوف من أبنية تمتد على طول أرصفة مزروعة بأشجار نحلت بسبب الشتاء. ما من حيوية في النهار وما من ضوضاء في الليل. النظر إلى واجهات المنازل التي لا توحي بالحياة يولّد الإحساس بأن هذه البيوت ليست مسكونة. السيّارات الوحيدة التي تعبر الطريق هي سيّارات سكّان الحيّ العائدين

إلى منازلهم. تخرج هيئة خفية منها، تغلق باب الكراج وتهمّ سريعاً إلى الداخل.

الشيء الجميل في «نيوبيري» هو نهر شارلز، الذي يركض العدّاؤون بألبستهم الرياضية الملوّنة على ضفافه المتعرّجة وأيديهم مشدودة إلى أجسادهم. حين يكون الطقس مناسباً، كانت أمهات يدفعن عربات أطفالهن يأتين للتنزّه. الطلاب يتواعدون هناك ويمكن أحياناً رؤية عجائز مُغْرَمين يتمشّون بخطا قصيرة. النهر نفسه يتلوّن بحسب الفصول: فهو متموّج رمادي دون انعكاسات في الخريف، صوفيّ أبيض في الشتاء، مخملي أخضر فاتح في الربيع، وغامق في الصيف.

حياة ماري نويل في الحيّ كانت على غرار الحيّ نفسه. تذهب إلى الجامعة أربعة أيام في الأسبوع، حيث تدرّس وتلتقي بالطلاب وتتناول الغداء مع أقرانها لتناقش الدروس والنصائح الواجب إسداؤها للطلاب. حين لا تكون في الجامعة، تبقى في منزلها لتعمل على تحويل أطروحتها إلى كتاب سهل الفهم. أحياناً كان طلابٌ قلقون يطرقون بابها حاملين وظائفهم تحت أذرعهم. عدا هؤلاء، لا يأتيها أيّ زوّار. دُعيت أنثيا للتدريس مرة أخرى في جامعة غانا الغالية على قلبها. كانت تمتدح حياتها الجديدة مع مولارا في كل واحدة من رسائلها. لقد تحوّلتا هما الاثنتين، إذ لم تعودا تخافان من العنصرية والسرقة والاغتصاب. إضافةً إلى «الغا» و«التوي»، فإنّ ابنتها تتكلّم الآن «الإيوي» و«الداغباني» و«الفون»(*). كما أنها تأخذ دروساً في الرقص التقليدي والصباغ بشهد العسل. معجزة المعجزات! وقعت أنثيا على نصٍّ رسائليّ. في القرن الثامن عشر، في ذروة

(*) أسماء لغات موجودة في غانا، التي تعدّ دولة متعددة اللغات، إذ يوجد فيها أكثر من ثمانين لغة. [م].

ازدهار تجارة العبيد، بيعت إيفوا زوجة ملك «أجوماكو» كعبدة لتعمل في منزل في البرازيل نتيجة لدسيسة حاكتها زوجات زوجها الأخريات اللائي كنّ يحسدنها على جمالها. اضطرّت هناك لأن تخضع لنزوات سيّدها الجنسية، ذلك البرتغالي الماجن. تعلّمت القراءة والكتابة بالخفاء عن جلّادها، وأرسلت لزوجها رسائل مفجعة تشكّل أول نصّ ثوريّ تحرري لامرأة إفريقية، كما تمثّل وثيقة نادرة حول المجتمع البرازيلي في ذلك الوقت. أملت أنثيا أن تشاركها ماري نويل سعادتها الغامرة التي تعيشها في غانا، وأن تأتي لقضاء عطلة الميلاد معها. ستأخذها إلى «كوماسي» التي تقع في قلب بلاد «أشانتي» الفخورة التي لم يستطع كوامي نكروما(*) نفسه جعلها تذعن له. تردّدت ماري نويل. القليل الذي تعرفه عن إفريقيا يثير ذعرها. كانت متأكّدة أن رؤيتها للجروح النازفة سيجعلها تشعر بالشفقة، وسيدفعها للبحث عن علاج، وهي لا ترغب بالاهتمام سوى بنفسها.

لم تعد ماري نويل ترى آوا التي استقرّت في حيّ «بيكون هيل» الراقي جداً. لقد وقعت في حب المحامي الذي وكّلته بمتابعة قضية الهجرة خاصتها. عزت آوا برودة العلاقة مع ماري نويل إلى الغيرة التي لطالما شعرت بها الأخيرة تجاهها. فكّرت ماري نويل في الأمر كثيراً. الحقيقة هي أنها فعلاً تحسد آوا. في صغرهما، حسدتها على علاقتها بوالديها، على حنان والدها وعلى قبلات نتاشا. حسدتها في ما بعد على إشراقها وقوّتها مع الرجال. لسنوات عدة، حاولت ماري نويل أن تسأل تيري بسذاجة عن علاقة حبهما دون أن تصل إلى جواب. هي تحسدها الآن على علاقتها برجل لم يكن مهمّشاً ومفلساً وبائساً، بل قوقازياً ناجحاً في الخامسة

(*) Kwame Nkrumah (1909-1972): أول رئيس لغانا بعد استقلالها. [م].

والثلاثين أنهى دراسته في جامعة جورج واشنطن. لم تقاوم آوا الرغبة في دعوة ماري نويل لعندها. في هذا الفضاء المتناغم حيث المدعوون كلّهم من النخبويين مرتاحي البال، شعرت ماري نويل أنها كئيبة وبشعة، بشعة من شدة كآبتها، تلبس ثوباً ينمّ عن فقرها. هذا الشعور دفعها للتساؤل ما إن كانت تستحقّ الصفات نفسها التي استخدمتها كلٌّ من كلير ألتا ونينا لوصف رينالدا: أنانية، ماكرة، لا تهتمّ إلا لنفسها. لم تكن تحب رينالدا، ولكن يبدو أن دمها الفاسد يجري في عروقها. في تلك الفترة أصبحت رسائل لودوفيك مختصرة ومتباعدة في الزمن. منذ سنوات وهذه الرسائل الطويلة (التي يختمها دوماً بهذه الكذبة البيضاء: «أمك، أخوك، أختك الصغيرة وأنا نرسل لك تحياتنا القلبية») تعبر المحيط بشكلٍ منتظم. هي رسائل تقليدية وخطابية تبعث على الشعور بأن لودوفيك يريد لها أن تكون دليلاً على طبيعة العلاقات بين أفراد عائلته، وعلى دوره كأب يمنع أي انحراف في العلاقات العائلية. ماري نويل تردّ عليها بصراحة قاسية تتناقض ونبرة رسائل لودوفيك. لقد كانت توفّر الفرصة لها بألّا تتعامى عن أي شيء. ما كانت لا تجرؤ على مواجهته، جرؤت على كتابته، ووَجَب على لودوفيك أن يجد النبرة المتفهّمة والحيادية والدمثة المناسبة. لم يشعر بالضيق مما روته له عن إقامتها في غوادلوب. أمام هذه الشكوك أو بالأحرى الاتهامات، ألم تكن رينالدا كما ادّعت نينا «كذّابة من الطراز الأول»؟ اكتفى بمراجعة الوقائع كما لو أنه يحاول حلّ لغز بوليسي. لم تحبل رينالدا من الروح القدس. كان بطنها كما يقال في الكريولية الجبل الذي تتكسّر عليه كل التخمينات. فلنسلّم بأن جيان كارلو ليس مسؤولاً عن هذا الحمل، وبأن فيوريلا ورينالدا لم تخترعا قصة الاغتصاب، هل كانت ترى رجلاً آخر في شارع «نوزييه» يمكن أن يوفّر دليلاً؟ ختم رسالته

بتشجيع ماري نويل على الاهتمام بشيخوخة جدّتها، لكلّ خطيئة رحمة. ساعة النسيان والسماح قد دقّت منذ زمن. هذه النصائح الآنية غير الفعّالة مثلها مثل مسكّن الآلام ألهت ماري نويل. أيسدي مثل هذه النصائح إلى رينالدا أيضاً؟

حين أمست رسائل لودوفيك قليلة، بدأت تصلها رسائل من غارفي، مكتوبة بخطٍّ قاسٍ يمزّق الورق الذي كُتبت عليه. كان تقليدياً هو الآخر كوالده. أرفق رسالته الأولى بصورة له يضع فيها ذراعه على كتف أخته الصغيرة، أنجيلا، التي تبتسم ابتسامة خفيفة لا تظهر فيها أسنانها. وجدته ماري نويل طويلاً بطول طلابها الذين يلعبون كرة السلة ونحيلاً. رأسه الذي يشبه البيضة حليقٌ لا ندوب عليه، عيناه متحفّظتان وضيّقتان. لو أنه من جيلها لكان بإمكانه أن يكون موسيقياً في فرقة «M.N.A» التي يعشق. اعتذر غارفي في رسالته الأولى عن عدم مراسلتها كل السنوات التي خلت. لكنه يحمل ذكرى أخته في قلبه دائماً. الدليل! لديه كل تسجيلات ستانلي واتس الذي لم يحظَ بالتقدير الذي يستحقّ، والذي هو بنظره واحدٌ من كبار الموسيقيّين. الصبر! سيأتي هذا التقدير يوماً كما حصل مع كلّ من استحقّه! اعترف غارفي بأن حياته لم تكن ناجحة. لم يحقّق أيّ نجاح يتباهى به. لقد طُرد من الإعداديات العامة ومن الثانويات الخاصة، سبّب الأذى للآخرين أكثر مما تعرّض له. لقد سرق كلّ ما وصلت يداه إليه في البقاليات والمتاجر الكبيرة. سرق عدداً لا بأس فيه من السيّارات، وأمضى الليل في العديد من أقسام الشرطة، وكاد أن يدخل السجن. لكنه لم يدخّن مخدّر الكراك الذي لا يرحم أحداً. تغيّر منذ فترة وعمل مع لودوفيك لحساب شركة شاحنات. كان يسكن مع أربعة أصدقاء، مغربيَّين وتركي

ورابع من بينان، في شقة في بولفار «تامبل»، جدّدوها بأنفسهم. حين يوفّر ما يكفي من النقود، سيضع حقيبة على ظهره ويترك باريس ليرى ما إن كانت الأرض كروية كما يقال. سيزور الولايات المتحدة وبعض بلدان أميركا اللاتينية وخصوصاً جزر الكاريبي، ذلك المكان الغريب الذي تلاقحت فيه كل الأعراق قبل أن تنتشر في كلّ أصقاع المعمورة. فلتطمئنّ ماري نويل، إذ إن ذلك لن يكون بحثاً دائماً عن الهوية. هو أوروبي تعود أصوله إلى الأنتيل، وليس لديه أيّ حنين إلى الزمن الماضي الذي تحوّل إلى أسطورة لدى البعض، ولا يرغب في استعادة مسقط رأسه الجميل. لقد دُفنت مشيمته تحت إحدى أشجار الدلب في «سافيني سور أورج». نطاق نشاطه: نهاراً، شوارع المدينة وفوضاها ووسخها وإيقاعها؛ ليلاً، أضواؤها التي تتحدّى عتم الليل، عنفها وأخطارها. من الزمن الذي كان يسرق فيه مع عصابته، ما زال يذكر طعم الممنوع ولذة الخوف. لم يبدأ التكلّم عن رينالدا إلا في رسالته الخامسة أو السادسة. وعن رينالدا كان لديه الكثير ليتكلّم عنه.

ليس للصبي الذي لا تحبه والدته من مكان على الأرض يستطيع أن يتظلل فيه. الشمس ستحرقه وتشوي دماغه وتجفّف قلبه. فمه عطش، عيناه معميتان، ليس له أصدقاء ولا يجري خلف الفتيات. لا يلعب إلا وحده. هاجسه لا يدعه يستريح على الإطلاق.

لودوفيك كرّس نفسه لابنه. كان أباً مثالياً ومفسداً على حدٍّ سواء. هو من يحضّر الطعام، ويوقّع على دفتر المراسلات المدرسية، ويحضر اجتماعات أهالي التلاميذ، ويذهب لمشاهدة بينوكيو معه، ويعلّمه طريقة السباحة الحرّة، ويضع أقراص «بيير والذئب» في المسجّلة. لكن كلّ هذا

التفاني لم يحقّق الهدف المراد منه، لأنه كان يظهر غياب الطرف الآخر. في المرّات النادرة التي اصطحبته رينالدا فيها إلى المدرسة، تركته في الباحة كما لو أنها تودّ التخلص منه. في المساء، بعد أن يكون لودوفيك قد حمّمه ووضعه في السرير، تأتي إلى جواره لتقرأ له، ولكن بهمّة فاترة وسحنة مرتبكة إلى الدرجة التي يأخذ معها بالبكاء على حال ليلى التي التهمها الذئب وحاله على حدٍّ سواء. لم تكن تهتمّ به ولم تهتمّ لأيّ شيء يخصّه. لقد أدرك ذلك مبكراً.

حتى عامه الخامس عشر حين بدأ يرفض حضور الاجتماعات، أجبره لودوفيك أسبوعاً بعد أسبوع على الذهاب إلى «مونتو». كان البعض لا يتردّد في تسمية «مونتو» بالطائفة، لأنهم أثناء القداديس يعيدون تفسير الأناجيل ويتناولون الميجان المقدّس، وهو عبارة عن طبق محضّر من خضار مختلفة وفاصولياء يُطبخ دون ملح. في الحقيقة، لم يكن للاعتبارات الدينية أي مكانة في عقيدتهم. أسّس «مونتو» التي تستمد تعاليمها من مصادر مختلفة رجلٌ من الأنتيل يعمل في مصلحة الضرائب في أبيدجان في ساحل العاج، انتهى الأمر به أن أصبح نبيّاً في بروكسل. في أحد الصباحات فيما يمشي بمحاذاة بحيرة «إيبريه» الشاطئية، أتته رؤيا ظهر من خلالها بين الأعشاب وقِطع لحاء الشجر الطافية على السطح إلهٌ زنجيّ. أتاه وحي حول الطريقة التي يستطيع من خلالها الزنوج التكفير عن معاصيهم. تخلّى عن اسمه يوليوس بوليدور، وارتدى ثوباً أبيض وأطلق شعره ولحيته. ظنّ رؤساؤه في الوزارة أنه قد جنّ، وطردوه من عمله. لذلك عاد إلى أوروبا وأخذ يفضح، دون تطرّف فقد كان مستنيراً وليس عنيفاً، مساوئ قيم العِرق الأبيض. العمل مقدّس في عقيدة «مونتو» وخصوصاً العمل اليدوي.

يعلّمون أيضاً احترام الذات ومسامحة الإهانات، ومعنى كلمة تعاضد وحبّ الإخوة، أي كل أولئك الذين ينتمون إلى العِرق الأسود. لودوفيك كان أحد أعمدة مونتو. كان قد أعجب بشدة بالمعلّم، الاسم الذي اتخذه يوليوس بوليدور حين كان موسيقياً في بروكسل، وساهم في زرع عقيدته في بيئة ضواحي باريس الخصبة. متسلّحاً بهذه التعاليم البسيطة، التي يمكن القول عنها إنها تبسيطية، أنجز عملاً رائعاً بصفته مربّياً، فقد انخفض معدل الجنح التي يرتكبها الشبّان بشكل ملحوظ. على المقلب الآخر كان يكفي ملاحظة تكلّف رينالدا أثناء القداديس حتى يفهم أنها لا تكترث البتّة لما يدور حولها. لا تدبّ الحياة فيها مجدداً إلا قبل المناولة، حين تنشد الجوقة. هي التي لم تكن تدندن حتى تهويدة لطفلها، تقف كشخصية مشهورة في وسط المؤمنين وترتّل الأناشيد. لديها صوت ميزو سوبرانو رائع، قوّته وسعته مدهشة مع أنه يصدر من صدر لم يكتمل نموه. المتعة التي تعتريها حين تغنّي تغيّرها كلّياً، تنزع عنها قناع الملل والخمول وتستعيض عنه بالجمال تقريباً. رغماً عنه وعن الحقد الذي يعتمل في قلبه تجاهها، يبكي غارفي في كلّ مرّة ينصت إليها فيها، كان يظن أن السماء قد انفتحت وبدأت مواكب الملائكة بالنزول إلى الأرض. في أحد الأيام التي تفوّقت فيها على نفسها، واحتفت بها الرعية التي لا تحبها وتنتقدها دائماً، باحت بما يعذّبها في داخلها بعد عودتها للمنزل. قالت إن حسرتها الأكبر هي أنها لم تعمل في مجال الموسيقا. مع التدريب والدروس وخبرة معلّم كان يمكن لها أن تكون نداً لكبار مغنّيات الأوبرا: ماريان أندرسون التي يمدحها أرتورو توسكانيني، جيسي نورمان، لوكوثين برايس. في الماضي، قدّر شخص مواهبها الاستثنائية، واقترح عليها الذهاب إلى المتروبول لدراسة الموسيقا في معهد. حين تذكّرت لون بشرتها سألت بقلق ما إن

كان وجود امرأة سوداء تغني في الأوبرا أسوأ من وجود مغنية صلعاء. هزَّ هذا الشخص كتفيه وأكّد لها أن أبناء الله جميعهم متساوون. صدّقته. لكنها لم تكن سوى كلمات، كلمات لا وزن لها، كلمات فارغة الهدف منها استغلالها. اكفهرّ وجهها من هذه الذكرى المؤلمة، وسالت دموع لمّاعة على خدّيها بغزارة. تلك هي المرة الوحيدة التي رآها فيها تُظهر مشاعرها، وكان ذلك نابعاً من رغبة في العظمة ومن شفقة أنانية على نفسها.

طرحت ماري نويل في جوابها أسئلة كثيرة على أخيها، أملاً في الحصول على رأس خيط. هل نطقت رينالدا باسم الشخص الذي شجّعها على الغناء ومن ثم خيّب أملها؟ أهو المطران الذي لعب دوراً في حياتها في السابق؟ أهو جيان كارلو كوبيني؟ أو شخصٌ آخر بعيدٌ عن الشبهات؟ للأسف لم يكن أحد يذكر سوى مشكلاته الخاصة. لم يعد غارفي يذكر.

حينما كان صغيراً لم يتكلّم عن وجعه إلى لودوفيك، الذي رأى طبيعة العلاقة بين الأم وابنها: الصمت والمسافة التي تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم. تمضي أيام دون أن يتبادلا الكلام ولا تلتقي نظراتهما فيها. كان لودوفيك يفضّل التعامي عن الأمر والاختباء خلف حاجز التبريرات الجاهزة: «لقد تعذّبت أمّك كثيراً في حياتها. لقد سرقوا طفولتها. عليك أن تتفهّمها!». كلّ هذا الكلام كان تكهّنياً، ولا سيما أن غارفي لم يكترث على الإطلاق لماضي والدته. لا يهتمّ بشيء في الحياة التي تسبق «سافيني سور أورج». لم يتساءل قطّ عمّن يكون والد أخته الذي بالتأكيد ليس والده. لا شيء استثنائياً في هذا الأمر. جارتهم، السيّدة أسدروبال، لديها ستّة أطفال من ثلاثة رجال مختلفين. كل ما يعلمه هو أن أصوله تعود إلى غوادلوب، وأمّه أيضاً. ليس هنالك أيّ صورة تتعلّق بغوادلوب معلّقة على الجدار.

ولا أيّ صورة دقيقة. بعض رفاقه يذهبون إلى هناك خلال العطل الصيفية، ويشتكون لدى عودتهم من الأطعمة العديدة التي أكلوها. لم يكن غارفي يتساءل ما إن كان لديه عائلة أو جدّة أو عمّات أو أعمام حنانهم سيجلب الدفء إلى حياته.

في رسائله الأخيرة لمّح غارفي إلى حصول نفور كبير في العلاقة بين لودوفيك وريناالدا. لم تعد تجد لودوفيك مناسباً كفاية لها. يمكن القول إنه يسبب الخجل لها. الخجل من هيئته ومن جدائله ومن أعماله البسيطة. شهدت هي تحوّلاً كبيراً. أصبحت تعتني بشعرها وبطلاء أظافرها. أصبحت أنيقة تقريباً، وبدت كأنّ آلام الماضي لم يعد لها من سطوة عليها. لم تكن تلازم المنزل إلا لمقابلة الصحفيين. عدا ذلك، جلّ وقتها مشغولٌ بحفلات الكوكتيل وحلقات البحث والمؤتمرات واللقاءات، والندوات المكرّسة لمواضيع الهجرة على محطات الراديو المتنوّعة. بالمختصر، هذا الثنائي على وشك الافتراق. امتنعت ماري نويل عن طرح أسئلة مباشرة، واستقبلت هذه الأخبار بفرحة عارمة. لكنها لم تكن فخورة بأنها تغار من أمها وتحسدها على كل ما تملك.

قبل حلول أعياد الميلاد بقليل، أخذت ماري نويل قراراً أزعج أنثيا. قرّرت ألّا تلتحق بها في غانا حيث من المخطط أن تزور حصون «تاكورادي»، و«ديكيكوف»، و«المينا»، و«كاب كوست» التي شهدت اللقاء بين الأوروبيين والإفريقيين، والمليئة بذكريات العبودية. اختارت أن تذهب إلى باريس.

.3

لم تجد ماري نويل، لدى نزولها من الطائرة، السماءَ الملبّدة بالغيوم جميلةً، ولا الضباب الذي يشوّش الرؤية مريحاً. لقد اعتادت على ألوان أكثر تبايناً، أكثر صرامةً. هناك في الأعلى، فوق طبقة الشتاء المتكسّرة، يوجد صفار الشمس الخادع، والانفراجات التي تفتح على سماء زرقاء معدنية، وتناغمات الصيف الهندي. هذه الرمادية المحيطة جعلت قلبها يدمع. كان غارفي ينتظرها بصحبة صديقه الصدوق، سوغولو، الذي تعود أصوله إلى بينين. خيبة الأمل التي أصابتها وهي تعانق هذين الاثنين جعلتها تدرك كم كانت تأمل أن يكون شخصٌ آخر في استقبالها.

لم يعد لهذه السفرة من سبب وجيه. لماذا أتت إلى باريس حيث لم تكن تعرف أحداً ولم تزر منذ سنوات؟ هنالك بالتأكيد هذا الدليل القديم الذي تودّ تتّبعه. لديها قناعة راسخة بأنها أتت تبحث عن شيء طالما رغبت به، شيء يتملّص منها. أصبح لها الآن الجرأة الكافية أن ترغب في امتلاكه. ربما لم تمرّ في هذا المطار الحديث جداً، المليء بالممرّات والأنابيب والزجاج المحدّب، لكنه مع ذلك بدا لها مألوفاً. أعادها إلى سنوات خلت، عشرين عاماً أو أكثر. في ذكرياتها المتخيّلة التقت بالفتاة الصغيرة

التي تشدّ لعبة من قماش إلى صدرها، وتبحث دون جدوى عن ابتسامة في وجوه المارّة. أنّى التفتت، كانت تجد هذه الطفلة الصغيرة من خلال الطفلة الصغيرة نصف النائمة بالقرب من عربة الحقائب، أو هذه التي تحلم وهي تمصّ إصبعها، أو تلك الهندية الصغيرة، أو تلك الصينية الصغيرة، أو تلك الأميركية صاحبة الشعر الأشقر. ما كان يهمّ هو الكرب. زادت هذه الذكريات من حزنها، وصبغت اللقاء مع أخيها بالفتور على الرغم من أنه فعل كل ما باستطاعته. استعار سيّارة قادها سوغولو ببطء على الطرقات الكئيبة المحيطة بباريس. تركوا المطار وساروا بمحاذاة مستودعات تجارية حزينة تشبه تلك الموجودة في ضواحي بوسطن، وفنادق، وهنغارات، ومستودعات تجارية من جديد. فجأة بدأ المطر يتساقط على الأسفلت، وامتزج لون السماء الرمادي بلون المطر والهواء الرماديين.

أيتشابه العالم كلّه في البشاعة؟

لحسن الحظ لم يتغيّر وسط باريس. رغم الإضافات التي تحصل عليه، مثل مطعم للوجبات السريعة أو متجر أسطوانات أو هرم من الزجاج ومتاجر جنسية ومحلّات بيتزا، إلا أنهم لم ينجحوا في نزع الأناقة عنه. ما زال نهر السين يجري تحت جسر «ميرابو». العمارة الحميمة ما زالت هنا، تشبه وجه إنسانة لم يؤثّر السن ولا المرض على جمالها. اكتشفت ماري نويل من جديد جمال دانتيل الحجارة وأناقة واجهات الصروح التي تعود لمئات السنين. لكنها لحظت أن ذلك لم يكن يثير فيها أيّ أحاسيس خاصة. باريس بالنسبة لها مشهدٌ فخم ولكنه فارغ، ديكورٌ لم تحدث فيه أيٌّ من مآسيها. لم تحب ولم تبكِ ولم تدفن أحداً فيها. لم يدم هذا الجمال طويلاً على كلّ حال، فقد تركوا سريعاً هذه الأحياء الراقية إلى

حيث يسكن غارفي بالقرب من ساحة الجمهورية. بعد أن ركنوا السيارة في شارع مكتظّ ووسخ، حيث برك المياه أكبر ومثيرة للريبة كبرك الدم. بدا الناس في المتاجر كئيبين ومشغولين. هنالك الكثير من وجوه نسائية سوداء أو شاحبة موشومة بالأزرق، وجوه نساء مغاربيات يلتفّ حول كلّ واحدة منها عنقود أطفال. ضخامة البناء الذي يسكن فيه غارفي خدّاعة. بعد عبور الباب المؤدّي إلى الكراج الداخلي، يمكن ملاحظة درجة فقره. ضوء الدرج معطّل. ليس هناك مصعد، ودرجات السلالم الحجرية التي كانت مغطّاة بقطع من سجاد في بعض مواضعها متصدّعة. علّق غارفي ضاحكاً بالقول إنّ العديد من الطبقات الاجتماعية تتصارع في هذا البناء. من جهة، هناك فرقة الملّاك الفرنسيين، زوجان موظّفان متقاعدان عاصرا الحرب العالمية الثانية يبقيان متمترسين خلف أقفال باب منزلهما. من جهة ثانية، فرقة المستأمنين -البعض يدفع الإيجار ولكن أغلبيتهم من المستقطنين- من عمّال مياومين أو عاطلين عن العمل كلياً، أو لصوص صغار يمثّلون كل احتمالات التمازج العرقي على الأرض. كان مالكا البناء يخلطان بين المستأجرين والمستقطنين ويعاملانهم بالاحتقار نفسه والخوف، ولم يكونا يبادرانهم بالتحية قطّ. كما أنهما لا يتسامحان نهائياً مع أيّ ضوضاء تصدر بعد الساعة العاشرة، وفي حال حصولها فإنّ هوايتهما المفضّلة هي الاتصال بالشرطة. من كثرة الاتصالات لم تعد الشرطة تتجاوب، الأمر الذي دفعهما للتفكير في الشكوى إلى النائب عن دائرتهما في البرلمان. يسكن غارفي وأصدقاؤه في الطابق الأول. تطل نوافذ شقّتهم على منور ضيّق لا يصله النور، فيضطرون لإشعال الأضواء في أرجاء الشقة منذ الظهيرة. عدا تلفاز عملاق يعرض شخصيات والت ديزني دون صوت، كانت غرفة المعيشة خالية عملياً. يتألّف الأثاث من سجادة وبوفة وبضع

مخدّات. لم تنزعج ماري نويل من فقر الحال هذا، بل شعرت بأن غارفي قريب إليها. لن تستطيع أن تتشارك معه أيَّ شيء لو كان على العكس منها ناجحاً في حياته.

ربما لهذا السبب شعرت بأنها غريبة عن كلير ألتا وكل أهل غوادلوب. النجاح بالنسبة لهم كالدين. على الحياة أن تنحو إلى الأمام، ولو بالمظاهر فقط، أن تكون حياة نجاح منذ خروجهم من بطن سفينة تجارة العبيد الراسية في الأيكة الساحلية حتى وصولهم إلى نور «لا تيت دو مورن» الساطع. ربما كان جود أنوزي يشذّ عن هذه القاعدة، بثيابه غير المكويّة وسيّارته اليابانية القديمة وخطاباته حول البيئة. فكّرت ماري نويل بطيبة أنها خطابات لا فائدة منها، فالأشجار تهزل، وعمارات السكن الاجتماعي الأكثر بؤساً من بيوت الزنوج في الماضي تتكاثر، والجفاف يضرب المياه الجوفية والوديان. الآن وقد أصبحت بعيدة عنه، أخذت ماري نويل تفكّر فيه كصديق عاملته بخشونة، ولم تبذل الجهد الكافي لتتعرّف عليه بعمق. كيف لها أن تصلح خطأها؟ كان يستحقّ طريقة أفضل في التعامل. فقد كتب لها الرسالة تلو الأخرى دون أن ينتظر ردّاً منها، وأرسل لها أخباراً عن حال البلد والشرطة والكهنة وعن مجموعة من الناس لم تكن تعرفهم. اهتمّ بأن تصلها أخبار نينا على وجه الخصوص. انتهى الأمر به وتجاوز تحفّظه، وبات من وقت إلى آخر يذهب بالقارب إلى ديزيراد ليثرثر معها فقط. لم يعد الكلب الكريولي ينبح. تفتح نينا الباب بلامبالاة، دون أن تظهر سروراً أو امتعاضاً من وجوده. يقدّم لها خدمات صغيرة. حين كان هنالك خشية من الدمار الذي يمكن أن يجلبه الإعصار «فيرغوسون» الذي، لله الحمد، غيّر اتجاهه نحو قلب المحيط، صعد جود إلى أعلى منزلها كي يثبّت صفائح توتياء السقف. في كل واحدة من زياراته بذل جهداً في

بناء العلاقات التي كان من الواجب على ماري نويل بناءها. حدّثها عن ماري نويل. متى ستعود؟ عليها أن تعود وتؤدي الواجبات التي أهملتها امرأة أخرى. هل ستترك جدتها تذهب في رحلتها الأخيرة دون قبلة وداع أخيرة؟ لم تكن ماري نويل تعرف كيف تردّ على هذا التأنيب الذي يتكرر في كل رسالة كلازمة. لم يعد لديها أيّ شيء تفعله في غوادلوب. كم هو سعيد حظّ غارفي، فهو يعلم تماماً أين دُفنت مشيمته! لا بدّ أن متعهّدي البناء أخرجوا مشيمتها من الأرض ورموها بعيداً، وبنوا محلّها مجمّع أبنية بيتونية.

قرابة الساعة الواحدة حضر بعض الأصدقاء، وقدّم سوغولو طبقاً خُضّر على شرف الواصلة الجديدة. تبادلوا شتى أصناف السجائر وشربوا زجاجات نبيذ وبيرة سيئة النوعية. لم يكن ينقص سوى الموسيقا الحيّة واللكنات الأجنبية حتى تظن ماري نويل نفسها في «كامدن تاون». هذا الرجوع في الزمن لم يكن ممتعاً بتاتاً، فذاكرتها لم تحوّل بعد هذه السنوات إلى ذكريات سعيدة. كانت وحيدة هناك كما هي حالها اليوم، ولا أحد يعيرها أيّ انتباه في محيطها. لم يعد غارفي الذي ثمل قليلاً يوجّه لها الكلام، كما لو أنهما حكيا كل شيء خلال الأشهر الثمانية التي تراسلا فيها، ولم يعد هنالك ما يقولانه. لقد تحقّقا أن طفولتهما لم تفسد كل شيء في حياتيهما، لم تجفّف قلبيهما اللذين ما زالا يستطيعان إظهار بعض العاطفة. في نهاية فترة ما بعد الظهر، اختلت ماري نويل بنفسها في الغرفة المخصصة لها، الباردة مثل كلّ غرف الشقة، والفارغة إلا من وردتين مثيرتين للشفقة وُضعتا في مزهرية رخيصة احتفاءً بالضيفة الجديدة. أغلقت عينيها وغفت، وجهها ملتفت نحو المستطيل الرمادي المتسخ الذي ترسمه النافذة.

نامت مطوّلاً. حين عادت إلى غرفة المعيشة كان الليل قد حلّ، ورحل جميع المدعوين. غارفي وسوغولو ثملان قليلاً ويجلسان على المخدّات. تجرّأت هذه المرة أن تطرح على غارفي السؤال الذي ما برح يؤرّقها.

أين لودوفيك؟

أخفض غارفي صوته كما لو أنّ موضوع هذا السؤال يثير هلعه.

لقد ذهب لودوفيك إلى بروكسل مؤخّراً مصطحباً أنجيلا معه. قضيا الليل الذي سبق سفرهما عنده. لم يكن غارفي يعلم موجب هذه السفرة، وبالطبع يتوق لطرح الأسئلة، ولكنه أمسك نفسه ولم يتلفّظ حتى باسم رينالدا. تُركت أنجيلا بعد العشاء برعاية سوغولو أمام التلفاز، وخرج الأب والابن إلى ساحة الجمهورية. كانت تمطر في ذلك المساء والسيّارات الشاحبة كسيّارات الموتى تدفع بماء المطر رشّاً إلى الأرصفة. في هذه العتمة والرطوبة هنالك لافتات واضحة وحيدة. صلبان الصيدليات الخضراء التي تلمع كالأحجار الكريمة. على الرغم من الطقس والساعة المتأخرة، هنالك أرجوحة دوّارة وأطفال متطلّبون مع أهاليهم. الشوارع تعجّ بالمارّة. هذا ما يعشقه غارفي في المدن الكبيرة: الهيجان الذي لا ينتهي والذي يشبه مجتمع النمل. لا تتوقّف الأرض عن الدوران في المدن ليلاً ولا نهاراً. بشكلٍ أو بآخر لا يمكن للمرء أن يشعر بالضياع فيها، فهنالك دائماً شخص وحيد يمكنك أن تروي له بؤسك. دخل غارفي ولودوفيك مقهى لا يوحي اسمه بالأصالة: «في الجمهورية». كان الجوّ السائد فيه جوّ نهاية المساء حين يجتمع في استراحة أخيرة كل الوحيدين والمصابين بالأرق والأشخاص الذين لا يعلمون أين يمكنهم الذهاب. غارفي يشفق على والده الذي لم يُشِحْ بنظره عن كأسه، وجهه ذو الخمسين عاماً عابس

ومصدوم. بقيا معاً في الدفء دون أن يتكلّما، يشربان كأس بيرة تلو الآخر. انضمّ إليهما رجل وراح يحكي لهم قصة حياته. كانت قصة شادهة، نصفها متخيّل، موضوعها بربرية النساء. في صباح اليوم التالي، لمّا استيقظ غارفي كان لودوفيك وأنجيلا قد رحلا تاركين على التلفاز مغلّفاً لماري نويل.

لم يكن الاستيقاظ في اليوم التالي بهيجاً. ما زالت تمطر والرمادية نفسها ما زالت تلفّ المكان. طوال الليل الماضي، أعادت ماري نويل اكتشاف لذة البكاء السقيمة التي نسيتها منذ الطفولة. بكت مع علمها بأن لا أحد سيأتي لمواساتها، بأن عليها أن تنتظر انبلاج النهار وأن تستيقظ وكأنّ شيئاً لم يكن، أن تتحضّر وتذهب إلى المدرسة لتواجه التلاميذ الآخرين والآنسات، أن تواجه الحياة بالمختصر. كانت الشقة فارغة. أطباق الفطور موضوعة كيفما اتفق على الطاولة. فضّلت ماري نويل النزول إلى الشارع المبلّل. كان المارة يحثّون الخطا، فأخذت تمشي مسرعة على غرارهم مع أنها ليست في عجلة من أمرها البتّةَ. القرار الذي أخذته يثير فزعها مثل عملية جراحية يجب الخضوع لها، لأنها تصبّ في مصلحة المريض في نهاية الأمر. لقد حاولت سلوك كل الطرق الأخرى التي انسدّت أمامها، ولم يبقَ سوى هذه الأخيرة مفتوحة أمامها. منذ فترة وهي تسأل نفسها: هل بإمكانها أن تعيش حياتها كما في السابق، دون هويّة، مثل شخص سُرقت منه أوراقه الثبوتية وبات يهيم على وجهه في أصقاع الأرض؟ كم هو قذر هذا الهوس في أن تعرف مهما كان الثمن من أين أنت وإلى من تعود نقطة السائل المنوي التي منحتك الحياة!

الشارع الذي سلكته يزخر بمحلّات تبيع مختلف أنواع الحلي البرّاقة الرخيصة: حلق كبير الحجم، وقلادات ثقيلة، ودبابيس مزيّنة بترترات

وبشذرات زجاج من مختلف الألوان. توقّفت أمام إحدى الواجهات لتعاين في الزجاج انعكاس صورتها العابسة قليلاً، ثم تابعت طريقها. وصلت بعد هنيهة إلى ساحة أنيقة وبسيطة، واجهات مبانيها الوردية والرمادية تشبه صور البطاقات البريدية. كي تمضي الوقت دخلت مقهى فارغاً. ردّت السيدة دوبارك على رسالتها سريعاً وقبلت أن تلتقي بها. لكنّها حذّرتها بأنه ليس لديها أيّ معلومات مهمة تطلعها عليها، وعلى العموم ليس لديها أيّ ذكرى سيئة من خادمتها الصغيرة التي عملت عندها في الستينيات. عاهدت ماري نويل نفسها أنه بعد هذه الزيارة ستتخلّى عن هذا البحث الذي جعلها تذهب إلى أماكن لا تناسبها كثيراً. السنة الماضية غوادلوب والآن باريس. من ناحية أخرى، كل هذا البحث أصبح عقيماً. عديم جدوى؟ لن تكون متأكّدة تماماً ما دامت لم تجد لودوفيك. لن تتوقّف عن سؤال نفسها لِمَ ذهب إلى بلجيكا ولم ينتظر حتى قدومها. هذا يشبه الهروب إلى حدٍّ كبير. باتت لديها الشجاعة الآن للاعتراف أنها جاءت إلى باريس من أجله. لمَ لزمها كل هذا الوقت كي تعي هذه الحقيقة؟ في الواقع، حياتها كلها عبارة عن رحلة بحث عن لودوفيك من خلال رجال آخرين، ويجري استغلالها في كلّ مرّة. عند الساعة الثانية تماماً، نهضت وعبرت الساحة وركبت سيارة أجرة. تعود أصول السائق إلى غوادلوب مثلها، ولكن زيارته الأولى لها حصلت منذ ثلاث سنوات فقط، بعد أن حلم بها طوال فترة مراهقته. القول إنها خيّبت آماله يجانب الصواب. هنالك شعور آخر. جمال البلد الفائق أرهبه كما لو أنه يتمشّى في مشهد غريب عنه كلياً. عالمه كان الضواحي وملاعب كرة القدم. لم يشعر قطّ بالراحة، لم يكن في مكانه. يعلم أنهم يتهكّمون عليه من خلف ظهره. كان يبالغ في ثيابه، ولم يكن شعره قصيراً بما يكفي. يلبس ثياباً

إفريقية كي يُظهر هوية لم يكن هو نفسه يعرف ما هي بالضبط. لم تعد الحياة لجسده إلا بعد عودته إلى باريس مع أنه لا يعتبر نفسه فرنسياً.

لم تنصت ماري نويل لهذا الكلام المكرّر المملّ. هنالك كثير من الناس على كوكب الأرض ممن يشعرون بالضيق نفسه. هنالك منهم ما يكفي لأن يشكّل عرقاً بشرياً جديداً، وما يكفي لإعمار عالم ثانٍ.

أخذت تنظر إلى جمال وسط باريس مبهورة رغماً عنها. المطر ينزل متردّداً ونهر السين المثقل بالمياه لونه بنفسجي. الغيوم البنفسجية اللون أيضاً تطارد بعضها فوق الجسور. بدأ ضوء النهار يخبو وشرعت علامات حلول الليل بالظهور.

توقّفت سيارة الأجرة أمام 305 بولفار «مالزيرب». تفحّصت ماري نويل الواجهة الحجرية العالية. هنا سكنت رينالدا لمّا كانت في الخامسة عشرة. ربما هذا البناء يعرف أسرارها. يا ليته يستطيع الكلام!



.4

خيال! محض خيال!

لم تتخيّل ماري نويل الشقة التي عملت فيها على هذا الشكل. تخيّلتها أكثر ثراءً مع فرش فاخر ألوانه هادئة كالبيج والرمادي والبني الفاتح، شقة تشبه شقق الأحلام المصوّرة على ورق مصقول في الكاتالوغات أو مجلّة منزل وحديقة. في الواقع كانت شقة عادية، خانقة ومعتمة نوعاً ما، ستائرها صوفية ثقيلة وجدرانها تحفل بصور الأجداد أو بنسخ عن لوحات مشهورة. سمكات لوحة ماتيس الكئيبات يسبحن دائرياً في حوض معلّق فوق البيانو. السيّدة دوبارك أيضاً، قد تخيّلتها مختلفة، أنيقة وأثيرية قليلاً، لكنها جلست أمام سيّدة تقليدية، أنيقة ولكن من دون فانتازيا، شعرها الرمادي مصفّف بعناية على شكل كعكة خلف رأسها. أصبحت أرملة بعد أن رحل جان رينيه باكراً وتركها وحيدة على هذه الأرض. لكن أطفالها يحيطونها بكلّ التفاني الذي تحتاجه. خادمةٌ صغيرة تلبس ثياباً تشبه ثياب الخادمات في المسرحيات الكوميدية، صورة مصغّرة عما كانت عليه رينالدا قبل ثلاثين عاماً، تدور في الغرفة دون جلبة، وتصبّ الشاي وتقدّم الميل فوي والإكلير بالقهوة. بدأ الحديث باستجواب من قبل السيّدة دوبارك، حاولت ماري

نويل أن تجيب عن أسئلته قدر ما استطاعت، على الرغم من شعورها أن كلّ ما تقوله يمكن له أن يُستخدم ضدها. في الحقيقة هي لم تختر العيش في الولايات المتحدة، رمتها الحياة هناك. هذا كل شيء. لا، ليس لديها زوج ولا أطفال. لا، هي لا تفكّر في العودة إلى فرنسا أو غوادلوب. نعم، لقد أمضت وقتاً سعيداً هناك. نزعت السيّدة دوبارك الابتسامة العرضية عن شفاهها، وانحنت بجذعها نحو ألبومات الصور الموضوعة مسبقاً على الطاولة تحضيراً للزيارة. ولكن هذه الصور الفورية المصفرّة والتي لا حِرفية فيها لم تكن لتضيف أيّ معلومة جديدة لماري نويل. كانت تعرف هذه النحيلة الكئيبة رثة الملابس التي لا تحاول حتى الابتسام وهي تحمل بيديها أطفالاً أقوى منها، أو حين تأخذ قطعة من كعكة عيد ميلاد، أو عندما تقف جامدة خلف عربة الأطفال. ماذا يدور في رأسها؟ يكفي النظر إليها لمعرفة أنها لم تكن سعيدة بالحياة عند عائلة دوبارك، وأنها تدّعي حب الأطفال الثلاثة الذين تربّيهم: نتالي، وفيليب، والأخير المحبوب جدّاً شارل إيمانويل، الذي يلقّبه الجميع بشامانو. طموحاتها كانت في مكان آخر. شرعت السيّدة دوبارك تتكلّم بنبرة موضوعية كما لو أنها تستجمع العناصر التي تودّ كتابتها في رسالة توصية. كانت رينالدا نظيفة ومتقنة لعملها، عملية وكتومة. كانوا ينسون وجودها في المنزل لأنها لا تبرح مكانها إلا قليلاً. عاد التأثّر تدريجياً إلى صوتها وباحت بما في داخلها. بعد كل هذه السنوات، لم يكن قلبها قد سامح رينالدا على معاملتها كمديرة لها في الوقت الذي هدفت فيه من استقبالها أن تكون فاعلة خير. بعد أن تركت بولفار «مالزيرب» لم يعد يصلهم أي أخبار عنها، لا رسالة ولا بطاقة بريدية. لقد تركت الكثير من الأغراض في غرفتها، صور من غوادلوب وجهاز راديو وروايات جيب لإيميل زولا لم تعد قطّ لاستعادتها. ما

اقترفت عائلة دوبارك من ذنب لتستحقّ هذا الجحود في النهاية؟ السيّدة دوبارك ليست شخصاً يرضى ضميره بفعل القليل. كان بإمكانها أن تتكرّم عليها بثيابها القديمة الباهتة التي تودّ التخلص منها، لكنها أخذتها، منذ اليوم التالي لوصولها، إلى المتاجر الكبرى القريبة من هنا، وألبستها ثياباً جديدة من رأسها حتى أخمص قدميها. كما تركت لها كل يوم الوقت الكافي لتحضّر دروسها وتكتب وظائفها، وصارت تحمّم الأطفال بنفسها مساءً. في حقيقة الأمر، هي لم تستقبلها في بيتها لتعاملها كخادمة، ولكن كقريبة بحاجة إلى المساعدة. لم تؤدّبها ولم تلمها على شيء قطّ، فهي وجان رينيه يضعان تعاليم السيّد المسيح حيّز التطبيق: من كان منكم بلا خطيئة... القصة الحزينة التي جرت في غوادلوب والتي لم يكونا يعلمان منها شيئاً لا تخصّهم. ما يهمّ هو هذه البريئة التي لم تطلب من أحد أن تأتي إلى هذا العالم، والتي بقيت هناك في رعاية شخص غريب! فلنتكلّم عن هذه الطفلة! (هنا أصبحت السيّدة دوبارك أكثر خبثاً) لم تكن رينالدا تكترث لأمرها البتّة. ليس لزيّها ولا صورة لها بين أغراضها. لم نرها تشتري لها ألعاباً أو تذكارات بمناسبة الميلاد ورأس السنة أو عيد ميلادها. في كل مرة حاولا التطرّق للموضوع برفق معها، ليس من دافع الفضول بل التعاطف، اصطدما بجدار. ألم يكونا والدين لأطفال أيضاً هي وجان رينيه؟ أليسا والدين مسيحيين؟ بالتأكيد فضّلا اللجوء إلى الحُلم معها، فالأمر معذور ومن الصعب لطفل أن يحظى بمكان في قلب شخص لم يكن راغباً في إنجابه، ورينالدا لم ترغب بطفلتها. دفعا مرتباً شهرياً لها أعلى من المتوسط آخذين بعين الاعتبار مستقبلها، كما أهدوها حساباً في صندوق التوفير، وأجبراها أن تجري إيداعات شهرية. وهذا ليس كل شيء! لم يطلبوا منها تسديد ثمن بطاقة سفرها من لابوانت إلى هنا، والتي كانت تشكّل مبلغاً

مرقوماً في ذلك الوقت... هنا سمحت ماري نويل لنفسها بمقاطعتها. كيف؟ أليس مكتب تحفيز الهجرات من تكلّف بجلب رينالدا إلى باريس؟ مكتب تحفيز هجرات؟ بدت السيّدة دوبارك متفاجئة. نعم، لقد سَمعت من قبل عن هذه المنظّمة الحكومية التي تجد عملاً لسكّان الأنتيل في المتروبول، لكن المكتب لم يتدخّل في الأمر. ما كانت هي لتقبل أن تُدخل إلى منزلها شخصاً لا تعرفه أوصى به موظّفون لا تعرفهم. أصرّت ماري نويل. تذكّرت كلام أمها الذي لا لبس فيه، شاعرة بأن شرخاً قد حصل في صرح الغرانيت الذي بنته رينالدا، وبأنها باتت، والفضل في ذلك يعود للسيّدة دوبارك، قاب قوسين أو أدنى من بلوغ الحقيقة. الحقيقة! أصرّت ماري نويل بصوت مرتجف. إن لم يكن مكتب تحفيز الهجرات، فمن إذاً؟ شابكت السيّدة دوبارك أصابعها كما لو أنها تستعدّ للصلاة، وشرعت بسرد روايتها للأحداث.

عائلة دوبارك ليست بالعائلة العادية. هي عائلة فيها العديد من الأفراد الاستثنائيين من مغامرين وشهداء وخصوصاً قديسين. ما من إحصاء دقيق لأفرادها من الرهبان الذين جابوا بمسابحهم وصنادلهم إفريقيا والبلاد البعيدة لنشر المسيحية فيها. أحد أفرادها عمل في مشفى «لامبارينيه»، واعتنى بألبير شفايتزر(*). فردٌ آخر أصبح أسقف غوادلوب بعد أن أمضى وقتاً طويلاً في مطاردة كهنة الغابات في هاييتي. كان محترماً حتى من الرعيات الأكثر بعداً في الجزيرة. محبّاً للحياة وجهه أحمر نضر، يعشق الروم والكحول المحلّاة بالكاكاو. في الحقيقة فإنّ جسمه الممتلئ الملوّن هذا يخفي قلب رجل صوفيّ حقيقيّ همّه الأول عمل الخير. كان يزور

(*) Albert Schweitzer (1875–1965): لاهوتي، وفيلسوف، وطبيب ألماني-فرنسي. له أيادٍ بيضاء على إفريقيا، فقد أسس مستشفى فيها. [م].

فرنسا بانتظام ليحضر الاجتماعات والمجامع الكنسية، وليحجّ إلى مغارة لورد. ولا ينسى بتاتاً أن يعرج على بولڤار «مالزيرب» ليبارك أطفالنا. في أحد الأيام من عام 1960، وصلتنا رسالة غامضة منه، طلب فيها منا نحن -أقرباءه الشباب- العون وإظهار إيماننا المسيحي. أراد إيجاد عمل بصفة مربية أطفال لرينالدا تيتان ذات الخمسة عشر عاماً، والتي هي ضحية أكثر منها خاطئة وبائسة أكثر منها قاسية، حزينة بحجم الحزن. كان قد قبل منذ سنوات أن يساعدها بإيجاد عمل لها في لابوانت، ولكنه عرّضها عن غير قصد لأسوأ الإغراءات، وشعر بأنه مسؤول عن تعاستها. نصائح عائلة دوبارك وبنيتها يمكن لهما أن يعيداها إلى الطريق القويم. أجوبة الأسقف عن أسئلة الزوجين لم تقدّم أي توضيحات، قال فقط إن رينالدا على علاقة سيئة بوالدتها ذات السمعة السيئة، وإنه ليس لها أي عائلة أو أصدقاء. أما عن والد الطفل (رفض ببساطة تسميته المذنب) فليس بمقدوره أن يفصح أكثر لأنه مقيّد بواجب السرية، إذ إنّ الاعترافات حصلت متأخرة أثناء جلسة اعتراف دينية. علينا فقط أن نعي أن هذا البائس يتألم من الخطأ الذي ارتكبه. ما بقي من حياته لن يكفيه كي يكفّر عن الذنب الذي ارتكبه، وهو عمل على التأكّد من ذلك. السيّدة دوبارك عرفت في قرارة نفسها أنها ليست مرتاحة لفكرة تشغيل خاطئة لتعتني بنتالي، ملاكها الصغير ذي التسع سنوات. لكن جان رينيه القريب من الكهنة كان لديه رأي آخر، وأرسل في الحال النقود اللازمة للسفر إلى شقيق جدّه. وصلت رينالدا بعد شهر وبدأت رحلة تعايش لمدة أربع سنوات بحلوها ومرّها. لدهشتها من الاضطراب الذي أصاب ماري نويل بسبب قصّتها، حاولت السيّدة دوبارك تجميع ذكرياتها، ولكنها لم تكن تملك أي معلومات إضافية. لا تعلم أي

شيء آخر. لم يلتقيا بالأسقف بعد ذلك. أصابته ذبحة قلبية توفّي على إثرها. الكثير من الروم والكحول المحلّاة بالكاكاو. مشى في جنازته حشد غفير من الناس ودُفن في مقبرة «باس تير» على سفح الجبل، في غوادلوب الغالية على قلبه. من المؤكّد أن رينالدا لم تتواصل مع والد طفلها الذي بقي على ما يبدو في غوادلوب. لم ترسل ولم تصلها أي رسائل.

ما العمل في حالات مماثلة؟ تساءلت ماري نويل. ربما يجدر بي أن أشرب حتى الثمالة. ليس لدي الرغبة بذلك. فلأقم بعمل دراماتيكي إذاً! ليت لديّ القدرة على ذلك. عليّ من الآن فصاعداً العيش مع هذا المجهول الذي تركت خلفي. لقد خرجت من الظلمة، ولكني خرجت منها ضعيفة القوى وغير جاهزة نهائياً على مواجهة ما اخترعت أمي من قصص. ما الجدوى من مواجهتها على كل حال؟ لن تحيد عن قصتها قيد أنملة، ومن ناحية أخرى لا بدّ أنها قد صدّقتها هي نفسها الآن. يمكن أنها تقمّصت حياة واحدة من أولئك التعيسات اللواتي بُحْنَ لها بأسرارهن، أو أنها حلمت بها، فقد كانت قصة تشبه تلك القصص الجميلة التي ينتهي الأمر بها مطبوعة روايةً. هي كاتبة بطبيعتها ولا بدّ أنها بنت هذه الحبكة برمّتها. أما أنا التي أعيش في الواقع، فعليّ أن أبحث عن الحقيقة في مكان آخر. أين؟ عليّ أن أعيد تأويل كل شيء، أن أبدأ من جديد، منذ صباح ذلك اليوم الذي ترجّلت فيه نينا ورينالدا من قارب أؤمن بالله الذي كان في ذلك الوقت يبحر في رحلتين ذهاباً وإياباً من ديزيراد إلى سان فرانسوا.

كانت نينا تسبقها، تمشي بخطا طويلة وتحمل متاعها الخفيف على رأسها دون أن تكترث للطفلة التي تعدو قدر استطاعتها خلفها عاقفةً أصابع قدميها في حذائها الرياضي الممزّق، فمشاعر متناقضة تتصارع

في خلدها. ظنّت أنها فعلت حسناً بتركها ديزيراد. صحيح أن حياتها قاسية معجونة بالبؤس، وكانت تملأ بطنها وبطن ابنتها في أغلب المرات بحساء الجذور والزيت الفاسد، لكنها ولدت هناك، والدتها أيضاً ووالدة والدتها، وكانتا تستمتعان بالاستراحة قبالة البحر. دارها هناك. ما سمعته عن لابوانت لا يبعث على السرور. لصوصية وثرثرة ودعارة. هنالك حافلة تنتظر بالقرب من محطة Esso للوقود، فأبطأت من سرعة مشيها لتسمح لرينالدا باللحاق بها. الأخيرة تتعرّق وشعرها الأجعد مبلّل. شعرت نينا رغماً عنها بالشفقة من بشاعة طفلتها، وأعطتها قطعة خبز تحتفظ بها بين ثدييها، لكن الصغيرة رفضت بحركة من رأسها. لا تريد شيئاً منها. الأمر على هذا الشكل بينهما منذ البداية، منذ أن كانت بعمر الثلاثة أيام رفضت أن ترضع حليب أمها. جلست نينا ورينالدا على المقعد الخلفي. غفت نينا توّاً. بقيت رينالدا تتفحّص محيطها بعينين فضوليتين لا يسبر غورهما. بدا الطريق بين سان فرانسوا ولابوانت بلا نهاية. لا يمكن رؤية أي شيء آخر تحت الشمس الحارقة سوى حقول قصب السكر المتتابعة، وثيران نحيلة تجرّ سلالها على قارعة الطريق أو تمدّ خطومها نحو المستنقعات وتخور، وبعض أشجار المانغو المنعزلة هنا وهناك تمدّ أغصانها على شكل صليب. كان السائق يطلق زموره لدى المرور في الضواحي التي تتشابه كلها بقذارتها وبؤسها. أعداد من أطفال عراة وكلاب مثارة مثلهم تركض خلف الحافلة. نحو نهاية بعد الظهر، تماماً قبل أن يبدأ الظلام بالحلول، وصلتا إلى لابوانت. توقّفت المركبة قبالة سوق «بيرجوفان» حيث تسود في مثل هذا الوقت المتأخّر رائحة السمك الفاسد والبابايا شديدة النضوج. وآخر البائعات يحزمن ما يمكن بيعه في اليوم التالي متجاهلاتٍ تضرّعات النساء الفقيرات.

الكل يعرف «إيل لاغو دي كومو». أشفق الناس على نينا وطفلتها التي تشبه الفلّاحين، وأغرقوها بمعلومات تفصيلية شوّشتها أكثر مما أرشدتها. «اذهبي يساراً، ثم تابعي المسير بشكلٍ مستقيم حتى تصلي إلى منزلٍ عالٍ وخفيض. هناك يقيم طبيب...». على زاوية قناة «فاتابل» هنالك حارس يضرب على طنبور لدعوة الناس، ركض الفضوليون بسرعة نحوه. لم تكن نينا وريناالدا قد رأتا عرضاً مشابهاً، مما يمكن اعتباره واحداً من عجائب لابوانت. دفع الرجل بقبّعته العسكرية إلى الخلف ووضب عصيّه، ثم قرأ بصوت غير واضح إشعاراً للمواطنين يبلغهم فيه بأن مدارس ستُفتتح قريباً، وبأن عليهم تسجيل أسماء أبنائهم في البلدية. توجّه بعد ذلك بمشيةٍ مهيبة نحو شارع «فريبو». تابعت نينا وريناالدا مسيرهما، واحدة تلحق بالأخرى. وصلتا إلى «إيل لاغو دي كومو»، في الوقت الذي يتحضّر جوزيه فيه لإغلاق ستارة المتجر الحديدية نصف إغلاق. تلك إشارة للزبائن بأن عليهم الرحيل والعودة في الغد. على الرصيف المقابل، أمام متجر الملابس المحيكة، كان ابن صاحب المتجر، عزيز، يتجادل مع مربّيته.

كيف مضت الليلة الأولى؟

وطاويط خارجة من نافذة غرفة الخدم حامت حول المنزل بتثاقل. أركانيا التعبة كانت تستريح في غرفتها على الطابق الأول. أثناء ما تتعرّف نينا على حصة حديقتها وأدوات مطبخها وطيور الكناري، لم تستحسن العمّتان زيتا وليا ترك ريناالدا في المطبخ. ودون أن تطلبا الإذن من جيان كارلو الذي بدا منزعجاً، جعلتا لها مكاناً على الطاولة بين فيوريلا ودوناتيلا جلست فيه يومياً لتناول الطعام حتى يوم اختفائها. نشأت في الحال صداقة بين فيوريلا وريناالدا اللتين كانتا مختلفتين كلّياً. تأمّلت ريناالدا إطار حياتها

الجديدة، الأثاث المصنوع من خشب السنديان من طراز هنري الثاني، وأطباق الزينة المعلّقة على الجدران ذات الأطراف المسنّنة والمذهّبة، ونسخاً عن منمنمات فياتور جنيتني، الرسام الصقيلي الساذج الذي كان جيان كارلو يعشق في شبابه، وحاولت ألّا تبكي. تبكي على ماذا؟ ماذا تركت في ديزيراد؟

فجأة، ربّتت فيوريلا على ركبتها تحت الطاولة وهمست لها في أذنها: «أتعرفين حكاية عائدة كبيرة الصدر؟».

فتحت رينالدا عينيها تعبيراً عن جهلها، فسردت الأخرى قصة لا تعرف بدايتها من نهايتها جعلتها تضحك من قلبها. نقر جيان كارلو بملعقته على طرف صحنه طلباً للهدوء، ومثّلت العمّة زيتا، التي تدور حول الطاولة مع الطبق الهزيل من سمك القدّ الذي جرى إصلاحه، بأنها تزجرها: «هل انتهيت يا فيوريلا؟».

بعد برهة دخلت نينا تلبس ثوباً تقليدياً وحاملة طبقاً من حلوى الليمون وإبريق شاي وفناجين من الخزف مكسورة الحواف. التفتت مشدوهة كما لو أنها رأت قديساً نحو جيان كارلو الذي هو أيضاً كان ينظر إليها. انفجرت فيوريلا ضاحكة لإحساسها بأن ملاك الحب والشهوة المجنون قد رمى للتوّ بسهامه في قلبيهما.

- أمّك، يمكن القول إنها عائدة كبيرة الصدر بشخصها.

بعد أن غسلت الأواني ووضّبت أغراض العشاء، صعدت نينا ورينالدا إلى غرفة الخدم خاصتهما. كانتا قد تركتا درف الشبابيك مفتوحة، فدخلت الوطاويط الغرفة. جثمت رينالدا من خوفها على السرير مرتعدة، في حين طاردت أمها الطيور متسلّحة بعصا مكنسة. خلّفت المعركة ستّة جثامين

سوداء مشعرة سالت دماؤها على الأرضية. أهكذا أمضتا الليلة الأولى؟ واليوم التالي؟ والأيام اللاحقة؟ من أين خرج هذا الرجل مجهول الاسم والشكل الذي حملت منه هذه الطفلة؟ هل اغتصبها بعد أن ترقّبها من خلف شجرة الساعة الرملية(*) في ساحة لافيكتوار، وانقضّ عليها في أحد الأيام النحسة واقتادها إلى منزله على الرغم من توسّلاتها وركلاتها؟ أو على العكس أغواها فوهبت له نفسها راضية؟ كانت تذهب إلى اللاكو(**) الذي يقيم فيه في «مورن لا لوج» وتبقى معه كل الوقت الذي تستطيع. ينتظران معاً انبلاج خيوط الفجر الأولى لتهرع عائدة إلى شارع «نوزييه». يمكن للمرء أن يتساءل كيف أتيح لهما أن يلتقيا في الخارج دائماً؛ كيف استطاعت أن تخاتل يقظة كل الأطفال والنساء الثلاث المتفانيات في المنزل والكاهن الذي يصعد وينزل الدرج في كل الأوقات، جاهزاً دوماً لجلسات الاعتراف مع الجميع.

إلا إذا... إلا إذا.

خدّرت برودةٌ جليدية أعضاء ماري نويل، ثم زحفت نحو قلبها، كادت أن تسقط أرضاً، هنا، في هذا المقهى القذر القريب من محطة «سان لازار» حيث دخلت وطلبت فنجان قهوة. حولها هنالك امرأة جائعة تأكل بيضاً مسلوقاً على المنضدة، وعاشقان يتبادلان القبل على أحد المقاعد.

كيف لم تستنتج ذلك باكراً؟ اكتملت الصورة الآن. كل تلك القطع

(*) شجرة من فصيلة الفربيونية، يمكن أن تنمو حتى 60 متراً. لها أسماء عدّة منها: شجرة الدلفين، القاذفة... لكن الاسم المحلّيّ لها في غوادلوب والذي تستخدمه المؤلّفة sablier (الساعة الرملية)، ويرجع هذا الاسم إلى اللون الرملي للأشواك الصغيرة على جذعها وعلى أغصانها. [م].

(**) Lakou: الاسم الذي يطلق على المجمّع السكني التقليدي في غوادلوب. [م].

المبعثرة انتظمت في أماكنها من جديد. الاعتراف. الموسيقا. شيروبينو. قلبي يتنهّد صباحاً ومساء(*)". كم هو جميل صوتك يا ابنتي! سأعمل على إرسالك للدراسة في المتروبول. ستلعبين دور «باجيو» في الأوبرا. لديك صوت جميل وعينان جميلتان أيضاً. اقتربي قليلاً، أكثر... آه! ما هذا الذي اقترفته! ملعونٌ اليوم الذي وُلدت فيه! كان يجدر بي أن أموت منذ كنت رضيعاً! أبتِ، لن تستطيع أبداً مسامحتي. سأنضمّ من الآن فصاعداً إلى الناس الذين يشبهونني، دمامل أجسادهم تأكل روحي.

لو أنّ لديّ أحداً أتكلّم معه، بُحت له بما يعذّبني. لو أنّ لديّ رجلاً يمسك ذراعي -كما يقول جود أنوزي- كان ذلك ليساعد! للأسف تركني الجميع. تظن جدّتي نينا أن التعليم يجلب السعادة، أن حياتها كانت لتكون مختلفة لو أنها تعرف القراءة والكتابة. أنا متعلّمة وحصلت على تعليمي بجهد ذراعي، إلا أنه لم يجلب لي سعادة أكبر، وما زلت أتساءل ما السبب. ذلك أني لم أكن أعرف الإرث الذي أكفّر عنه.

(*) شخصية واقتباس من أوبرا «زواج فيغارو» لموتسارت. [م].

.5

ما إن خرج القطار من باريس حتى بدأ الثلج بالهطول على شكل ندفات في عجلة من أمرها أن تلمس الأرض، متراصّة في ما بينها كما لو أنها خائفة. في غضون دقائق، لم يعد هنالك لونٌ آخر على السطوح والأشجار والسيّارات سوى اللون الأبيض الذي يبهر العيون. نظرت ماري نويل وهي تسند خدّها على زجاج النافذة البارد إلى هذا المنظر الميت، الذي يشبه إلى حدٍّ كبير ما تحمل في قلبها. كان ذلك يوم أربعاء، وهو يوم لا يوجد فيه كثيرٌ من المسافرين. القطار ليس من النوع الإكسبريس. المسافرون القلّة، رجل يلبس حذاءً مهترئاً وسيّدتان رثّتا الملابس، يرتجفون في مقطورة الدرجة الثانية. قدّم الرجل سجائر وراح ثلاثتهم يتحدّثون دون حماسة كبيرة تلفّهم رائحة تبغ الغلواز. تحدّثوا عن ماذا؟ عن الحكومة الحالية التي تجعل من حياة العمّال مستحيلة، عن الحكومة القديمة التي كانت تتّبع السياسة نفسها. الجمهوريات والرؤساء متشابهون كلّهم. يكفي النظر إلى هؤلاء المسافرين لمعرفة أنهم أشخاص عاديون من عائلات عادية. لا شيء خارج عن المألوف. مضاجعات عادية وخيانات لا نتائج لها، بعض الجنس الفموي هنا أو هناك ولكن ما من جنس شرجي. شعرت

ماري نويل بأنها غريبة في هذا المكان. أخفت وجهها خلف الصحيفة التي اشترتها تلقائياً دون تفكير، لكن صور الجثث المقطّعة بالمنشار الكهربائي في «بوروندي»، أو تلك المرمية عارية في صوامع راوندا، والغرقى المتفسّخين في الطين في باكستان، لم تحرّك لديها أيّ مشاعر. التعايش يبدو أمراً مستحيلاً بين البشر. فليتحاربوا وننتهي من الأمر، ويكتشف الجميع لذّة العدم. وضعت الجريدة على ركبتها والتفتت مجدّداً نحو النافذة. يسير القطار الآن في الريف، أصبحت إطاراته الحديدية تعبر سهلاً أبيض مسطّحاً كالكفّ، تتخلّله أحياناً بعض النتوءات من الصعب تحديد ماهيتها. هنغارات؟ أشجار؟ غيضات؟ هياكل عظام؟ أجساد حيوانات؟ لم تجرؤ على سؤال نفسها ماذا ستجد بعد سفرة الثلاث ساعات هذه. على كل حال لن يكون ما ستجده أسوأ مما تركت خلفها.

استمر الحديث في المقطورة باسترخاء. ضحكت السيّدتان ضحكة مزيّفة على نكتة أطلقها الرجل. فوق الشفاه التي كشفت عن أسنان مصفرّة كانت العيون جوفاء سئمة. وضعت إحداهما حدّاً لهذه الكوميديا، فقد تدثّرت بمعطفها وأرجعت رأسها إلى الخلف استعداداً للنوم. فكّرت ماري نويل بأن عليها أن تفعل الشيء نفسه، فهي لم تغلق جفنيها منذ ساعات، وأمضت بداية الليل تشرب نبيذاً أحمر رديء النوعية، النوع الذي يسبب الصداع، مع غارفي وسوغولو. أحزنهم اقتراب عيد الميلاد وهم يعيشون في هذه الوحدة، وجعلهم يبكون مثل بكائهم عندما كانا صغيرين. استندوا على المخدّات في غرفة المعيشة وراحوا يتذكّرون معاً أحداث حياتهم الماضية، التي من كثرة ما رووها أصبحت حكايات مجترّة. جاء سوغولو إلى فرنسا عندما كان طفلاً صغيراً، بعد أن رمى انقلابٌ بدكتاتور بلده خارج حدود البلاد، علماً بأنه قد صرّح قبل سنوات أن حكمه سيستمر

للأبد. أبوه الذي كان مناصراً له، اضطرّ أن يتبع سيّده ولجأ مع عائلته إلى ڤيلا في «فونتينبلو»، فُرشت بشكلٍ فاخر من أموال الشعب. لم يعد سوغولو إلى إفريقيا مذّاك، ولمّا بلغ العشرين أصبحت الرغبة في إعادة اكتشافها تخامره بإلحاح. يوماً ما سيذهب بحثاً عنها. سيجدها من خلال قيظ الظهيرة وقشرة الأرض الحارقة، وسيغرس وتده فيها. لم يجد غارفي حرجاً في التهكّم وهزّ أكتافه باستهزاء. إفريقيا ليست للأحلام أو الزواج؛ إفريقيا خُلقت ليُسخَر منها ولتُنهب وتُغتصب. إن كان هنالك عالم يطمح للعيش به، فهو هذا العالم الذي نحن فيه وعلينا أن نطوّعه ليتناسب وآمالنا. جاء دور سوغولو هنا ليضحك ويهزّ أكتافه استهزاءً. في كلّ مرّة يزداد هذا النقاش حدّةً. نحو منتصف الليل أوقفوا هذا النقاش الأجوف وتوجّهوا إلى نادي «سوهو» الذي يتردّدان عليه يومياً في حيّ «ريامور سيباستوبول». خلف واجهته التي لا توحي بالبهجة يعزف خماسيّ جاز من الأنتيل. امتلأ هذا المكان المعتم والضيّق بالمارتينيكيين والغوادلوبيين والأفارقة، اجتمعوا معاً بتعاضد وتآخٍ. الجوّ مثقلٌ بالحنين وبأحلام متماثلة. للحظة سكبت الموسيقا السلوان في قلب ماري نويل. هذه التناغمات المتصادمة والتنافرات مألوفةٌ لديها. وبدا ذلك وكأنّ أصدقاء قدامى اجتمعوا ليعزفوا ويبلسموا جراحها. للأسف لم تستمرّ السكينة. انبثق الألم من جديد في نهاية إحدى الحركات. في وقت الاستراحة، ترجّل عازف الترومبون عن المسرح، وجلس إلى طاولتهم بعينيه الذابلتين اللتين تشبهان عيني مغنّي البوليرو، وشاربه الذي يشبه شارب غابرييل غارسيا ماركيز. كان غارفي فخوراً جدّاً بأخته الأستاذة في جامعة أميركية، إلى درجة أنه أعلن عن زيارتها على الملأ. فخر كبير لنادي سوهو! لقد كان يعرف زوجها المتوفّى، ستانلي واتس، لقد سنحت له الفرصة أن يعزف معه في حفل

أُقيم في لندن. آه نعم! كان ستانلي واتس موسيقياً عظيماً يتفوّق على الكثيرين، حتى على جيمي هندريكس وبوب مارلي، اللذين كانا قزمَين مقارنةً به. العالم لم يكن جاهزاً لتلقّي موسيقاه وليفهم رسالته. لا أحد يريد للمهاجرين أن ينجحوا، يريدون لهم أن يكونوا المعذّبين في الأرض. إنهم ملح الأرض ونور العالم. كارل ماركس كان مهاجراً، وأينشتاين وبابلو بيكاسو، ولفترةٍ ما: هو شي مينه، ونيكولا غويلن أيضاً. يمكن لهذه القائمة أن تطول إلى ما لا نهاية. اغرورقت عينا ماري نويل بالدموع لسماعها هذه البلاهة، وهو الدليل على أنها ليست في حالتها الطبيعية. تراءى ستانلي لها كصندوق مغلق إلى جوارها لم تعرف كيف تحظى بمفتاحه، وتيري الذي هجرها دون أن يقول كلمة. لقد عرفوا من دون أدنى شك حقيقة هذه الفتاة التي شاركتهم مضاجعهم. تشوّه. وحشية. كان يُعتقد في عصر النهضة بأن الوحوش تولد من مضاجعات محرّمة. مثيرة للذعر إلى درجة أن تخيّلها وحده كافٍ لأن يجمّد الدم في العروق. عذراوات منزوعات الأحشاء من قبل كلاب أو فهود أو ثيران أو قرود مكاك غزيرة الشعر قضبانها منتصبة. أو تطاردها وحوش سوكونيان ودورليس وڤولان(*). الوحش، وإن كان لا يحمل علامة تدلّ على وحشيته كذراع أو رجل ناقصتين، أو ذيل سمكة، أو قرن جدي في وسط الجبين، أو حرف أبسيلون على الصدر، فإنه لا يستطيع سوى بثّ الرهبة من حوله. قربه رهيب. لكن عازف الترومبون هذا لا يبدو مرهوباً، إذ يرمقها بنظرات إغواء، ويسألها عن الولايات المتحدة. لم يكن يسألها فعلياً. بل يتكلّم عن معرفة. العنصرية مثلاً. يعرفها، فقد

(*) مخلوقات خيالية فولكلورية، دورليس dorlis هو رجل يتمتّع بقوة الاختفاء، يدخل المنازل ليلاً ويؤذي النساء أثناء نومهن. أما ڤولان Volan فهو مخلوق طائر مرعب، وقد يتخذ شكل كرات نارية. [م].

أمضى عدة أيام في نيويورك وسائقو التكسي من العرق الأصفر رفضوا التوقّف له. العنف. يعرفه، فقد رأى جثتين هامدتين تغرقان في الدماء لدى خروجه من «شي سيلفا» في حيّ هارلم. المثلية الجنسية. يعرفها، فقد تبعه رجلان مخيفان يلبسان ثياباً جلدية في حيّ «شيلسي». لحسن الحظ، انتهت الاستراحة مع وصوله إلى هذه النقطة من استعراضه. كان عليه أن يلتحق ببقية فرقته. لا شيء يقال، إنه خماسيٌّ محترف. إلا أنها فكّرت بأنه تنقصه الخفّة والمفاجأة في الارتجالات. ستانلي، المتطلّب جداً، كان ليفكّر مرّتين قبل أن يقبل بانضمامهم إلى «M.N.A».

بدأت النجوم تغلق جفونها والشحوب دبَّ بالليل، لمّا خرجوا من نادي سوهو. تبع غارفي وسوغولو مجموعة من الأصحاب، أما هي فبقيت مع عازف الترومبون. شربت مجدّداً كثيراً من النبيذ الرديء في شقّته الواقعة في الطابق الأخير من أحد الأبنية. لم يعد يتفوّه بأيّ كلمة تتعلّق بأميركا أو بأي شيء آخر. داعب ثدييها بأصابعه وحرث فخذيها بقضيبه، ولكنّها دفعته عنها بكلّ قواها، إذ إنها ليست في مزاج لهذه الألعاب. اتجهت بعد ذلك إلى محطة قطارات الشمال الكئيبة تحت سقفها الزجاجي، والتي تعجّ بسكّان ضواحٍ نصف نائمين ومتعبين حتى قبل أن تبدأ أعمالهم. استقلّت القطار الأول المتجه إلى بلجيكا. فُتح باب القمرة ودخل مسافران، أمّ وطفلها، لم يلتفتا يميناً ولا يساراً ولم يلقيا التحية على أحد. جلسا وأخرجا بعض الطعام وبدأا التهامه مباشرة. بشعور بالقرف ممزوج بالحسد، نظر الجميع إلى قطع الخبز الريفي المزيّنة بالسلامي وجامبون بارما التي يضعانها في صدر حلقيهما الشرهين.

غفت ماري نويل فجأة، واستيقظت مع دخول القطار محطة بروكسل.

كان لودوفيك ينتظرها في نهاية الرصيف وإلى جانبه أنجيلا، يلبس سترته الواسعة المريحة مشبهاً نخلة على أطراف واحة. ظنّت ماري نويل أنه جلب الطفلة معه ليستخدمها حاجزاً، أو عائقاً يريد أن يزرعه بينه وبينها. لقد بالغ غارفي. نعم، علامات الشيب بدأت بالظهور على جدائل لودوفيك على مستوى الصدغ، فلا يوجد مفرّ من التقدّم في العمر، نعم، لديه أكثر من تجعيد في جبهته ومحيط فمه، لكنه لا يبدو كشخص يعاني من شيخوخة مبكرة، بل على العكس كان حاضر الذهن وحيوياً. دفع الأختين إلى العناق. ضمّت ماري نويل إلى صدرها هذه الطفلة التي لم ترَها من قبل، وفوجئت من عذوبة العاطفة التي انبلجت داخلها. أنجيلا صغيرة بالنسبة لعمرها وتشبه أباها أكثر من أمها. لديها عينا لودوفيك وغارفي البنّيّتان الفاتحتان. ابتسامة متردّدة ارتسمت على شفاهها كما لو أنها لا تعرف ما إن يجب عليها أن تبتسم لها أم لا. أمسك لودوفيك بذراع ماري نويل بمودّة واصطحبها نحو المخرج. كعادته تكلّم عن كلّ شيء إلا المواضيع الأساسية. سألها ما إن كانت تثلج أيضاً في باريس. الطقس يبشّر بشتاءٍ قاسٍ في أوروبا. لم يتوقّف الثلج منذ أيام في بلجيكا وألمانيا وهولندا. نعم، لقد اضطر أن يسافر إلى بلجيكا مسرعاً، فقد طلبوه للحضور إلى مركز تأهيل الشباب الجانح الذي كان يعمل فيه في ما مضى. سيلاس، مدير لودوفيك وصديقه منذ عشرين عاماً سئم الغربة، وقرّر أن يعود إلى الكاميرون مع عائلته. لديه ثمانية أطفال ولدوا جميعهم في أوروبا. لودوفيك ليس مستاءً من العودة إلى بروكسل حيث المهاجرون يناضلون بحرارة كعائلة واحدة. دعا غارفي ونصفه الآخر سوغولو للالتحاق به هنا، فلا شيء ذا أهمية يجري في باريس. أنصتت ماري نويل ولم تقل شيئاً، وبما أنها ليست مهتمة بالتعرّف على بروكسل، لم تنظر طوال المسافة بين المحطة والضواحي

إلى الواجهات الرمادية والشوارع المزدحمة والمتسخة بالطين والحدائق التي كانت على العكس ترتدي حلة من البياض. لم يكن لديها سوى همّ واحد يثقل لها قلبها: كيف الانتقال من نبرة العاطفة والثقة هذه إلى نبرة أخرى؟ تذكّرت أنها لمّا بلغت صارت تخفي ألبستها الداخلية الملوّثة في إحدى الزوايا قبل أن تغلق على نفسها باب الحمّام لتغتسل خجلة من نفسها. عثر لودوفيك مرة على هذا الكنز كريه الرائحة، ودون أن يؤنّبها، شرح لها ببساطة كيفية تشغيل الغسّالة الآلية. اعتنى أيضاً بالخرّاج على أليتها اليسرى، الذي حاولت إخفاءه. حين كانت تصاب بالأنفلونزا، يرفع لها قميصها ويفرك لها بقوّة الصدر والظهر. كيف يمكن أن تصل الأمور بأب أن يغتصب طفلته؟ أن ينسى كل الذكريات ويحوّل جسداً مألوفاً لا معنى له إلى مكان للفحشاء؟

يشغل سيلاس وعائلته في مجمّع أبنية «جورج سيمونون» الشقة التي سيسلّمونها للودوفيك في غضون يوم أو يومين. لذلك فإنّ هنالك اكتظاظاً لأطفال من الجنسين، وحقائب مغلقة ومفتوحة، وكراتين نصف مليئة، وأغراضاً ما زالت بحاجة إلى التوضيب. في الوقت الذي يغلق فيه سيلاس بالمطرقة الصناديق الخشبية، وقفت زوجته، سيليست، وسط هذه الفوضى كالإمبراطورة، حاملةً على ظهرها مولودها الأخير، تؤنّب الصبيان وتراقب البنات اللواتي يحضّرن وجبة الغداء. قبّلت ماري نويل كما لو أنها أختها الكبيرة التي لم ترَها منذ انفصالهما القاسي في الوقت الذي حدّقت عيناها الحذقتين بها مليّاً متسائلة عن سبب مجيئها. لم تخفِ سيليست امتعاضها. أطاعت زوجها لكنها ليست مسرورة لفكرة العودة للاستقرار في إفريقيا. لقد فاتحت سيلاس بالموضوع ولكنه لم يعبأ لرأيها وفعل ما تمليه عليه

نفسه، فالرجال، لسوء حظهم، لا يستمعون لنسائهم. لقد كان مطمئناً لأن أحدهم وعده بعمل في «دوالا». ولكن أن تعد شيء وأن تحافظ على وعدك شيء آخر. سيكون سعيد حظّ إن لم ينتهِ به الأمر بعد أشهر في السجن بتهمة التآمر على الرئيس، فهو لم يعرف يوماً كيف يحفظ لسانه، ولا بدّ أن اسمه موجود على إحدى القوائم السوداء. سأغدو وحيدة دون مورد ودون عمل. كيف لي أن أؤمّن الطعام لهذه الأفواه الجائعة؟ لا يمكن الاعتماد على عائلته أو عائلتي. كلمة عائلة لم يعد لها معنى في أيامنا هذه، ولا قبيلة ولا قرية ولا مجتمع ولا حتى إفريقيا. إفريقيا لم تعد إفريقيا، لقد أصبحت مملكة للظلمات ولمستغلّي مصائب الناس.

قرابة الساعة الواحدة جلس الجميع على الأرض متحلّقين حول وجبة الغداء الممتازة. فعلى الرغم من أنهن كنّ يضحكن ويتهامسن بأسرارهن، لكن الفتيات حضّرن وجبة شهية. ذهب لودوفيك وسيلاس بعد الغداء لينكبّوا على أعمالهم، وهرع الأطفال صبياناً وبناتٍ للّعب في كل أرجاء المنزل. وضعت سيليست ابنها النائم في سريره وخرجت بصحبة ماري نويل. كانت تلك فكرة لودوفيك أن تتحدّث عن حياتها في الولايات المتحدة لأعضاء جمعية «اليد المفتوحة» التي اجتمعت في دورة غير عادية خصيصاً للاستماع إليها. اجتمع بصخب في بناء مجاور نحو أربعين امرأة مهاجرة من أعراق غير بيضاء وبأعمار مختلفة، والعدد نفسه من الأطفال الصغار. بعض النساء أتين من إفريقيا، وكنّ إما حليقات الرأس أو مجدّلات الشعر ويلبسن ثياباً محيكة. أما المغربيات فيلبسن إما شادوراً أو فولاراً مزهراً تظهر من تحته جدائلهن المحنّاة. بعض السافرات كانت شعورهن قصيرة وجعداء. جميعهن، بالذهول نفسه، رحن يحدّقن

بالأخت التي لا تدل هيئتها على شيء مميّز، إذ إنها ليست أجمل ولا أكثر جلالاً من أيّ واحدة منهن، ومع ذلك وصلت إلى أعلى الدرجات: أستاذة في جامعة أميركية! أمام هذه النظرات شعرت ماري نويل بأنها زائفة. إن وصفت لهم حياتها الحقيقية، عزلتها وإخفاقاتها واكتئابها وليالي الأرق التي تعيش بلا حبيب ولا أنيس، ما من شكّ في أن الصالة ستفرغ ولن يبقى أمامها سوى صفوف من كراسي فارغة. عوضاً عن قول الحقيقة، أخذت تسرد لهم حكاية جديرة بنائب عن الحزب الجمهوري في الكونغرس الأميركي، معجونة بصور نمطية جمعتها من هنا وهناك، لم تكن هي لتصدّقها. ديمقراطية. حرية. تعددية ثقافية. نعم، أميركا هي أرض الفرص المباركة. نعم، من يعرف استخدام ذراعيه ويديه يمكن له أن يبني منزلاً وأن يعيش حياة هانئة. نعم، الأحلام الأكثر جنوناً يمكن لها أن تتحقق فيها. هناك، أكثر من أي مكان آخر على الأرض، يشكّل المهاجرون وأطفالهم ثروة قومية. شارلي شابلن، نابوكوف، أودن، جوزيف برودسكي. الأفكار الأكثر ثورية اجترحتها عقولهم. ماركوس غارفي، جورج بودومور، ستوكبلي كارمايكل. مع لفظ كل اسم من هذه الأسماء كانت قناعاتها تترسّخ بشكل أعمق إلى درجة أنها أنهت خطابها بنبرة تشبه نبرة مرشّح للانتخابات. حلّ الصمت. التصفيق كان متردّداً. ثم امرأة بعد أخرى أخذن ينهضن ورحن يطرحن أسئلة مغايرة لما توقّعت. هل تناولت العشاء مع الرئيس؟ هل تملك منزلاً في نيويورك؟ هل تملك سيارة تقودها؟ هل تجني الكثير من المال شهرياً؟ هل كان لديها من يهتم بنظافة بيتها؟ من يحضّر لها الطعام؟ من يغسل؟ اضطرّت ماري نويل أن تردّ عن هذه الأسئلة بالنفي. اهتاجت النسوة. سألتها إحداهن ما إن كان زوجها أميركياً؟ كيف ليس لديك زوج؟ ولا أطفال أيضاً؟ تعيشين وحيدة إذاً؟ في تلك اللحظة

لو لم تطلب سيليست الرحيمة الانتقال إلى النشاط التالي، لانكشف زيف ماري نويل بالكامل.

التقت بلودوفيك مجدداً وجلسا متجاورين على الأريكة التي ضعضعتها أرجل الأطفال. سيلاس وسيليست وأطفالهم وأنجيلا ذهبوا لزيارة أصدقاء يعرفونهم منذ خمسة عشر عاماً. حلَّ السلام أخيراً وأصبح بإمكانهما أن يتحدّثا على انفراد. هذه الشقة ومحيطها يشبهان إلى حدٍّ كبير شقّة «سافيني سور أورج». استعادت ماري نويل صورتها وهي تمصّ قلم الرصاص، وتكتب وظيفة اللغة الإنكليزية على طاولة من خشب أبيض. غارفي يلعب في زاويته ويسقسق. لودوفيك كالمكّوك بين المطبخ وغرفة المعيشة، ويلقي بنظرات على دفترها كلّما مرَّ بجانبها. يُسمع في الخلف صوت ضرب رينالدا المنعزلة في عالم آخر على الآلة الكاتبة. استعادت هذا المشهد دون مرارة أو سوداوية، لأنها أدركت للمرة الأولى أن تكتّم رينالدا وكذبها قد حمَياها. ما الذي كان سيحصل لهذه الفقيرة لو عرفت إعاقتها باكراً؟ كيف كانت لتتحمّل عبء الحياة على كتفيها؟

التفتت نحو لودوفيك، فقد حانت ساعة التطرّق للموضوع الأساسي.



القصة بحسب لودوفيك

أترين؟ أنا لست حزيناً، ولا أشعر بالمرارة وخيبة الأمل، ولا تسيطر على أفكاري الرغبةُ في الانتقام. كنت أعلم أنه سيأتي اليوم الذي تهجرني فيه. لطالما شعرت أنها ستتركني يوماً، كما فعلَتْ مع كل أولئك الذين قبّلتهم ولم يعودوا يفيدونها بشيء، كما يترك السلطعون كلّابه، وكما تترك السحلية جلدها الأخضر على قارعة الطريق. أمّها. فيوريلا. رانليز. كلير ألتا. عائلة دوبارك وآخرون لا نعلم عنهم شيئاً. إن أدارت لي ظهرها بعد كل هذه السنوات والذكريات المشتركة، فذلك لأنها لم تعد تخشى شيئاً، لا ظلام الليل، ولا جلبة الرياح الشديدة، ولا خرافات امرأة مجنونة. لا شيء. أصبحت تتقن فكّ خيوط الحياة المتشابكة وهي مرتاحة هكذا.

أما عن قصتك فلا تطلبي مني توضيحات. لا تعتمدي عليّ في وضع القطعة الأخيرة من الصورة في مكانها، وأن أثبت لك هوية أبيك كمن يكشف الحقيقة في نهايات الروايات البوليسية: «هو هذا أو ذاك! كيف؟ ألم تحزري؟!». لم أسألها عن شيء قطّ. أولاً، لأني كنت أعلم أنها لن تقول لي سوى ما تريدني سماعه. ثانياً، أعتقد أن لكلّ واحدٍ فينا الحقَّ في أن يكون له جانبُه المظلم وخصوصياته. سيكون ذلك كامرأة غسلت ثيابها

الملطّخة بدورتها الشهرية في النهر على الملأ. ألا نلتفت بعيداً ممتعضين من عمل طائش كهذا؟ ثم هل تعتقدين بأني إنسان كامل؟ مَن بإمكانه معرفة كم عيناً دامعة وكم بطناً حاملاً وولداً مجهول النسب قد تركت خلفي حيثما ذهبت؟ في إفريقيا وأميركا وفرنسا. لطالما عشقت أجساد النساء وحصلت على نصيبي من المتعة معهن. لم يُثر الأمر حنق رينالدا بتاتاً. على العكس، كانت تطرح عليّ أسئلة شتّى. تشمّ روائح النساء الأخريات في شعري وأصابعي. تودّ معرفة معنى الرجولة، وتدعم فكرة أن لدى كلّ واحد منا الحقّ في أن يعيش حياتين، واحدة كذكر والأخرى كأنثى. كنت أضحك على كل هذه الأفكار التي ينضح بها خيالها. صحيح، كانت تظلّ أياماً بأكملها لا تتكلّم فيها، تتألم بسبب ذكرى لا تدعها ترتاح ليلاً أو نهاراً. شيء رهيب ووحشي حصل لها في طفولتها لم تستطع أن تبوح به لأحد. لقد كانت حسّاسة لأنها معتدّة جداً بنفسها، وتظن أن كلّ شيء موجّهٌ ضدّها. تبكي يومياً لأيّ سبب، حلم، ذكرى سيئة، نظرة، كلام قاسٍ. ولكن رغم هذا كلّه عشنا أوقاتاً سعيدة. بعد أن أمسح الدموع عن خدّيها، أضمّها إلى صدري كدمية ثمينة ونتطارح الغرام. أهمس في أذنها: «قولي لي! فضفضي لي! ستشعرين بتحسّن إن بُحتِ!». لكنها تهزّ رأسها رافضة، وأنا لم يكن بإمكاني إجبارها على الكلام. كانت تفشي من غير تفكير بنتفٍ متفرّقة. هي لا تنسى الإهانة. حين عملت لدى عائلة دوبارك، أمسك الصغير شامانو بيدها وقبّلها قائلاً: «أحبّك». فقالت له أمّه غاضبة أمام الجميع: «أيُعقل هذا يا شارل إيمانويل، خادمة؟!». تلاميذ المدرسة في بولڤار B سخروا منها وسمّوها «بامبولا» أو «بياض الثلج». في أحد الأيام، طاردها أولاد في المترو وهم ينادونها «قردة». الشخص الذي كانت تأتي على ذِكره دائماً هو أمها، نينا. تكرهها ولم أفهم سبب ذلك. أوصافها لها مرقّنة ومجزّأة.

رائحتها. ابتذالها. قذارتها المقزّزة. عيوبها. أعتقد ببساطة أنها تلومها لكونها ماهي عليه: زنجية تعمل خادمة لدى عائلة بيضاء، ومسرورة جدّاً لأن ربّ المنزل يضاجعها. دوماً تكلّمت بالسوء عن جيان كارلو، الذي، بحسب ما قالت، كان ملائماً لها. بخيل وفاسد. تكلّمت أحياناً عن أركانيا وكم رغبت لو أنها أمها، فهي ملاك بقدر ما كانت أمها شيطانة. تكلّمت أيضاً عن فيوريلا صديقتها الوحيدة. لقد كتبتا معاً رواية عنوانها «غوندال» وقصائد. لولا هذه الكتابات الحمقاء لغدت مجنونة أو انتحرت. حدّثتني عمّن تحبّهم أو تكرههم كما لو كانت تتحدّث عن أموات، أموات عن حقّ، لن تستطيع رؤيتهم بعد اليوم على وجه الأرض. الحمد لله أن غوادلوب كانت من الماضي بالنسبة لها ولن تعود إليها أبداً. حين أذكّرها بوالدتها نينا وعزلتها في هذا السن المتقدّم، لم تكن حتى تجيبني. عموماً، هي لم تَبُح بالشيء الكثير، وأكرّر لك إني لم أتعبها بأسئلتي. ليس من الجيّد أن يغامر المرء في أزقّة ماضي الآخرين المعتمة.

تريدين أن أبدأ قصتي من البداية؟ أين هي البداية؟ ربما مكتوبة منذ لحظة ولادتي في دارٍ سقفها من القشّ، ليست بعيدة عن حدود حقول قصب السكر في «سيغو دو افيلا». ربما مكتوبٌ أني سأجوب الأرض ثلاث مرّات لألتقي في نحو الثلاثين من عمري بامرأة ضعيفة البنية، أُنجب منها طفلين وتبقيني عشرين عاماً إلى قربها. كنت حتى ذلك الوقت لا أتحمّل مسؤولية شيء، أنقضّ وأفرغ سائلي في كل الأكواخ. في صغري كانت أمي تربطني إلى ساق الطاولة. تلك هي الطريقة الوحيدة لمنعي من الركض في كل الأرجاء.

كان ذلك نهار سبت، في حفلة نظّمتها بلدية الدائرة الخامسة في ساحة

بانثيون، لمّا التقيت بريناالدا. في ذلك الزمن، أكلّمك عن نهاية الستينيات، لم تكن الهجرة تثير ذعر أحد. ما من كتابات على الجدران أو عنف في أقسام الشرطة أو ضواحٍ مشتعلة. كلّ شهرٍ، تنظّم جمعيات المهاجرين من الأنتيل حفلاً. الأوركسترات التي تعزف موسيقا التانغو والبوليرو والشاشا كانت تتخذ لنفسها أسماء إسبانية كإسبيرانثا ولوس ماتيتوكوس وإل كالدرون. الموسيقيّون يلبسون قمصاناً مزهّرة ويدّعون بأنهم كوبيون. أراغون كان معبود الجماهير. حين أتت سيليا كروز والسنيورة مانتاسيرا للعزف في باريس، كاد الأمر أن يسبّب حالات شغب في المدينة. هذه الحفلات كانت فرصاً لقضاء وقتٍ رائق ومرح. لم يكن أحد يدخّن الكراك، بل سيجارة ماريغوانا يتناوبون عليها هنا أو هناك، في ذلك الوقت لم تكن تسمّى بعد بالغانجا. هذه الحفلات كانت فرصة للتعافي من الحنين للوطن، من خلال التكلّم بالكريولية وشرب الروم وتجسيد شخصية الرجل الأنيق الذي يضع ربطة عنق أمام أبناء البلد. لم يكن لي مكانٌ أدعوه وطناً. هل هو هاييتي؟ أو كوبا؟ أو كندا؟ أو الولايات المتحدة الأميركية؟ أتيت إلى الحفل بسبب فيوليتا، وهي واحدة من فتيات غوادلوبيات أتردّد عليهن. رافقت فيوليتا صديقة ترجّتني أن أراقصها. لم أرَ سبباً يدفعها للتوسّل، لأني سأفعل ذلك من دون إذن منها. لم يكن لصديقتها أسنان بيضاء كاللؤلؤ ولا خصر نحيل ولا غمازات، ولكنها أغوتني بهيئتها الكئيبة وجفنيها الخفيضين وثدييها البرعميّين المشدودين بصدار لا لون له. كان يمكن القول عنها طالبة مدرسة والتساؤل لمَ ليست في المنزل تراجع دروسها؟ رفضَت في البداية بحجة أنها لا تعرف كيف ترقص. أخذتها من يدها مع ذلك لنرقص على أنغام لاكومبارسيتا، والتصقت بي كالزرّ بعروة القميص. هل أسرد لك ما

حصل بقية السهرة؟ عن حزن فيوليتا وبكائها وملامة أصدقائها وسباب إخوتها الذين أرادوا ضربي. كل هذا انتهى كما ينبغي له: مشينا عبر باريس في الساعة الثانية ليلاً، ومارسنا الحب على سرير غرفتي. حين استيقظت كانت قد اختفت كما كنّ يفعلن جميعهن دائماً. لكنها لم تكن سارقة ولم تلمس سنتاً واحداً في محفظتي.

مضت أسابيع وظننت أني نسيتها.

كان لديّ الكثير من المشاكل كما هي الحال معي دائماً. فقد عدت خالي الوفاض من سنتين أمضيتهما في السنغال حيث تطوّعت في سبيل السلام، ولكني اتُّهمت بالتدخّل في السياسة، فأُنهيَ عقد عملي. اصطحبني أصدقاء لي إلى باريس حيث خسرت عملي، ورحت أبحث عن عمل آخر من دون جدوى. أرباب الأعمال أرادوا أن أصبغ شعري وأحلق لحيتي. انتبهي، في ذلك الوقت لم يكن لي جدائل، أتى ذلك لاحقاً. كما أنهم ارتأوا أن اسمي الإنكليزي يبدو أميركياً وأنه ليس إنكليزياً حقيقياً. أما لغتي الإسبانية فكوبية اللكنة وليست إسبانية بالقدر الكافي. من وقتٍ إلى آخر رحت أعزف على الغيتار أو الساكسفون في أوركسترا. أحد أصدقائي، سيلفيو، وهو عضو في جمعية «مونتو» لم يتركني أواجه مصيري وحدي، وقَبِل أن أسكن معه وساعدني على ألّا أموت من الجوع. لكن ذلك لم يكن كافياً. أحياناً خطرت لي فكرة العودة إلى بلجيكا حيث أقمت قبل أن أرحل إلى السنغال، لكن كبريائي دفعني للبقاء في باريس. في أحد المساءات، وجدت نفسي أصعد الطوابق الستة حتى شقة فيوليتا لأسأل عن أخبار رينالدا. كانت فيوليتا تسكن غرفة في الطابق الأخير في بناء يقع في حيّ «دنفر روشرو». ويومذاك طبخت سمك النهاش على فرنها ثنائي الرؤوس،

ورائحة المرق عبقت في بيت الدرج. غرفتها كانت مليئة بغوادلوبيين يمصّون رؤوس الأسماك وهم يستمعون إلى أنغام مانويلا بيوش. نظروا إليّ مستغربين. سامحتني فيوليتا في الحال وسكبت لي صحناً، ومن ثم همست في أذني كلّ السوء الذي بإمكانها اختراعه عن رينالدا. تيتان؟ هذا اسم عائلة تعيش في ديزيراد. يمكن أن تكون مصابة بالجذام. على كل حال، لديها دمٌ فاسد، هذا جليّ. لديها بقع على وجهها وعملت خادمة في باريس. منذ أن دخلت مدرسة المساعدات الاجتماعيات وهي تتبختر. مدرسة المساعدات الاجتماعيات؟ هذا ما كنت أتوق لمعرفته.

انتظرتها واقفاً على رصيف بولفار B حتى اللحظة التي رأيتها تخرج فيها. كدت أن أنصرف لمّا رأيتها تتقدّم نحوي. تساءلت ماذا أجد فيها، ففي هذا اليوم بدت عادية. التقت أعيننا وبقيت واقفاً في مكاني.

أنهت دراستها بعد عدّة أشهر وحصلت على وظيفة في «سافيني سور أورج». انتقلت للعيش معها، الأمر الذي يناسبني تماماً، فإن كانت هي بحاجة إليّ فأنا بحاجة أكبر إليها. تزوّج صديقي سيلفيو من امرأة حادة الطباع، واضطررت أن أخلي شقته. لم يكن لديّ عمل ثابت بل أعمال بائسة، شهر هنا وشهر هناك. سمحت رينالدا لي أن أنام في الدفء تحت سقف بيت، وشاركتني كل شيء، مالها وحسابها المصرفي كانا لي أيضاً. هي التي تدبّرت لي العمل في مركز تأهيل الشباب الجانح، فالكلّ في البلدية جاهزٌ لإرضاء رغباتها. لم نتزوّج وهذا غريب. كلّ نساء الأنتيل يرغبن بوضع خاتم في إصبعهن وأخذ الصور وهنّ يلبسن ثوب الزفاف من ماركة «برونوبتيا». لذلك فإنّ الناس في محيطنا احتقرونا في سرّهم. ولكننا لم نكترث. لا حاجة لنا أن يزوّجنا رئيس البلدية أو الكاهن. رينالدا

تحتقر كل ما له علاقة بالدين، أكثر مني حتى. ما حصل هو أننا أقمنا احتفال مباركة في «مونتو». صديقي القديم المعلّم بوليوس بوليدور أتى خصيصاً من بروكسل لأجل هذه المناسبة. كنت قد تعرّفت عليه أثناء جولة له على قرى في السنغال حيث أساعد الفلاحين في حفر الآبار. كان مسنّاً ولكنه حافظ على طلاقته. حكى لنا كيف يتكلّم كلّ ليلة مع يسوع، يسوع الزنجي الأسود، الثعبان الملتفّ على الطوق حول عنقه. لم أؤمن بتلك الحماقات، ولكني أعجبت بالإنجازات التي تحقّقها «مونتو» في أوساط جماعتنا. شاركت رينالدا في الاحتفال عن طيبة خاطر لم أعهدها بها. غنّت أفضل من الجميع لمّا حان وقت الغناء، جثت على ركبتيها لمّا حان وقت الركوع، وشاركت في تناول الحساء المقدّس من دون ملح. مع ذلك، أخذني المعلّم جانباً عندما حان وقت الرحيل ونصحني بأن أحترس منها. كان يحبّني كابنٍ له ولم يكن يقدّر نوعية الناس من أمثال رينالدا. يعتقد بأنها قادرة على كل شيء، وحذّر كلّ أفراد الرعية منها. لم يكن ذلك عادلاً ولا سيما أنه ليس ثمة شيء يلومها عليه. تكفّلت هي بتدريبات الكورال. لا أعرف ما إن سنحت لك فرصة سماعها وهي تغنّي. لا يمكنك تخيّل الصوت الذي تملك، كأنّ عندليباً يسكن حنجرتها ويخرج فجأةً ليغرّد. الناس يبكون لدى سماع غنائها. كان بإمكانها أن تصبح فنانة عظيمة تُعجَب بها الجماهير. هذا أمرٌ غريب بالنسبة لشخص مثلي ليس لديه طموح، ولكن هذا كان حلمها، أن تصبح مشهورة. أفترض أنها كانت بحاجة إلى هذا الانتقام.

أهدتني رينالدا سريعاً أجمل هدية يمكن أن أحلم بها. طفل. رحت أشاهد بطنها يتكوّر وأرتجف. أنا الذي لم أنجح في شيء، نجحت في تحقيق هذه المعجزة. أمسيت سيّد الندى. وجدت الماء وجلبته إلى

السهل"[*]. ولد غارفي في 24 كانون الثاني الساعة التاسعة مساء. كانت رينالدا قد أُدخلت إلى قسم التوليد في اليوم السابق صباحاً، وفقدت الكثير من الدم. أوشك الطبيب أن يطلب لها عملية قيصرية، فالطفل كبير الحجم وفي وضعية غير صحيحة. أعترف مع ذلك أني لم أقلق على رينالدا الهزيلة الشاحبة. لم أكن أرى أمام عيوني سواه، متغضّناً ومكسوّاً بالشعر في حمّالته البيضاء كرضيع قرد المكاك. أرعى أنجيلا بحنان. أنا من أردت إنجابها، ولكن الأمر مع غارفي كان مختلفاً كلياً، فقد أحببته حباً جمّاً. في ذلك الشتاء، شتاء ولادته، لم أشعر بالبرودة. أخرج مرتدياً قميصاً قطنياً فقط، كنت كمن يحمل ناراً عظيمة تتدافع شراراتها في جسده. حياتي التي لا شكل لها، حياتي الفاشلة غدا لها معنى. أصبحت تأتيني أفكار مجنونة، سيحصل على التعليم ويغدو مهندساً كالذي صمّم جسر البوّابة الذهبية فوق خليج سان فرانسيسكو. سيكتب كتباً تُترجم لكلّ اللغات مثل الكتاب المقدّس. سيصبح موسيقياً معجزة، مثل جان سيباستيان باخ أو موزارت، سيكون له سمعة كبيرة. كل يوم، أتوق لانتهاء الدروس، فأعود إلى المنزل وأتأكّد أن قلبه ما زال ينبض في يدي. آخذه بين ذراعيّ، دافئاً ونعساً. في أحد المساءات، فيما أُغرقه بالقبل والمداعبات، أخذت رينالدا الجالسة إلى جواري تبكي. لم يكن ذلك بالأمر الجديد. ودائماً رفضَتْ الإفصاح عن السبب، ولكنّي خمّنت أنها تلومني لأني بتّ أعبد غارفي وأهملها.

(*) إيماءة إلى رواية «سادة الندى» للكاتب الهاييتي جاك رومين Jacques Roumain، التي نُشرت في عام 1944، وتعدّ من كلاسيكيات الأدب الهاييتي. وتتحدّث عن مانويل الذي يعود إلى بلده فيجد نزاعاً بين أسرته وأسرة أخرى على اقتسام الأراضي، كما يجد جفافاً كبيراً. يحاول إيجاد مصدر جديد للمياه، ولكنه بحاجة لمساعدة الجميع كي ينقل المياه إلى السهول. [م].

حضّرت نفسي لقول واحدة من المرافعات الدفاعية المعتادة ولجلسات المداعبة، ولكن الأمر كان مختلفاً ذلك المساء. دون أن تنظر إليّ، كشفت لي ما أسمته العار. لديها طفل آخر، بنت صغيرة بقيت على الجزيرة في رعاية إنسانة طيّبة من طيّبات بلادنا اسمها رانليز، وأنها لا تعلم عنها شيئاً. سألتها مرتبكاً عن عمر الطفلة. قريباً عشر سنوات! عشر سنوات. تخيّلت جدائلك المدهونة بالزيت ترقص على كتفيك، وحيويّتك كقطّة بريّة، ورشاقتك كغصن زنبق وأنت ترافقين أمك إلى الكنيسة وتغنّين معها: «أؤمن بك يا إلهي»، وأحببتك منذ ذلك الحين. لم ألُم رينالدا على أيّ شيء. إن قلت لك إني لم أفكّر في هجرها في تلك اللحظة أكون كاذباً، ولكنّي نجحت في ترويض غضبي. اعتبرت ذلك عقاباً على ما اقترفت بحقّ الفتيات الأخريات، فيوليتا على سبيل المثال التي خنتها مع صديقتها. منذ ذلك الحين وأنا أحاول أن تُصلِح هي، بمعنى آخر أن أصلح أنا نفسي، علاقتها برانليز. يوماً بعد يوم، صباحاً وظهراً ومساءً رحت أعيد عليها اللازمة نفسها. كان يجب أن تأتي لتعيشي معنا. مكانك معنا في «سافيني سور أورج». للمرة الأولى منذ أن تعارفنا عاندتني وقاومتني بكلّ طاقتها. ساقت لي شتّى أنواع الحجج. لم أنصت لها، فقد كنت على قناعة بأنه يكفي رينالدا أن تلقي نظرة واحدة عليك كي تعود تحبّك من جديد. وذلك لم يحصل. على العكس.

معتقداتنا خرافات. نعتقد بأن صلة الرحم هي الأقوى. لا يمكن للدم أن يستحيل ماءً. هذا ما تكرّره الأصوات الخارجة من إفريقيا. كل أولئك الأطفال الذين يتعرّضون للتعذيب ويُعاملون بخشونة ويُقطّعون إرباً إرباً، كل تلك الأجنّة التي تُرمى في القمامة أو في الغابات للتعفّن لم تجعلها

تخبو، وما زلنا نحن نكرّر من بعدهم أشياء يناقضها الواقع. تملّكني الندم حين رأيتك تتحوّلين إلى شبح، فأنت لم تعودي تبتسمين، عيناك فقدتا بريقهما، خدّاك مجوّفان، حتى شعرك فقد لون قشّ الذرة الجميل. ألم تكوني أكثر سعادة في المكان الذي أتيت منه؟ ألم تكوني أكثر سعادة مع رانليز هذه؟ لقد عشت في منزل مع شخص قلبه جاف أكثر من سهول السافانا. رؤيتها لك توقظ فيها ذكريات تفضّل نسيانها. وددت أن أمنحك أكثر مما فعلت، لكني لم أستطع. صار لديّ الشعور الدائم بأنني أضحّي بواحدة من أجل الأخرى. لا يمكننا في النهاية أن نغيّر شكل الطفولة التي عشناها. على المرء أن يتعايش معها.

حياتك تقريباً بدأت الآن، وتظنّين أنها شارفت على الانتهاء. ثمة مكان أمامك مخصّص للسعادة، ستشغلينه حين تتوقّفي عن الالتفات إلى الخلف وتبدئين التفكير في مستقبلك. لقد وضعت في رأسك فكرة أنك تريدينني، ولكن في الحقيقة أنت لا تريدين سوى الانتقام من والدتك. لن أمارس الجنس معك. سيكون الأمر سهلاً وحقيراً لكلينا. لن تكوني أبداً سوى ابنتي البكر، تلك التي لم أكن أعلم أنها موجودة، والتي تجلّت لي في عمر العاشرة لتطالب بمتأخّراتها من الحنان. أكرّر لك، إن كان لديّ نصيحة أسديها لك فهي أن تنطلقي إلى الأمام. فلتكن رينالدا مثالك، هي الدليل على أن الماضي الأكثر إيلاماً ينتهي به الأمر ويموت، وأن الشغف يتكفّل بتحقيق الطموحات التي تبدو للآخرين الأكثر جموحاً. بعد نشرها لـ«الأيام الغريبة» أعلنت لي رينالدا أنها على وشك نشر سيرتها الذاتية التي تعمل عليها منذ زمن يسبق لقاءنا بكثير. ستتحرّر بها من الحقيقة. ولكن لأني أعرف رينالدا جيّداً، أعتقد بأن الحقيقة لن تكون سوى خيال. ماذا

بإمكان المرء أن يكتب إن كان يتحدّث عن نفسه على كل حال؟ أعترف بأني شجّعتها على كتابة أطروحتها التي كان الهدف منها تحسين أحوالنا، وانتشالنا من «سافيني سور أورج»، ولكني لم آخذ أبداً طموحاتها الروائية على محمل الجدّ. ذلك كما لو أنها قالت لي: «أنا أيضاً أريد أن أدوس سطح القمر». فانتازيا. استطرادات. في الأوقات التي كانت فيها رائقة، أعطتني لأقرأ بعض الأوراق. لم أعرها الاهتمام الكافي، فبالنسبة لي ذلك عبارة عن وقت ضائع يجب تخصيصه لأشياء أكثر جدية. لا تهتمّي لي أبداً. لا تنقصني الموارد ولديّ أنجيلا، عكّازة شيخوختي، إلى جانبي. تمسك يدها بيدي الآن ولكنها ستفلتها يوماً. اتركيني حيث أنا. أما أنت فلقد بقي عليك أن تكتشفي أميركا التي لم تكتشفيها بعد.

.6

من خلال نوافذ مكتبي في الطابق الرابع من مبنى الجامعة، أستطيع رؤية نهر شارلز، كشريط شاحب بين ضفتين تأبيان أن تنفضا الجليد عنهما. حسب التقويم، لم يعد الربيع بعيداً، ولكن لا شيء يبعث على الاعتقاد بأنه بات قريباً. المدينة بأكملها ترتجف تحت معطف من الثلج الملطّخ. أشعر أني شخص يتعافى من مرض خطير ألمّ به، ضعيفة، منهكة حتى، ولكن مطمئنة أن الأسوأ قد مرّ. مضت أسابيع لم أرَ الثلج فيها يهطل، ولا الشمس وهي تحاول من دون جدوى أن تجد لها مكاناً في السماء، لم أسمع طواف الريح وضحكاتها حول الأشجار. كنت عمياء وبكماء وصماء. ثم، في أحد الصباحات، عادت أحاسيسي لي. أصبحت أميّز الأشكال والألوان، صفراء، حمراء، سوداء، زهرات توليب تخرج رؤوسها في الأحواض، الهواء أصبح له طعم الحليب الطازج.

عليّ استقبال الطلاب حتى الظهيرة. هذا عملي. عليّ أن أنتبه لما يقولونه وأن أتحاور معهم. لسخرية القدر، عليّ أنا، التي لا أعرف كيف أدير شؤوني، أن أساعدهم في اجتراح الحلول للصعوبات التي تعترضهم. منذ أسابيع ونحن نعمل معاً، بيض وسود لا أستطيع التمييز بينهم. يلبسون

المعاطف نفسها وينتعلون الأحذية نفسها، ويبتسمون بالطريقة نفسها، يحضرون الدروس بصمت مطبق ويطرحون أسئلتهم باحترام. أنا بعيدة كل البعد عن سجالات «روكسبيري».

ليس من العيب أن أمنح نفسي لرجل. علماء الاجتماع يؤكّدون أنه في الغالبية العظمى من الحالات، النساء هنّ من يقمن بالخطوة الأولى. الفضيحة هي أن تواجَه هذه المبادرة بالرفض، خصوصاً حين يكون هذا الرجل زير نساء، وباعترافه. غريب هذا الأمر! اعتقدت طوال طفولتي أن لودوفيك يمثّل الكمال. لم أكن أرغب بجسده بل بقلبه وعاطفته. في الحقيقة هو لم يكن زير نساء كأيّ رجل آخر. تألمت لمعرفة ذلك وعذّبت نفسي وأنا أحاول معرفة ما ينقصني، ماذا تملك رينالدا وكل الأخريات. لكثرة ما طرحت هذا السؤال على نفسي دون أن أصل إلى جواب، انتهى الأمر بي أن استسلمت للقدر. أقرّ الآن بأنه لا يرغب بي، هذا كلّ شيء. كرّر عليّ أنه لكثرة ما التفتُّ إلى الخلف تحوّلت إلى زومبي. نعم! هذا هو حالي الآن، زومبي، ولا أعرف من بإمكانه وضع رشّة ملح على لساني. ادّعى بأن كل تعاستي تتأتّى من أنه ليس لديّ هدف أنشده في حياتي. لا أعرف عمَّ يتكلّم. لطالما آمنت بالسعادة فهي الهدف الأسمى في الحياة. كلّ هذا الضجيج الذي يُحدثه البعض كالآداب والسياسة والدين والأعمال الخيرية هدفه الوحيد هو إخفاء هذه الحقيقة.

ماذا يروي هذا الصبي؟ شعره وعيونه وملابسه سوداء. ليس بأميركي من الرعيل الأول. قصة مهاجر جديدة! انه ابن إيراني من أنصار الشاه جاء ليحفظ ملايينه تحت سماء كاليفورنيا. حاضناته الفرنسيات علّمنه الفرنسية إلى أن بات يتكلّمها بطلاقة، حتى إنه علّمها في «تليفا» القرية الجزائرية

الصغيرة. لمعرفته الكبيرة بالأرض هناك، أراد تحضير رسالة دكتوراه عن رشيد بوجدرة. الطلاق. لمَ لا؟ شجّعته. الطالب الثاني.

كان لودوفيك يغضب حين أحدّثه عن تشوّهي. مع أنه يعرفه أكثر من أيّ شخص آخر، إلا أنه اختار أن يصدّق كلام رينالدا. الأمر واضح: المذنب هو جيان كارلو كوبيني. رفض أن يناقش كل الاحتمالات الأخرى وادّعى بأني لن أصل إلى نتيجة حاسمة بسبب هذه التناقضات والارتيابات التي تشوب قصة عمرها ثلاثون عاماً. لم يستوعب أنه في نهاية المطاف، هذه الهوية الحقيقية أو المتخيّلة باتت تعجبني. بشكلٍ ما، تشوّهي جعلني فريدة من نوعي. الفضل يعود لها في أنه ليس لديّ بلد أو لغة أو جنسية. أستطيع نبذ هذه الإزعاجات التي تنكّد عيش كثير من الناس. كما أنها تقدّم إيضاحاً لما أصاب حياتي. أستوعب وأقبل أنه ليس ثمة مكان من حولي لسعادةٍ ما. حياتي تسلك طريقاً آخر. قرّر هذا الطالب الإفريقي الأميركي أن يبحث في أعمال أحمدو أمباتيه با، علماً بأنه لم يزُر إفريقيا بعد. وصف له والده هذا المكان السحري من دون كتابة أو مخطوطات أو كتب أو مكتبات. كان ينوي أن يدرس ظاهرة الرواة-الشعراء الذين يملكون قدرة سحرية على ترويض اللغة. وافقت أيضاً. من أين ينبع سحر إفريقيا الذي لم تستطع تلطيخه صور البؤس والتعذيب التي تُعرض على شاشات العالم أجمع؟ قريباً ستعود أنثيا من غانا ورأسها محشوّ بكلّ ما تخيّلته. أستطيع سماع كلامها الآن. ستخبرني بالتفصيل تاريخ إيفوا. ستعيد على مسمعي القصص المكرّرة الحالمة عن فردوس الأمس، عن «ميدل باساج»(*)، تلك الرحلة الرهيبة التي قمنا بها جميعاً قبل أن نولد، عن تشتّتنا في أركان

(*) Middle Passage: الرحلة القسرية للأفارقة المستعبدين عبر المحيط الأطلسي إلى الأميركيتين. [م].

الأرض الأربعة، عن عذاباتنا. في المقابل لن يكون لديّ شيء أقوله سوى مآسيّ الصغيرة، والسبب الحقيقي وراء سفري إلى أوروبا وظروف هذا الفشل الجديد، اكتئابي وبداية شفائي. سأصمت خجلة وأنا أنتظر أن يصير بإمكاني أن أخترع حيوات.

ها قد اكفهرّت السماء دون سابق إنذار. عاد الثلج للهطول مجدداً، ثلج خفيف، تتناثر ندفاته في السماء، ثمّ تتفتّت تحت أقدام المارة.

أرجو أن يكون هذا الثلج هو الأخير لهذا الموسم.

ماريز كونديه

كاتبة روائية ومسرحية وناقدة من غوادلوب، المستعمرة الفرنسية الواقعة في منطقة البحر الكاريبي. بدأت نشر كتبها بعد أن تجاوزت الأربعين من عمرها، وتراوحت أعمالها بين الرواية، والمسرحيات، والأدب الموجّه للأطفال، والدراسات النقدية والسياسية. تستكشف في أعمالها موضوعاتٍ متعددة: الزنوجة، علاقة السود في منطقة الكاريبي بالقارة الإفريقية، الاستعمار، حقبة ما بعد الاستعمار، الكاتبات النساء... تنقّلت بين بلدانٍ عديدة وحازت عدداً من الجوائز، آخرها جائزة نوبل البديلة للآداب في عام 2018، لأنها «تصف ويلات الاستعمار وفوضى ما بعد الاستعمار بلغة دقيقة وبالغة التأثير. وهي تستحضر في رواياتها الأموات إلى جانب الأحياء، في عالمٍ يدور فيه الجندر والعِرق والطبقة باستمرار في تشكيلاتٍ جديدة».

من أبرز أعمالها: ملحمة «سيغو» بجزأيها، «بانتظار السعادة»، «آخر الملوك المجوس»، «هجرة القلوب»، «ديزيرادا»، «الحياة الآثمة». وقد نشرت آخر رواياتها بعد تجاوزها الثمانين من العمر.

د. معن السهوي

أستاذٌ مساعدٌ في قسم الدراسات الفرنسيّة في جامعة براون بالولايات

المتّحدة الأميركيّة، ومدرّسٌ سابقٌ بجامعة دمشق، حاصلٌ على شهادة الدكتوراه في الرواية الفرنسيّة الحديثة.

صدر له مؤلّفان باللّغة الفرنسيّة عن الرواية الفرنسيّة المعاصرة، وعدّة ترجماتٍ بالعربيّة.



تصميم الغلاف نجاح طاهر

لا تعرف "ماري نويل" من هو والدها، ولا تعرف لماذا تخلّت أمها عنها بعد ولادتها مباشرة وتركتها في عهدة رانليز، كما لا تعرف ما الذي دفع هذه الأم لإرسال رسالة بعد عشر سنوات تطالب فيها بابنتها.

تسافر الطفلة إلى المجهول، فتعيش مع أمٍّ باردة عاطفياً، تعذّبها ذكريات الماضي. وبعد أن تكبر تذهب إلى بوسطن لتكمل دراستها، وتتزوّج من عازف جاز مبتكر، فيما سؤال "من أنا؟ ومن هي عائلتي؟"، يظلّ يطاردها في كل الأماكن التي تعيش فيها، ولذلك تسعى لفهم ما جرى قبل ولادتها، غير أن سلسلة من الأسرار المظلمة والحقائق المراوغة تكون في مواجهتها.

في هذه الرواية التي حصلت على جائزة Prix Carbet de la Caraibe، تكتب "ماريز كونديه" حكاية الحب الضائع، والأمومة غير المرغوب فيها، ملتقطةً صوت الشتات الكاريبي، برشاقة وعذوبة.

ISBN 978-9933-641-75-7







